الطبعةُ الثانيةُ

متاهةُ أخيرِهمْ

محمد الأحمد

رواية

عين على الكتاب
الثقافية
دار للنشر والتوزيع

محمد الأحمد
متاهة أخيرهم
رواية
2019

متاهةُ أخيرِهمْ

محمد الأحمد

توفر متن هذه الرواية المذهلة على عدة عوامل لتجعلها الرواية الناجحة، أولها محورها حكاية مشوقة عن تاريخ عائلتين عراقتين، بامتداد لأكثر من مئة عام غطت بتفاصيلها أحوال العراق حتى نهاية القرن الماضي.. فيها المعلومة المسردة بتفصيل أنيق، كأنما وثيقة تأريخ: قال عنها مترجمها إلى الانكليزية "كريستوفر مارس" في مفتتح تقديم طبعتها الانكليزية الثانية "بأنها رواية استوفت بشروطها الفنية لتكون واحدة من بين أجمل الروايات في العالم". حيث تتميز هذه الرواية الإشكالية "متاهة أخيرهم" بأنها ليست عملا عن التاريخ المنظور بل عن أجيال ومفارقات، يأخذ فيها المألوف موضعا غريبا حتى يحرضنا على التكهن والتأمل، لأنه عمل هام بكل المقاييس.

-الناشر-

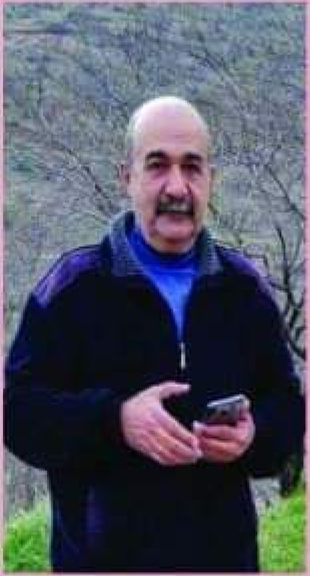

محمد الاحمد

كاتب عراقي تولد 1961

حركة الحيطان المتراصّة (رواية)
ورد الحب وداعا (رواية)
دمه (رواية)
جمرة قرار أبيض (قصص)
أربع وأربعون متوالية (قصص)
بعد الجمر قبل الرماد (قصص)
ما بين الحب والحب (قصص)
زمان ما كان لي (متوالية قصصية)
الحلمُ بوزيرة (متوالية قصصية)

لوحة الغلاف للفنان منير العبيدي

عين على الكتاب
الثقافية
دار للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي
مجمع الميالي - الطابق الاول
هاتف: 009647714343692
تصميم: علي كاظم الشويلي

9 789922 906935

/

متاهة أخيرهم

رواية

The maze of the last one

By: mohammad Al_ahmed

الكتاب : متاهة أخيرهم

المؤلف: محمد الاحمد

الصنف: رواية

الطبعة: الاولى

سنة الطبع : **2019**

رقم الإيداع في دار الكتب و الوثائق ببغداد (000) لسنة **2019**

لوحة الغلاف للفنان منير العبيدي

تصميم الغلاف و الإخراج الداخلي : علي كاظم الشويلي

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

عنوان الدار : بغداد – شارع المتنبي – مجمع الميالي – طابق الاول

الهاتف: 009647714343692

alwarsha2018@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه في نطاق استعادة معلومات او نقله بأي شكل من اشكال دون اذن خطي مسبق من الناشر

ان الاراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الورشة الثقافية

/

متاهة أخيرهم

محمد الاحمد

رواية

The maze of the last one

By: mohammad Al_ahmed

ملاحظة:

تُرجمت هذه الرواية الى اللغة الانكليزية

قبل ان تظهر طبعتها العربية الاولىً

/

أتمنى:

أن تغفروا ليَ كلّ هذا الخيال،

وان لا تلوموني،

عن عدم التشابه، أو التطابق...

حيث لا تُقارن الحصاة بأختها..!!

- التأريخ ليس واحداً، فكل أمة تحكي حكايتها وفق ما يناسب غرورها..

***** ***** *****

- نكذبُ على الاخرين فنظن خدعناهم بكذبنا، ولكن الحقيقة بأن الكذب يبقى كذباً متعدد الصور، والحقيقة واحدة لا تقبل التغير..

***** ***** *****

- العاطفة يا سيدي السارد، دائماً، تفسد كثيراً في الفلسفة التي كنت فيها فلكاً متحرراً.. كما الفلسفة، تفسد كثيراً في العاطفة التي كنت فيها فلكاً متحرراً..

/

باب الدخول

١٩٦٦-١٩٧٢م

/

"أنا أبن مَن بعضُهُ يَفوقُ اَبا الباحِثِ والنَّجلُ بعضُ من نجَلَه"[1]

---

[1] المتنبي

عفرةُ غبار المجلدات المتراصة، جعلتني أهبطُ الى الاسفل. فكان امامي ممرّ صار يفضي الى انفراج الظلمة.. بقيت أتطوّح حتى وصلت العمق.. كانت تحت عينيّ حياة تغصّ بالذين أثقلتهم تواريخهم، وكأنهم يئنون تحت كل ذلك الضغط، صمتٌ مهموم، يتكاثف. كتب كثيرة تراصفت في الرفوف، وملأت المكان برائحة الحبر الطباعي.

يهودا ناجي

١

الرجلُ الوحيد الذي دخل الى ذلك المكان، وبعد عشرات السنين، هو الذي استطاع وصفه بكل تلك الدقة المتناهية.. بيت بطابقين فيه نافذة واحدة تشرف على الباب الرئيس، ومنها يتفحصون الطارق. يعيش فيه ثلاثة اشقاء، (يهودا، حسقيال، وسناء). لا يمنعون عن اي محتاج حاجة، ولا يردون سائلاً.. خاصة في امور الطبّ.. يهبون الدواء لكلّ مريض او مصاب، شهرتهم طغت آفاق المعمورة، يأتي اليهم الناس من كلّ مكان.. خبرتهم متوارثة في الاستطبابات والعلاجات الناجعة، وبيتهم هذا يقصده القاصي والداني..

قال "ابي" بأنهم لا يتركون بابهم مفتوحاً على الإطلاق ولا يدخلون الى بيتهم غريباً، ومهما كان السبب.. يقضون حوائج الناس من تلك النافذة التي رايتها، بدون ان يفتحوا بابا لأي كان. لم يتعرضوا لحادث، ولكنهم يتوجسون خيفة مما يحدث لأقربائهم في اماكن أخرى.

يوم دخلت اثارني التأكيد على طارق الباب، حتى عرفونا، من بعد ان تفحصتنا الأعين جيداً، وغلقت علينا الباب برتاج كبير. لم يكن مضيفنا بملابس نومه، بل كان يرتدي بدلة بهيّة ويضع ربطة عنق، موشاة بخطوط لامعة، ويفوح منه عطر نفاذ. لم يسأل لأنه بعد ان شاهد صار يعرف ماذا عليه فعله.

كنت قد رأيت امامي باحة مضيئة، ودرجاً تحته بئر ماء. شاهدت "حسقيال" يركض اليه ويعود بدلو ماء بارد غسل به رؤوس اصابع يدي التي احترقت بالدهن الساخن، يومها غسلها من الدهن وراحت شقيقته (سناء) تجلب شاشاً ومرهماً وشيئا اخر لا اتذكره. كنت

/

اشعر بألم الحرق، وراح يخفت تدريجياً، بسبب فعالية الدواء السريعة، حتى نسيته، سألني ان كنت قد سجلت في المدرسة فأجبته:

- "امي تقول في العام القادم".

لم يكن "أبي" ابن جارهم، وحسب، ولكن لأنه احد الذين يعتمدون عليه في ادارة أملاكهم وخاصة دار السينما التي كانت بإدارته ومسؤوليته. كذلك عمي "صبحي" يعمل لديهم في شاحنة نقل "الكيروسين"، فاهتموا بي وقدموا لي اكثر من قطعة حلوى وكنت ارى ابي يشير برأسه لي يشجعني على ان آخذ منهم ما يقدموه لي. رحت انظر الى الطابق العلوي بعد ان نزلت منه قطة بيضاء، كأنها تتهادى مع انغام "الغرامفون" الذي كان يصدح بصوت "اديث بياف" تاركاً رهبة داكنة، وطيبة.

قالت المرأة بان القطة اسمها (سنونة)، وسألتني ان كنت احبّ القطط، فهززت رأسي بالإيجاب. ثم ابتسمت وكأن ألم الحرق قد خفّ عني وجفت دموعي، وبقيت انظر الى اعلى فقد كانت هناك في الاعلى غرف بعدد الغرف التي في الطابق السفلي. ثم اخذتني من يدي وراحت تساعد شقيقها بالدلك الدقيق بالمرهم لتفادي اثار تلف الجلد الذي احدثه الحرق، كان ينزل به برأس اصبعه من ساعدي الى رؤوس اصابعي بتأنّ، والبسمة لا تفارق شفتيه.

لمحت احدى الغرف تبينت لي من فرجة بابها بانها تغصّ بالكتب المتراصة من الأرض، الى السقف. وكانت هناك آلة كاتبة ترفرف فيها ورقة بيضاء كأنها تتراقص مع نغمة الاغنية الناعمة التي تنشر سحرها في البيت العابق برائحة النظافة، والنظام.

/

كلما قرأت وصفاً جديداً لذلك المكان تحررت حمامة بيضاء من قفصها وراحت ترفرف في الفضاء الحرّ، كانها خارجة من بين صف الكتب الطويل الذي تنتظرني قراءته..

كان "ابي" يصغي الى الرجل الذي خرج من تلك الغرفة، وهو يقول:

- (كان يمرّ في الاماكن الشهيرة، ويصفها.. بعد ان نفوه قرر ان يبدأ برحلاته التي قام بوصفها شملت "ليبيا"، "أوكرانيا"، "إيطاليا" و"صقلية". ترك أثرا عيّناً مدوناً بوصفه زائراً احترف الوصف.. كما وصف مدينة "بابل" إلا أنه لم يزعم انه كان قد زارها في كتابه).

بقيت ذاكرتي تسجل كل شيء، الروائح الطيبة، النظام الصارم، الاحترام العظيم، الموسيقى الساحرة، وكأني حقاً دخلت السينما في المكان الذي يعيش فيه الممثلون، الوان باهرة، ورود متنوعة، اضواء مريحة، ارض مفروشة، ونفوس مرهفة.

"تخيلت وجه (هيرودوتس) الأسمر وهو يعتمر شالاً أبيض، يحميه من شمس الشرق اللاهبة، وأتربته التي تزكم الانفاس. وكأنه يجلس في احدى مقاهي المعمورة، ليشرب قدح شاي مع مجموعة رجال"!!.

- "فعلاً.. كان للرجل لحية بيضاء كثة، ويرتدي قميصاً ابيض، وعندما يتحدث يلوح بيديه اكثر من أي شرقي".

عينا "ابي" كانتا لا تلتقيان الا به، وكأنهما تأخذه الى عتمة زرقتهما.

ضحك الرجل ملياً ثم دنا الي مقبلا جبهتي، وبقي مستمراً في الكلام. بعد ان فتح الكتاب على صفحتين متقابلتين، مضيفاً:

- (هنا يصف في كتابه لقاء له مع "مخبر" في "اسبرطة" ويبدو أنه قد عاش فترة في "أثينا". عام ٤٤٤ ق.م انتقل من أثينا إلى مستعمرة يونانية في جنوب إيطاليا تدعى "توري" حيث بدأ بكتابة تاريخ "هيرودوتس" في تسعة مجلدات، واستغرق في كتابته ثماني سنين. وهو مؤلفه الوحيد الذي وصلنا كاملا).

صرت اصغي مثلما يصغي ابي الى الرجل البالغ الأناقة، الواضح المخارج. فبقيت تلك اللحظات مجهولة غامضة، وخانقة. وكان في المدى اسطر تترى:

- البوابة المقفلة فتحت..

للتاريخ بوابات لا تفتح الا بلفظ مطلسم وضعه ساحر في حقيقة أمره كان حاكم زمانه. المنتصر حاكم الزمان الذي احتجز التاريخ، لصالحه.

كيف سيحرر كل تلك العبارات المُحرِّضة على ان تكون التاريخ البديل.

كان ابي يواصل الإصغاء، بعد ان لفّ "حسقيال" يدي المصابة بالشاش جيداً، ثم اخذتني "سناء" من يدي وراحت تلعب معي، كعادتها. اسعدهم ان تكون شقيقتهم فرحة بي، ومستمتعة.

كنت معها أتحدث بحميمية، وصار ضحكنا يملا البيت حيوية...

شاهدت آلة كاتبة مهملة في نهاية البيت.

- "سأكتب بواحدة مثلها ذات يوم".

لا ادري كيف نطقت بكل ذلك الكلام، وكانني كنت اعي ما اقوله، واحتكم على مستقبل كان يجري امام عيني مكتوباً وكأنما اقرأ سطوره بعفوية.

قالت "سناء" سنسأل اخي ان كانت تلزمه ام لا ؟، فأجاب بكل ثقة: - "هي له"...

وأضاف قائلا:

- ما زالت تعمل بصورة جيدة. فهذه هي التي كتبت عليها عودة "هيرودتس"، ستدخل المدرسة وتتعلم وستعلم "ابراهيم" الكتابة عليها، هو لا يعرف غير لغة الارقام والحسابات عساه يوماً أن يعرف لغة التأريخ.

للخالة "سناء" جمال باهر، مظهر انيق جداً، معتنية بشعرها السبل الفاحم، ترتدي ثوباً جميلاً، وتعلق على جيدها نجمة لامعة. صوتها دافئ، ضحكتها ساحرة، وخطواتها مليئة بالثقة. طولها فارع وخصرها نحيل. عيناها نجلاوان، مشعتان. تفوح منها رائحة طيبة جداً.. تشجعت فقلت لها:

- "انك تشبهين الملكات في افلام السينما يا خالة"
- "انا عمتك.. ولست خالتك"!!

بقيت تسألني عن وصف تلك الملكات والأفلام التي رأيتها..

كنت اطلق العنان لمخيلتي البريئة التي فاضت بما لا استطيع نسيانه. الزمن هنا يتبادل المواقع. ما بينهما يقف "هيرودتس".. كانه يجفف الدموع العصية عن التوقف.. للزمن رائحة ما، غيابها يعيق الباحث المدمن عليها. لا يستطع ان يكفّ عنها، وان غابت يبدأ كأي

مدمن بالهياج. يبحث عن تلك الرائحة، وذلك التورط اللذيذ. عرفت يومها سرّ اهتمامه. كانه بقي يحدثني دائماً عن الرجل الذي احبّه وهوَس به الى حدّ يعتبره اول كتبة التأريخ...

صرتُ انا كذلك، فيما أبحثُ عنه في الكتب التي مرت اسطرها تحت عيني، "هيرودتس".. كأنما صرتُ امشي معه، واكلمه.. تاريخ موصوف في كتب مرصوفة، الرجل في زي عربي بين العرب، ويركب الصحراء.

كنتُ اراه شامخاً يطلع من ثنايا التخيل، ولم اكن اعرف يومها غير كتب العرب المكتوبة بلسان العرب، كتبهم التي تغص بالكلام، والاحلام. تراصفت وفاحت برائحة تاريخهم، وفعلهم.

كنتُ الطفل الذي يقرأ احلام الكتب، وكلامها..

*****   *****   *****

قالت عمتي "سناء":

عندما لحظتني احدق بـ"الغرامفون"، الذي يدور صادحاً بالأنغام المدهشة..

- "هل تعجبك الموسيقى"؟..

- "تعجبني"

- "اديث بياف".. مطربة فرنسية لها صوت يروقني..

بقيت تواصل القول:

/

- "اسمعها ولا افهم لغتها، لكنها تجعلني اشعر بكل حرف تنطقه"..

ثم اردفت وهي تشد بفرح على اصابعي..

- "الانغام العظيمة لغتها واحدة"..

اصابعي الباردة الصغيرة بين اصابعها الدافئة الكبيرة، تأخذني لتجول بي الطابق الثاني، رأيتُ غرفة الكتب، وبقيت اجول بعيني على حافات اغلفة الكتب الملونة، رأيتُ تراصفها..

- "ستقرأ كل هذه الكتب عندما تكبر"!!..
- "ما اكثرها"؟..
- "عندما يبدأ الانسان بحرف جنب حرف لتكون الكلمة والكلمة جنب الكلمة ليكون القول.. سيعجبك القول والقول يتبع القول.. هكذا هي الكتب"!!..
- "يعجبني"...

كنت اصحبها من مكان الى اخر، لا افارقها..
انتبهتُ الى شيء ما كان معلقاً في وسط حائط احدى الغرف..
عيناي بقيتا عليه..

- "تلك اسمها "ماندولين[٢]"..

كانت الاصابع الدافئة تأخذني برفق حنون. كأنها تودّ ان تسمعني كل ما تقوله لنفسها:

---

[٢] آلة موسيقية..

- "موسيقى البيت المنتظمة، تتهادى بإيقاع حياة مليئة بالتواصل مع الكون، عندما تسكت تلك التي نظمها العقل البشري. لن يحلّ الا صمت مطبق"..

بقيَ صوتها الناعس مع طراوة الانغام يواصل القول:

- "تقتحم رأس الانسان موسيقى الحياة من كل جانب مثل حفيف الهواء من النوافذ، أو زقزقة العصافير على الشجرة، الكون من حولنا مجموعة نغمات لن يتوقف الانسان عن التقاطها، والتفاعل معها"...

كانت اضاءة الغرف تعطي شعورا ان حياة مليئة تدبّ في كل زاوية من زواياها، تبدو خطوط بلاطات الارض الفاصلة خالية من الاتربة. فكل غرفة ندخلها تفوح منها رائحة طيبة. فالهواء فيها يدور عبر نوافذ مزججة، مفتوحة في مواجهة الشجرة.. كذلك الضوء..

****** ****** *******

بعد الرابعة عصراً، من كل يوم، تأتي "العمة سناء" الى بيتنا، وقبل أن تأتي، كانت ترمي حجر صغير على الباب، وما ان نسمع ارتطامه بالباب حتى نتأهب جميعا، لاستقبالها. نفتح الباب لها، تأتي دون ان تتأخر، ولا تودّ ان تنتظر على الباب. احياناً كانت تخاف ولا تأتي الا ان يؤمن لها الطريق، حتى لو كان دربها لا يبعد سوى عشر خطوات. ترفض بان تتقدم خطوة واحدة ما لم تتيقن أن دربها آمن.

كذلك يحدث العكس عندما تريد الرجوع الى بيتها، ايضاً، تبقى واحدة منهنّ تؤمن لها الطريق، حتى تدخل العمة "سناء" بيتها. ولم يحدث ان نسيت بان تجلب لي معها في كل مرة قطعة حلوى، او قطعة

/

خبز محلى، او بعضا من فاكهة مجففة. تأتي مسرعة، ملهوفة، ممتلئة بالبهجة، وضحكتها واسعة، وكل مرة تضمّني الى صدرها بشوق وسعادة..

تأتي بعباءتها السوداء، الموشاة بخيوط لامعة، وتعلقها كعادتها على المسمار الذي وجد لذلك الشأن، المثبت بالحائط خلف الباب. تكشف عن ضفيرتين طويلتين من شعرها الاسود الفاحم، وهما تتمرجحان بمرح على كتفيها، مثل قرطيها اللذين ينوسان على خديها البضيّن. ولم تبدل العقد الذي يحمل نجمة فضية صغيرة، متأرجحه على الجيد الذي استقرت في بياضه نقطة حُسنٍ بلون القهوة، كأنما لتكشف نقاوة بشرتها. ترتدي فستاناً فاتح الالوان، أو الوانه متدرجة، ذات ملمس ناعم، وتفوح منها عطور طيبة.

اراها مثل جدتي التي كانت تغسل يديها عشرات المرات في اليوم الواحد، وتبقى تفوح منها رائحة الصابون الطيبّة، طوال اليوم. ودائماً تحرضني على ان أغسل يدي، قبل ان تناولني ما بيديها، غالباً ما انتظرها عند عتبة الباب الخارجية، وتقبل "جدتي" و"عمتي" ثم "امي"، مثل كل يوم. ولا يؤخرها عن موعدها امر سوى يوم "الجمعة" تأتي بعد انتهاء فلم العصر، الذي يعرضه التلفزيون، ثم تغيب عنا كامل يوم "السبت"، معلّلة فيه بانها تنجز بقية اعمالها في تنظيف البيت.

تتعمد ان تحدثني بحروف واضحة المخارج، وكأنها تريدني ان اتعود سماع الفاظها، فأتعلم منها اللفظ الصحيح. تأخذ بيدي، وتحملني، وترفعني الى اعلى، وانا اضحك معها، وتطلب مني ان اجيبها، وان اسألها، مستمتعة معها "امي"، معهن، يلعبن، ويتضاحكن في فناء البيت. وما ان تنقضي الساعة، مثل كل يوم حتى تطلب منا ان نؤمن لها طريقها، لتعود الى منزلها.

/

******* ****** ******

عندما تحضر تلك الضحكات المنتشيّة الى باحة البيت.. تحضر معها اجواء مشجعة على تواصل المرح، فتكون الضحكات النسوية متواصلة، ومتداخلة بالإشارات، والنقاشات. كنت اشعر ان عيونهن عليّ، واهتمامهن بي. كنت ذلك المحور الذي يحاولن لفت انتباهه، وكنت ايضاً احاول معهن ملأ ذلك الفراغ المتناهي من الفرح. ضحكات شفيفة متواصلة بالغنج، والمحبة، مصحوبة بعبثهن، وكانهنّ صبيات. يمرحنّ على عين ماء رقراقة، والبسمة تتسع في الوجوه. كحكايات، ولمزات الابطال في الافلام التي كانت يستذكرنها مما شاهدن على الشاشة. فتعرضها عيونهن، وايديهن، وحلاوة اصواتهن.

كنتُ بينهن دائماً اتحدث، دون ان أسكت، او اهدأ صاخباً مع صخبهن، ابقى اتكلم كلمات طفل لا تكتمل. ارى الكلمات، صوراً. فأعيدها عليهنّ.. متحولة الى صور اخرى، حيث لا ادري كيف تحضر الى ذهني تلك الخيالات، والانثيالات. انطلق متحدثاً.. لا يتوقف اللسان عن مواصلة النطق، كببغاء حفظ نهايات الكلمات التي يسمعها، فأكون بينهم "مغوغاً" كطفل لا تتواصل حروفه، ولكن كلماتي المنطوقة تترى بتواصل الصور التي أراها.

لم اكن اعرف باني كنت اخلط ما اسمعه بما أراه.

******* ****** ******

لم تكن هناك اية قصة حبّ بين عمي "أحمد"، والعمة "سناء"، كما لمحت لـ"ابي" ذات مرة زوجة عمي "صبحي"، ولم يكن لتلك القصة، على الواقع، اي أثر، بل كانت من صنع خيالها، اذ كانت تغار من الزيارة اليومية التي تقوم بها العمة "سناء" الى بيتنا.

واشبه بشعلة نار قد احدثت توترا شديداً بين الشقيقين "ابراهيم"، و"احمد". كأنها هي من تسبب في تباعد الاخوين، بمجرد أن أسمعت تلميحها الى "ابراهيم" بان "احمد"، يتودد الى "سناء"، ولم يتقبل ما سمعه منها، فالأمر يعدّ كالكفر العظيم، كونها اختاً في الرضاعة.

يبدو بان زوجة عمي قد نسيت بأنهما اخوان، ولا يحق لها الشك قطعاً، وان الامهات قد تساعدن في كل شيء، حتى في ارضاع اولاد بعضهن البعض. وباتوا أخوة.

اما اهتمام "احمد" بـ"سناء"، فلم يكن يتعدى وقوفه حتى يتم الاطمئنان عليها، تنفيذاً لطلب "أمه"، فهي التي تريد منه ان يوصلها حتي باب بيتهم، والعودة..

هكذا اوقعت نفسها "زوجة عمي" في عزلة ولم يعد احد يقبل منها حتى المجاملة، وصارت "سنية" و"امي" لا يكلمانها باي حال من الاحوال، وكلما تأتي زوجة عمتي، كانت العمة "سناء" مع أمي يدخلن الى الغرفة، ويبقيّن فيها حتى تغادر البيت.

******* ****** ******

العم "أحمد" العمل مع "مير"، وبقيّ يصاحبه الى "بغداد"، يساعده في سياقة الشاحنة الكبيرة لينقل من "بعقوبة" واليها شحنات النفط الابيض والاسود، وكان لا يعود من عمله الا كل "خميس"، ثم اخذ غيابه عن "بعقوبة" يطول، و لا يعود كل اسبوعين او اكثر، وبعدها غير عمله، الى عمل أخر، ولم يعمل في شاحنات نقل النفط، وصار لا يأتي إلينا الا كل ستة اشهر، أو اكثر... لكنه بقي يرسل النقود لجدتي، دون ان تراه..

/

******* ****** ******

صرتُ اعرف بان الساعة قد اشارت الى الرابعة عصراً كلما قدمت، واعرف بانها الساعة الخامسة عصراً كلما غادرت.. بعد لعبة، "التوكي[٣]"، او "الراجح[٤]"، او اية لعبة تعمّ عليهن بالبهجة. كانت علاقتها مع "امي" جداً ودودة. كانت تلك الساعة من كل يوم، تنقضي، وكانها دقائق، تعودنا عليها، وكذلك "امي":- تقول بان يوم "السبت" هو من اطول ايام الاسبوع، وكل سبت من كل اسبوع، تبدأ فيه بغسل البيت كاملاً، متعاونة معها عمتي "صبيحة" وخلال ساعة يكون نظيفاً وجاهزاً..

كل الغرف الخمس متجاورة، ثلاث منها على اليمن، وغرفتان على الشمال. وثمة باحة ترابية ممتدة حتى شجرة التوت الكبيرة المتوسطة بحجم تشابك اغصانها تتوسط باحة البيت. بجانب الشجرة بيت الكلب الذي دائماً يغسله "ابي"، وكذلك تغسل "امي" او "عمتي" ما يحيط بالبيت الخشبي الصغير التابع لمنام الكلب، ثم تكنس بعده باحة البيت كلها، من بعد ان تجرف الاوراق المتساقطة من الشجرة..

كانت واحدة من الغرف فيها ادوات الطبخ، وصاروا يسمونها المطبخ، والتي كانت تجاور غرفة عمتي "صبيحة"، والتي وضعت فيها منضدة عريضة، وجهاز تلفزيون صغير ماركة "نصر" المصرية، وثمة سريران خشبيان ومتقابلان. ارضية الغرف رصفت كما رصفت بقية الغرف بطابوق احمر عريض.

---

[٣] احدى لعب البنات..

[٤] احدى لعب الاولاد..

اما غرفة معيشتنا؛ كانت هي أحدث الغرف، لأنها بنيت فيما بعد من بناء تلك الغرف.. جدرانها مطلية بالجص الابيض والذي اعطى عمقاً مفتوحاً عن بقية الغرف... فيها خزانة ملابس متكونة من ثلاثة ابواب، وثمة سرير كبير يتوسط الغرفة، وفي نهايتها، وضع سريري، بجانبه منضدة حملت الى السقف الكثير من افرشة واغطية النوم، والتي كانت اغلبها جديدة، ولا تستخدم الا عندما يزورنا الاقارب.

اما الغرفتان الأخريات فكانت واحدة لمبيت اعمامي، والثانية تنام فيها جدتي مع عمتي.

******* ****** ******

لم تعد العمة "سناء" تأتي بسبب الحوادث التي سمعوا بها، وما الحقت بهم من خوف، ورعب..

اذ وصلت الامور ببعض الناس بتعرضهم للأذى المباشر، سواء كانوا في الاسواق، او في الطرقات، واخذ الخناق يزداد عليهم، يوماً بعد يوم، وصارت القصص يوماً بعد آخر يصعب تصديقها، وصار على الفرد، ان لا يمشي وحيداً في طريق، وعليه ان يتجنب الطرقات التي تنعدم فيها السابلة..

******* ****** ******

لم تكن صورة "العمة سناء" غائمة في الذاكرة، كما صورة "العم "يهوده" التي لو حاولت استحضاره، وتخيله لبدت لي صورته غائمة مشوشة. لأني لم احظَ بالوقت الكاف لأحفظ ملامحه، كما حفظت ملامح العم "حسقيال".. اذ حظيت بوقت كاف لحفظ ملامح العمة "سناء". فدائماً الرجال لا يتواصلون مع الاولاد الصغار، عندما

يحظون بنفس الفرصة التي تحظى بها النساء، فثمة الفة ناعمة تطلقها طبيعتهن، تجعلهن اكثر تقبلاً، ويكون نحوهن الميل، وليس الاستغراب. صورة جميلة لم تتغير كلما اتذكرها. ودودة، وحنونة. وعرفت فيما بعد بانها متعلمة جداً..

كنت ذلك الطفل الوحيد المحتفى به، وهو المحتفي بما حوله. أشارك بالكلام مع من يسألني ويتواصل معي، ويستمع الي. فاحكي له كل ما أراه في التلفزيون، واكون متشجعاً كلما وجدت احداً ما يصغي الي.

دائماً تتحرك عربات، واخيلة تركض امامها، وثمة احداث، تتداخل ما بين المتخيّل، والمرئي.

******* ****** ******

صرنا نفتقد العم "احمد"، ولم نعد نراه، كل شهرين مرة، صارت زياراته تتباعد، وكل مرة تزداد عن المرة السابقة.. لم يتزوج طيلة حياته ابداً، وبقي متنقلاً بين الاعمال الحرة، وكنا نسمع عنه بانه شوهد في الموصل، والبصرة، والسماوة. لم يعد الى بيت اهله، الا بعد وفاة امه. حيث لم يستقر ولم يتعود أن يثبت في مكان..

******* ****** *****

قبل يوم واحد من ليلة مقتل "حبيبة" الخياطة في دربونة "التوراة"[٥].. لاحظت العمة "سناء" رجلاً كان يخرج من مرآب

---

[٥] حسبما ذكر عمي "جاسم" الملقب بالطويل: كانت هناك ثلاثة معابد لليهود في بعقوبة الاول كان بالقرب من عيادة

السيارات، وهو يحاول ان يتسلق السياج الخارجي للبيت، ويراقب بيتهم.

عندما طلب منها "ابي" واخواها وصفه، لم تستطع ان تصفه بصورة واضحة، لأنها في الاصل قد دخلت في نوبة رعب شديدة كادت ان تطيح بها، وجعلتها تخاف الوصول حتى الى الحديقة، وبعدها انقطعت حتى عن المجيء الينا.

شاع الخوف بينهم.. اذ صاروا واثقين من ان احداً يتربص لها، او لأخوتها، تحددت حريتهم حتى في دارهم. حيث دار الشك بانهم تحت مرمى المراقبة، وعليه استجد القرار لديهم بالرحيل، وليس لديهم اغلى من ارواحهم.

ومن بعدها بيوم وصلهم خبر مقتل "حبيبة الخياطة"، تلك المرأة التي لا حول لها ولا قوة. وكانت تربطها علاقة طيبة مع كل جاراتها. وجدوها في الصباح مطعونة بسكين، واشارت التهمة الى ثلة من ابناء جيرانها.

كذلك وصل خبر عن عائلة السيدة "راحيل" المكونة من اربعة اولاد، وبنتين، جميعهم وجدوهم مقتولين، في بيتهم بعد ان سلبهم القتلة كل ما يملكون، وقال احد شهود العيان، بانه شاهد نقص الاصبع الذي كان يحمل حلقة الزواج الذهبية.

الدكتور "اسكندر" وهو اول طبيب يفتتح عيادة في السوق القديم، والثاني كان خلف بناية المتصرفية التي تعرف ببناية السراي. اما الثالث هدم وبني فوقه أول مدرسة للبنات، وسميت بمدرسة النجاة.

ذلك الخبر جعلهم يبيتون القرار؛ "ان يعبروا محنة الضيق تلك، ولابد ان يأتي اليوم الذي سوف يعودون فيه الى بيتهم. كونها محنة عابرة، ستزول حتماً"،

البلد هو الاهل، والهواء، والماء؛ لا أطيب ولا انقى منه هواء، ولا اعذب منه ماء.

المغدورون توالت اخبارهم، وصارت تنشر ظلالها المرعبة في كل شيء...

- كف مطبوعة بالدم وجدت على اغلب الابواب ليلاً.. !!

٢

تزامنتْ حادثة نهب بيت "يَهْودَه"، وتفريغهِ من محتواه خلالَ فترة دعوة """ابي""" لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية. اذ بقيّ غائباً عن المحلة لأكثر من أربعين يوماً، دون اجازة يوم واحد. حتى دفع البَدل النقدي، وعاد حرّاً، وفرحاً وتفاجأ بالذي أخبرتهُ به "جدتي" بأن بيت "يهوده" نُهبَ. كأن ضحكته تيّبستْ، وفرحه تحول الى حزنٍّ مَقيت، إذ ندمت كثيرا على تعجلها بأخباره، ذلك.

فأكدّت لها عمتي: "اولاً وآخراً سوف يَسمع به من زملائه العاملين في دار السينما".

تركَ طعامه جانباً، وقال:

- نزلت من سيارة الاجرة امام باب البيت فلم ألحظ ايَّ كسرّ في قفل بابه الخارجي؟

ثم خرج مغتاظاً، وأوصاني ان لا ألحقه بالرغم من اني لم أجرؤ ابداً على خطوّ خطوة واحدة دون اشارته. لكني صعدت الى شجرة التوت العالية التي تتوسط بيتنا، "نافذتي على العالم الخارجي"، ورحت أتابعه بنظري وهو يُزبد، ويُرعد هائجاً، ولا ندري كيف سيتصرف بعد ان اقسم بان لا يفوّت الامر على منتهك الحرمة، فمن المستحيل اعادة الأغراض من الناس.

/

لكن لابدّ من معرفه الفاعل الأول، ومعاقبته. كيف تجرأ واقتحم حرمة جاره.

في ذلك اليوم صعدت "جدتي" الى سطح الدار ومعها "أمي" و"عمتي"، لمعرفة ما يحدث؛ اذ حدثت جَلَبة، وهيّاج، في المحلة. دفعهم الفضول، لمشاهدة الناس وهم يعبرون السور، ويخرجون محملين بالأغراض، والأواني.

اما انا فقد تعودت في غيابه ان اصعد الشجرة، كلّ يوم، و أشاهد ما يحدث، بكلّ وضوح. تزاحم الصاعدون على التنور الفخاري، وسرعان ما تهدم تحت ثقلهم، وثقل الاغراض التي يخرجونها من عمق البيت. فمنه الى سطح الغرفة، ومن سطح الغرفة عبر الثقب إلى عمقها، ليعودوا بغنائم حسبما كانوا يعتقدون "حلال كلّ ما تركوا من ممتلكات". ويعود كل حامل بحمله، واغلبهم كان محتارا. ماذا يخرج، وماذا ينقل.

استمر كحدث جلل لأكثر من ثلاثة ايام. نهبوا فيها ما استطاعوا، فثمة ثقب للتاريخ ضيق لم نستطع عبره معرفة ما حدث وراءنا. التاريخ هو مسيرة الوقت الذي يتحدث عن الوقائع. رؤية عكسية كأنما بواسطة مرآة صغيرة.. نستطيع ان نرى بها ما يجري خلفنا، فضول يدفعنا لمعرفة ما جهلناه، وخاصة ما كان مُدّعماً بالمنطق دون الخيال فكل حكاية يتخللها الخيال تكون ناقصة، بلا اثبات أو موضوعية. لذلك بقيّ من يبحث مستقصياً لإيجاد الحلقة المفقودة.

بقيت المحلة كلها متورطة، بتلك القضيّة. وكأنما سؤاله عن ذلك الشأن الذي حدث في غيابه.. بقي بحافة حادة، حافة جارحة، فالمتورطون من المحلة يخافون الجواب، ويخفونه بانكسار. يتهربون من مواجهته كسؤال قاس ومؤلم. بقيت الالسن مخبأة تحت الندم،

تتوجس الحذر، من الشأن، الشائن، المُعيب. خائفون من الاتهام، والذنب. فلابد من شجاعة، مليئة بالمعرفة لمُعاقبة مُرتكب اثمّ انتهاك حرمة الامانة. فالبيت الذي بناه "يعقوب" وأبناؤه الثلاثة، منذ اكثر من عشرين سنة، كبيت آمن مكوّن من طابقين، بصالتين وسبع غرف نوم. مُلحق بحديقة كبيرة. تسرّ الناظر، وتشرح الخاطر، تفوح منها ليلا رائحة ورود الشبوي الطيبة. فالأرض التي بنيّ عليها البيت، كانت جزءا من بستان كبير يملكه والده "بشير" جدّ "يهوده"، وقسمّها بينهم، بالتساوي قبل موته.

بُنيت تلك الغرفة الملحقة كمخزن للخل، والطرشي. حسب رغبة الجدة "حسيبة"، فيها جرار اخرى لحفظ اللحم المقدد، وبقية المواد التي تقبل التخزين. جيدة التهوية فيها اكثر من منفذ صغير للهواء، لا يسمح بمرور فأرة صغيرة. ولها بابان يتصل الاول بالحديقة من الخارج، والثاني، بالبيت من الداخل. فالخروج من البيت الى الحديقة، او من الحديقة الى البيت، عبرها.

كانت الحديقة اشبه ببستان صغير فيه اشهر أنواع الكروم، تتسلق عرائش العنب منشورة على مشبك من الأخشاب، عُمل بعناية ودقّة لتخيّم كمظلة تحتها ارجوحة حديدية مصبوغة باللون الابيض، ثابتة راسخة بالأرض وغالباً ما تكون كل يوم بفراش نظيف، يتناسق مع الوان ورد جوري منوّع، وموزع بانتظام على مساحة الحديقة التي تزيد مساحتها على مساحة البيت بخمس مرات، لتكون مكانا يكثر الجلوس فيه "يهوده" بصحبة كتاب ما، لا يفارق يديه. تناسقت في الحديقة الخلفية كل الاشجار، مع كل انواع ورد الجوري الذي يهواه "حسقيال". الذي تفنن بتركيب كل غصن ورد بلون من الشتله الواحدة. ونتاج تركيبه بعض على بعض ليخرج الوانا ليست مألوفة، يشغل البيت

خُمس المساحة الكلية. اما بقية المساحة فقد اشتملت على عددٍ من أنواع الحمضيات، تحت نخيلٍ عالٍ متسامق، لنخبة من اجود انواع التمور. وايضا اجود اشجار الزيتون الدائم الاخضرار. كذلك هناك حوضان صغيران الاول فيه ماء وبجانبه حوض اخر فيه طين. يشغل كل منهما مساحة اكثر من مترين مربعة، مسيجان بطابوق حجري أخضر الاول ضمّ مياهاً معدنية، يجلبونها لهم في حاويات من سلاسل "حمرين" والثاني لخلطات الطين الغريني، حيث يحضره لهم شخص موثوق به من عمق نهر "ديالى". فيكون المخلوط وفق نسب خاصة بمحلول ملحي يستخدم لعلاج مختلف الامراض الجلدية. كذلك تفيدهم في صنع أدوية اخرى فكل شخص من العائلة كان متخصّصاً في تطبيب مرض ما، وهاوٍ مبتكر، يبرع في استخراج ادوية ناجعة تفيد في معالجة ما استعصى على اطباء غيرهم، فيقصدونهم من كل ارجاء المعمورة. لطلب العون ليجد كل محتاج جوابا لسؤاله بلا مقابل. ولا يقبلون بأية هدية حتى بعد الشفاء.

- "انا ابررت نذري الى الله ولا سبيل الى نكثه[٦] "،

و"الذي يعطيه الله وحده القادر على أخذه"،

"دعوة متألم تزيد الرزق، بسم الله ابداً"،

"محبة الله اجابة سؤال".

كانوا يهتمون بكل قادم، وكل سائل. فتذكر جدتي لامي:

---

[٦] سفر القضاة: ١١/٣٥.

/

- ("حسيبة" جدتهم رحمها الله، اوجدت تقليداً سنوياً في كل موسم كانت تصنع كمية كبيرة من الطرشي الممتاز من محصول كل موسم، لتوزعه على الجيران كافة).

كان باب البيت الخارجي الرئيس يقع على الشارع العام، مباشرة. وهو "طريق تجاري يربط ما بين بغداد وخانقين وقصر شيرين فطهران". فبعقوبة مدينة عتيقة كان فيها اكثر من خان في قديم الزمان. محطة استراحة المسافرين، وخيولهم. اغلب المصادر تكتبها "يعقوبيا"، وعرفت فيما بعد بـ"بعقوبة" شمال شرق بغداد، ويرجع تاريخها إلى ما قبل الفتح الإسلامي. وفيها اقدم معابد اليهود، وتشتهر فيها زراعة أنواع الحمضيات بالإضافة لزراعة النخيل، والعنب. يمرّ فيها جدول "خريسان"، ويشطرها الى "تكية" و"سراي" ليصبّ في نهر "ديالى" جنوب بعقوبة قرب قرية "بهرز"..

ارتفاعها ٤٦ م عن سطح البحر، وتقع على بعد ٥٧ كم في شمال غربي بغداد. كان يمر بها قطار "بغداد- كركوك"، وفيها محطة قطار بناها الانكليز.

***** **** ****

بقيَ "ابي" يرفض بإصرار فكرة ان اول الداخلين الى البيت من سقف الغرفة الخارجية الملاصقه للبيت، رفض لأنه كان يعرف معرفة قاطعة بان من المستحيل ان يكونوا قد نسوا قفل الباب الداخلية التي كانت بينه وبين البيت. ويدرك بحكم تعامله المباشر معهم، بأنهم حسموا أمر الباب الذي كان نقطة ضعف من السهل عبورها، لذا دُعمَّتْ برتاج يغلقها من داخل البيت، ولا يقل حجمه عن الرتاج الذي يقفل به الباب الخارجي من الداخل، وخاصة في الفترة الاخيرة. فبات من

المستحيل عبور تلك الباب. كان "يهوده" شقيقهم الاكبر يتأكد من قفلها، بدقة، فخلف تلك الباب باب اخرى تصل الى الحديقة الخارجية.

- (أية حكاية، ومهما تعددت مصادرها، ومهما اكدها الآخرون فإنها دون شك تصدق لبعض الوقت، ولكن لن تصدق لكلّ الوقت. فهناك من يمرر الحكاية، بل ويتشربها- مؤقتاً بكل جوارحه، مضيفاً لها من خياله، ويقسم بأنه رآها بعينه، وكأنه شاهد عليها، وليس سامعاً، وناقلا لها.. لكن تبقى حكايته غير مقنعة، ككذبة مكشوفة، متحولة الى طرفة، تدور بين جلاس المقاهي للتندر والسخرية).

بقيَ "ابي" يُشدد قائلا:

- "بأن السقف حتى وان خُرق لا يمكن لأي شخص مهما كان، ان يدخل البيت، وان دخلها، فهناك باب حديدية مغلقة من الداخل برتاج حديدي، ومن المستحيل عبورها ما لم يكن احد قد فتحها له، فلا يكون الدخول إلا من الباب الرئيس، وليس من المعقول ان يكون الشيطان دخلها دون ان يمسّ اي قفل من اقفالها على الاطلاق.

صار يتساءل محتاراً؛ من هو الداخل الاول وكيف دخل. فمن المستحيل دخولها دون كسر لقفلٍ، او خلعٍ لباب، او شبّاك. فغرفة "المونة"، بقيت بابها مقفولة بقفلها، على حالها، ولم يكن عليه اي اثر لعبث عابث،

- "من المستحيل ان يكون هناك مالكٌ اخرُ للمفاتيح بكل الاحوال غير اصحاب البيت".

حالة الرعب التي كانوا يمرون بها واضحة بقيت مطبوعة على تصرفاتهم، خاصة في الايام الأخيرة قبل الرحيل. لم يؤمنوا مفاتيح

البيت لأقرب الناس، خشية ان يفتضح أمر سفرهم الذي قررّوه على وجه السرعة، ولأجل ان يفوتوا الفرصة على من يحتمل بان يكمن لهم في الطريق، او ما شابه.

حدثت حوادث كثيرة، وكثرت أخبارها في الجوار، ففي كلّ مرة تستهدف عائلة، وكانت الأخبار تصلهم يوما بيوم. فحسموا الرحيل مؤقتا، حيث لا مناص من ان يحدث حادث مشابه قد لا تحمّد عواقبه. ققلوه بإحكام على ما فيه، وهربوا في ليل حالك. وهم على يقين شبه تام، بان هذه الفترة الحرجة سوف تعبر، ولابد ان تعود المياه الى مجاريها، ثم يعودون آجلاً ام عاجلا الى بيتهم. فالبيت سيبقى مُقفلاً، ومُحصّناً بسوره العالي ومن الصعب الدخول فيه، دون مفتاح الباب الامامي. وفعلا بقي مقفلا على ما فيه لعدة أشهر، دون ان يجرؤ او يحاول احد الدخول.

"هربوا خوفاً من اعتداء محتمل"، و"للبيت رب يحميه"!!.

*****   ****   ****

كان الاخوان يعشقان الرسم وقد درس الاكبر في ايطاليا، وجلب معه العديد من اللوحات الرائعة التي تعدّ نسخاً بالغة الدقة عن لوحات شهيرة في غاية الجمال. سبق ان قال "ابي" بأنه شاهد لوحات فنية نادرة وغالية الثمن معلقة على جدران البيت.

اتذكر باني لاحظت احدى جاراتنا استخدمت واحدة في تدعيم سقف قنّ دجاج، و اخرى استخدمها فراش مدرستنا الابتدائية كمسند يضع فوقه بعض الاوانٍ في الحانوت الذي يبيعون فيه الخبز المغمس بالعنبه للتلاميذ بين فرص الدروس الخمس. ولم اذكر ذلك لأي احد من اهلي. مخافة ان يلزم "ابي" التوتر والضيق كلما يتطرق احد للحادث.

/

- "الخطأ الفادح بأنهم لم يثقوا بأحد ما يؤمن لهم البيت"!.

كما بقيتُ متكتماً على رؤية بعض الاولاد يشكلون سلكا ويدخلونه في الثقب الذي يتوسط مركز الاسطوانة الموسيقية، لتكون لعبة يركض بها، كأنها عجلة دوارة، ويدحرج بها على الارض. وجارنا الاخر علق رقعة على باب بيته ظنا منه بانها آية من القران الكريم.. (امطر الله على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من السماء[٧])

***** **** ****

توصل الى معرفة كيفية الدخول الى البيت بدون مفتاح، وكيفية اختراق تحصيناته العصية. اذ بقي سرّا عصيّاً على الكشف لأقل من أسبوع بعد عودة "ابي" من الخدمة العسكرية.

- "وشى بالفاعل ابن عمه الذي اختلف معه في قسمة الطيور".

-(قد كان "جودي" صبي الحلاق "عبداي".. اول الداخلين)!..

جاء به مكبلاً مُدَمّى. وربطه الى جذع أكبر شجرة يوكالبتوس قرب مقبرة اليهود، واقسم ان يتركه حتى الصباح مع الجن والعفاريت والأرواح الشريرة التي كانت تسكن المقبرة، وتتصاعد منها الاصوات المخيفة ليلاً. "ان لم يعترف كيف تمكن من فتح البيت دون ان يكسر منه قفلاً"، وما ان نطق حتى تبينت الحلقة المفقودة لكيفية الدخول.

***** **** ****

---

[٧] سفر التكوين ١٩/ ٢٣-٤٢

تسلق الحائط العالي بواسطة حبل رماه اكثر من ثلاث رميات على رقبة مدخنة الحمام حتى تمكن منها ثم صار يصعد بواسطة الحبل حتى السطح العالي، ومن هناك جلب حماماته الداجنة التي علقت هناك، بواسطة مشبك، اصطحبه معلقاً في حزامه. ثم شكل ريش اجنحة الحمام بدبوس كان يشكلها في دشداشته، ولا يتخلى عن حملها اي "مطيرجي". بعدها رمى "الحمام" الذي بات عاجزاً عن الطيران، وزيادة في الاحتراز وضع الحمام في داخل المشبك.. ثم ربطه بالحبل وادلاه الى ابن عمه، واكتشف بان الحبل محزوز ولن يستطيع النزول بواسطته. خاف وبقي محتاراً كيف سينزل بعد ان صعد بعناء. ولم يجد باب السطح الخارجي مفتوحة كما كان يتوقع بل مقفلة من الداخل، حتى استبّد به اليأس اكثر فكيف ينزل الى باحة البيت، ويجد منفذاً للخروج من مأزقه.

ولم يجد سبيلا امامه غير شجرة السدر العالية التي صعدت من قلب البيت ومدّت بغصنها قريباً من السطح، تأكد من ربط دشداشته حول خصره جيدا، ثم تراجع بضع خطوات وقفز بقوة الى غصن الشجرة حتى امسك به جيداً، من بعد ان تطوح به يميناً ويسارا حتى استقرت قدمه على الغصن القوي، الآخر ثم امسك بيده الاخرى، فاستعاد توازنه على ذراع الشجرة الهائلة ذات الجذع المتين، كانت لفات أوتارها كأنها عضلات متينة بارزة، ومضلعة، طرف منها مكسور فصار اشبه بمقعد استجمع عليه قواه. ثم اكمل النزول، واضعا احدى قدميه على تفرعاتها، واحدة بعد اخرى. ثم هبط بيسر، مثلما يهبط من اي شجرة بعد ان وصل الى مسافة قدرها قريبة، فقفز الى الأرض. واجهه ورقها المكوّم على الارض. وقد اسوّد متراكما فوق بلاطات الحجر الجيري.

احدث اثر ارتطام قدميه بالأرض.. صوتاً عالياً، جعل القطة البيضاء التي كانت تنام على غطاء البئر المستقر تحت الدرج، تفزّ، وتطفر من مكانها الآمن، متوجهه نحوه مفزوعة تودّ الإفلات منه، والمرور من جانبه بسرعتها القصوى.

فارتعب منها، اشدّ الرعب، وكاد قلبه ان يتوقف من الخوف، فهو لم يرّ قطة مثلها بياضاً ظنّا منه بأنها عفريت شرير، طويل، عريض.. كانه يطير فوق الارض ولا يلامسها، هجم عليه، اراد ابتلاعه، وبقي خلفه يريد اللحاق به.. باغياً معاقبته على ما ارتكب من اثم، فلم يستطع ان ينظر اليه بتركيز، كما لم ينظر حواليه حتى طفر بكل ما عنده من قوة.. نحو الباب التي كانت امامه.. ففتحها ظنّاً انها سوف تخرجه الى الخارج. وبعد ان فتحها وجد نفسه في غرفة طويلة تقع في نهايتها باب اخرى، فأغلق الباب خلفه، بكل ما اوتي من سرعة، فالرعب الذي غمره، كاد يشله، فما ان وصل الى داخل الغرفة اسند ظهره الى الباب وراح يستعيد انفاسه تدريجياً، وحطت نظراته على الباب الثانية وجدها مقفلة بقفل كبير.. احس بيأس اكثر وحيرة اكبر، من اين سيخرج؟.

ثم صاح بهستريا على ابن عمه الذي كان يُصفّر له، ليعرف اين وصل به الحال، فأجابه بصفير متقطع خائف، فعرف بانه قد اصبح تحته بالضبط، في الغرفة التي صعدا على سطحها أول الامر، وتركه في انتظاره. صاح مستنجدا به يسأله:

- "ماذا أفعل وكيف سأخرج"؟.

كانت ثقوب التهوية توصل الصوت حتى ولو همساً، فاقترح عليه ان يعود الى البيت ويجلب له حبلا آخر، وعليه ان يعود الى السطح

لكنه رفض متوسلاً ان لا يتركه وحده في الغرفة.. فخلف باب البيت ترك جنيّاً، وركض وراءه.

وبقي يقسم له بأغلظ الإيمان بأنه رآه بأم عينيه، ومن المستحيل ان يفتح الباب ويخرج الى فناء البيت، فتعاطف معه ابن عمه، وراح معه يفكر في كيفية اخراجه من الغرفة، جال ببصره في الارجاء.

تفحص المكان جيداً وهو يدرك ان لا مناص من خروجه الا من هذه الغرفة التي بدت فيها الرؤية واضحة، جدرانها مبنية من الطابوق الاصفر، المطلي بالكونكريت، لتبقى درجة الحرارة فيها متعادلة، كونها في ظل النخيل العالي، وسقفها من اعمدة خشبية، غير متقاربة، وبابها المطل على الحديقة من الفولاذ القوي.

مجموعة اكياس "تمر خستاوي مكبوس"، مجموعة براميل "برميل فيه اكياس رز"، "برميل خلّ"، "نصف كيس طحين"، "حزمة ثوم كبيرة مدلاة من السقف، يحملها مسمار"، مجموعة صناديق "صندوق خشبي فيه بصل"، وآخر مثله فيه "بطاطا"، مجموعة علب "زيت في علبة صغيرة"، "زيتون محفوظ بماء مالح". "سمسم"، "بقوليات متنوعة"..

وما ان شاهد معولاً ومجرفة وفأساً، ومطرقة، ومجموعة كبيرة من المفكات المتنوعة الاحجام. كلها معلقة بنظام ومثبة على الحائط كلّ بحجمه. ومختلف الآلات التي لم يشاهدها بحياته.. حتى صرخ:

- "انزل لي فأفتح لك نافذة الباب الصغيرة وأناولك منها المعول".

- "سنحفر السقف انا من تحت وأنت من فوق، اتوسل إليك وسوف ألاقيك".

وناوله المعول المسنون من شباك الباب الصغير، ثم حددا مكان الثقب، وراح الاثنان يعملان لتقويض السقف. حتى تلامست المجرفة ذات العمود الطويل، بالمعول المسنون، حتى صار الثقب؛ فصارت فتحة اشعة الشمس تدخل تدريجيا في عمود من الغبار، وكان الذي في الاسفل يعدد لابن عمه، ما يراه، بإغواء.. ما يمكن ان يحملاه من الغرفة من حبوب ورز تكفيهما لسنة او تزيد، فكان الذي في الاعلى لا ينقطع لحظة عن الحفر.

كان الذي في الاسفل يسعى للخلاص من كابوس يحيط به؛ اما الثاني فكان يجتهد لينال المزيد من الوعود، صار الواحد منهما يسعى ليحظى بما يريد الآخر ومحققا لنفسه غايته. ثمة نهج واضح صار ينطلق بهما، واحد لا شيء سواه، والوقت يتقدم، حتى كبرت الفجوة.

نزل الضوء، فتصافحت اليد بالأخرى، وحاول سحب كل منهما الآخر.

كان الاول يريد الخروج سريعاً، ويجدد هواءه وكان الثاني يريد النزول سريعاً، ويحصل على ما وعد به. الاول يريد ان يستعيد حريته، والثاني بقي يريد ان يحقق ما فيه من جوع وفضول. :

- "لا اقدر على سحبك الى اعلى"!

وهكذا نزل اليه، فالنزول في كل احواله اسهل بكثير من الصعود. نزل له من الثقب الذي احدثاه. مكتشفاً ما في غرفة المونة من مونة، وصارا فرحين بما وصلا اليه معاً. فالمكان الذي كان فيه الاول مرعوباً

اصبح اكثر أماناً، ولكن اي منهما لم يجرؤ على النظر الى الباب المغلقة على البيت، واكتفيا بما صار اليهما.

راحا يأكلان بنهمّ مما وقع بين ايديهما، وما يصلح للأكل. بعدها تعاونا على سحب برميل كبير الى تحت الفتحة واخر صغير فوقه، ثم قلبا صندوق البصل على الارض، فاحت رائحة البصل الفاسد فملأت المكان، نتانة. وصارت لهما ثلاث درجات تصل بهما الى اعلى. بعدها حملا اكياس غنائمهما. ثم صعدا الاول يتبعه الثاني وناوله الأكياس بفرح غامر.

***** **** ****

لم تَمْضِ ساعة، حتى جاء بالمشترك الواشي، مكبلاً ايضاً "يحمله على دراجة هوائية"، وما ان شاهد ابن عمه مربوطا الى الشجرة، مُدَمّى. حتى خذلته قدماه وجثا على ركبتيه متوسلا. طالباً الرحمة. فقال له بصوت متحشرج:

- "اريد منك ان تحكي الحكاية من أولها"،

وبدأ بحكي الحكاية التي تطابقت، واختلفت ببعض التفاصيل الصغيرة.

نقلا الاكياس المليئة الى خارج سور الحديقة، والوحيد الذي شاهدهما ينطّان من سور الحديقة هو "حسن شكرية"، فطلب ان يشاركهما بحجة "اولاده الصغار ويجب ان يطعمهم". رفضا اعطاءَه شيئاً، اول الأمر، مما يحملانه، ولكن سرعان ما قررا ان يعطياه القليل من الرز غير المطبوخ مع قطعة من اللحم المقدد. وتركاه داخلين الى

بيتهما، وراح هو راسخاً في الدربونة حالماً كالمنتصر، حيث لم ترضه الغنيمة الصغيرة.

كان الوقت قد قارب العصر المتأخر. ولم يكن بغباء من يتلبس بقية الحكاية، لوحده. فذهب الى "علي خولة"، واخبره بما رآه، وما حصل عليه من غنائم، فجاء معه ليرى ما وراء السور، فلم يصدق حكايته، وإنما اخذ معه "سليم فضة" اذ كان جريئاً ولا يخشى عواقب فعاله، وتخطيّا معا سور الحديقة من امام الزاوية التي كانت تشرف على الدرب الذاهب الى محطة القطار، وهذا ما شجع بعض المارة على العبور خلفهم، بكل فضول لرؤية ما يحدث، وجدا باب الغرفة التي تدخل الى البيت، مقفلة، ولم تكن حيرتهم طويلة. بعد ان شاهدوا نصف كيس "رز" مفتوقاً متروكاً قرب التنور، ونصفاً اخر كان باقيا على السطح القريب. فصعد احدهم حتى شاهد الثقب، وصاح بالباقين الثلاثة وكأنه وجد الكنز.

ثم نزل من الثقب الى الغرفة وراح يفعل مثله البقية، وجدوا الباب الذي يدخل الى البيت مُرْتَجاً من الجهة الاخرى، ودخله بكل جرأة فالبيت خالٍ من أهله، وثم دخله الاربعة، وصاروا خمسة، وستة، وسبعة، وثمانية، وهم يجولون في عمق البيت غرفة بعد غرفة. وحمل كل منهم ما تقع عليه يده، يكون ملكه، حلاله..

صارت الناس تتوافد الى البيت الذي عمّت فيه فوضى عاصفة، وغبار سقيم. فالزحام إستنفد الاوكسجين. وصارت الايدي بمختلف الاعمار تتشبث بالأشياء، وتنقلها الى الخارج بدون حساب، وكأن البعض لا يعرف بعضه الآخر، وصارت الايدي القوية هي التي تأخذ ما تشتهي. صارت العيون في ذلك العمق.. لا تلتقي بمثيلاتها؛ بل

تتفرس في الاشياء التي لم تحتجزها يَدٌّ، حيث تصلّبت الايدي على الأغراض، والاثاث.

ثم صارت تنقلها الى الخارج، وصار الثقب الذي خرج منه اول اثنين.. اتسع، وصار يخرج منه اربعة والأربعة الاخرى تلاقيها اربعة اخرى داخلة، فتصاعد توتر، وغبار محموم. لم يهدا ابدا؛ اذ اخذ يثقل بالأشخاص الصغار والكبار المتزاحمين للدخول، فلم يحتمل سطحها فأحدث ازيزا متوجعاً. كشهقة الموت. حتى نزل السقف منتحراً الى الأرض. فالذين كانوا في الاسفل، لم يشك اي منهم من الأذى، كحادث عابر لا يُعيق احداً عن عزمه. بكل برودٍ ازاحوا مكونات السقف جانباً.

توسع الطريق اكثر. ظلوا منهمكين في نظام متواتر، كالنمل الذي امسك فريسة وقد خدرها؛ من بعد عناء.

اخوة واخوات، صغار وكبار كلهم مستنفرون في نقل الأغراض، وصار سور الغرفة ينسحق تحت نعالهم طابوقة تفتت الاخرى. حتى تقزّم السور، بعد ان عبرت من فوقه كل الاشياء الى مستقر اخر. وبفعل الثقل تهدّمت، وتحولت الى تلّة من بعد ان تهدّم ما تهدّم، وانهارَ ما انهار، فالأمر قضي بلحظة واحدة اذ ضربته حشرة القتعة[٨] القاهرة، وابتلعت محتوياته، كلها، حتى التي لم تكن تلزمها كطعام.

---

[٨] حشرة معروفة بالأرضة وطبيعتها تنخر الخشب من الداخل وتبقي على هبكله..

بقي "ابي" يستمع اليهما بألم بالغ. ثم بلحظة غير متوقعة، فتح لهما قيدهما، تاركا كلاً منهما يذهب الى حال سبيله دون ان يفيَ بالعهد الذي قطعه على نفسه، بمعاقبتهما شرّ عقاب.

٣

اكتشفتْ جريمة قتل "العم موشيه" عقب انتهاء عرض فيلم الكاوبوي الامريكي "من أجل حفنة من الدولارات [٩]"، بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً، مع نهاية يوم حافل بالمشقة والزحام. كان فيلماً ناجحاً وقد حقق امتلاءً في القاعة، وعدّ من اكثر الافلام جمهوراً، لكن اليوم السعيد لم ينته كما بدأ.

بقيّت ماكينة عرض الافلام تعمل لمدة اضافية بعد كلمة النهاية التي بقيت مرتجفة على الشاشة، فلم تشعل الاضواء الملونة اشعارا بانتهاء العرض، (ولم يُدق الجرس الكهربائي ايذاناً بالخروج من الصالة كالعادة). فبقي أكثر الناس في مقاعدهم، ينتظرون ويترقبون اضافة اخرى ستلحق بالفلم. بقيت الحالة مُعلّقة، ومحيّرة، واحدثت همهمة عالية، وتذمّراً شديداً مما تطلب من "ابي" ان يظهر بباب الصالة، متجاوزاً الحرج، ومعتذراً:

- "خلل فنيّ أصاب مصابيح الإضاءة".

حتى اقتنعوا بالخروج. وصاروا يغادرون القاعة. ثم اشار الى "ياسين دمعة" ان يذهب ليستطلع السبب (سبب عدم ايقاف ماكينة العرض)، ويضيء مصابيح الصالة، فاختار الدرج الشمال القريب من

---

[٩] * الفيلم بطولة النجم العالمي كلينت ايستوود

باب الادارة. في الوقت الذي تزامن مع نزول اغلب الجمهور من الدرجين المتقابلين، بينما هو يصعد واجه صعوبة صعود الدرج المليء بالنازلين الى الطابق الارضي، من الطابق الأول. تمكّن بعدها الوصول الى الطابق الاول، ومنه صعد الى الطابق الثاني.. حيث غرفة التشغيل. كانت مصابيح الممرّ اليها مطفأة، وكذلك مصابيحها الداخلية، ايضاً. طرق الباب وحاول فتحها فلم يفلح، وجده مقفلاً، حاول دفعها، ولم تكن مقفلة من الداخل، وبقيت أكرّة الباب تدور في مكانها، ولا تتحرك الباب. تراجع خطوتين ثم دفعها بكتفه ولم تستجب، فحدس بان قطعة لوح من الخشب الصلب، حشرت خلفها، كالعادة عندما يريد النوم. الرجل لا تأخذه سِنَة النوم طويلاً، ولا عميقاً. فأي طرق خفيف على الباب، سرعان ما يردّ عليه، ولم يكن هناك ايّ ردّ. حاول اكثر من مرة، ولم يرد سوى صرير الماكينة الهادر من الداخل. رجع بعدها الى "أبي" في الادارة يخبره بعدم الردّ، ولم يرقه ما سمعه منه، وكاد ان يشتمه:

-"قالها ابو المثل تعِّبْ أجدَامك ولا تعِّبْ لِسانَك".

انتظر دقائق حتى خرج آخر زبون، وعاد يطلب من "يسن دمعة" ان يلحقه، موصياً "برهم ابو العنبه" برجاء ان لا ينسى تنظيف الواجهة الزجاجية التي وسخها تراكم الغبار وبصمات الايدي.

- "اليوم قبل ان تذهب الى البيت".

ثم صعدا الدرج الى الطابق الاول ومنه الى الطابق الثاني.. حتى وصلا معاً الى غرفة التشغيل، ولم يتبدّل الحال حيث ماكينة التشغيل مازالت تعمل، وقد تغيّر صوتها الى صرير سريع، (اذ وصل الشريط الى نهايته، وافلت). كرر الطرق ثانية وثالثة والصياح باسمه مرات عديدة، دون جدوى.

دفع الباب فتأكد له انه لا يمكن فتحها حيث اثارت الخشبة المحصورة بين الباب من الداخل وبين زاوية الجدار، مخاوفَ وشكوكاً شتى.

تحوّل الامر عندها الى محنة حقيقية، والرجل لم يكن في صلاته، كما توقع "أبي". حيث يحرص على ان يتمّها بسرّية بالغة، وكلما طرق الباب، يتجنب مواصلتها، فيقطعها ليعيدها في وقت اخر. تعوّد ان لا يجمعها مع العمل. فجدد الطرق بقوة اكبر، وصاح بصوت اعلى.

لكنّ المكروه السقيم قد وقع. وأصبح "ابي" على يقينٌ تامّ بأن هذا اليوم الحافل هو الاخير في حياة "العم موشي"، وخاف اكثر ان تكون الخشبة لإعاقة الدخول، متمنياً ان يكون دليلاً على أنّ الحادث مُقدَرْ لا مُدَبّرْ.

فسأل أبي "ياسين دمعة" ان كان يقدر على الدخول للغرفة من "الرازونة"، فاعتذر بعفوية قائلا له "جبوري" يستطيع ذلك بسهولة. وسبقَ ان شاهده اكثر من مرة يدخل، ويخرج لسرقة السجائر من صندوق "موشي".

أجابه: - "ماذا تنتظر هات "جبوري".. لنرَ ماذا حدث للرجل في الداخل".

اضطر "ياسين دمعة" ان يبحث عنه قبل ان ينزل الى الطابق الثاني في "اللواجات" واحداً تلو الاخر، والتي تكونت من مجموعتين كل مجموعة فيها خمس خانات معزولة عن بعضها، بعازل من الطابوق المغلف بالخشب، كل خانة تسمى "لوج"، ولا تشرف الواحدة على الاخرى، فلم يجده. بعدها نزل الى الطابق الأول، فوجد الجميع

يريد معرفة ماذا حدث، ويحدث. فسأل "جاسم الطويل" (شقيق والدي الاكبر) مسؤول الدخول صالة الدرجة الأولى، ومراقب الصالة "زكي" عن مساعدهما "جبوري القرم". ولم يجد عندهما جواباً. كذلك الحمامات فارغة. اضطر بعدها ايضا الى النزول الى الطابق الارضي، سائلاً عنه "علي الدّب" عمي (شقيق والدي قبل الاصغر)، وهو مسؤول الدخول الى صالة الدرجة الثانية..

كذلك "كريم ضوه"، و"جمال قطف" مسؤول الصالة ومساعده "علي عِطّابَه"..

كذلك "ناجي الاعرج" الحارس، و"برهم عنبه" البائع في المتجر الداخلي الصغير، و"سلام البارد" بائع المشروبات الغازية..

لم يجد لديهم جواباً.

ابقى "كاظم الأعرج" باب المشبك الحديدي، الباب الرئيس، المطلّة على الشارع العام مفتوحاً على فتحة تتسع لشخص واحد. كذلك أغلق البابين الجانبين المطلين على الشارع الفرعي. الأول كان يُفتح عند انتهاء اي عرض، ليخرج منه الناس، مباشرة. ولا يفتح الثاني إلا عندما تكون القاعة الارضية مزدحمة.

غزاهم التملل، وبات كلّ منهم متوتراً، وقلقاً. اولهم "ابي" المسؤول المباشر عن كل شيء، ومعه مساعده "بوجي" بائع بطاقات الدخول. بقوا متوزعين مابين الممر المؤدي الى غرفة التشغيل، وعلى الدرج بما فيهم "يسن دمعة"، الذي اعلن عن اختفاء جبوري..

***** ***** *****

سَرَتْ همَهَمَة، وحلّ قلق كثيف. كغيمة خانقة.. صاروا يريدون البدء بتنظيف الصالتين، ثم يعودون الى بيوتهم. اقترح احدهم ان يدخل ولد صغير من الفتحة، ويرفع الخشبة التي تُعيق فتح الباب. وتململَ آخر بأن ايّاً منّا لن يرضّى أن يدخل أبنه في غرفة عبر فتحة العرض. خوفاً عليه من خرافات مَسَخَتْ نفسها وأخذت طابع حكايات واقعية، حكايات سهلة التصديق، لانهم صاروا يروها في كل يوم "جنياً" طويل الرقبة كان يختبيء في البئر التي يستخرجون منها الماء، كانه يريد ان يستفرد بأحدهم. يراقبهم من دون ملل وكل ليلة ينظفون فيها الصالة، الى درجة يتجاهلون مكانه ولا ينظرون صوب البئر، فلا يجلبون الماء منها سهولة ذلك. ولكنهم باتوا يتحججون بان الماء الجاري في النهر أطهر، وصار "الجنيَّ" بينهم حقيقة معتادة، يشاركهم المكان، فلا يتقدم اي منهم، صوبه، ولا احد يأتمن على نفسه بان يبقى وحيداً.. فايّ جنّي مهما بلغت شراسته لا يجرؤ على الاقتراب من مجموعة اشخاص ودائما يبحث عن ضحية منفردة. تصاعدت الهمهمة، وبقيّت الفكرة الاجدّى من قلع الباب الحديدي؛ انهمُ بحاجة الى ولدٍ شجاع جسمه صغير بعض الشيء ليدخلوه الى الغرفة، ويزيح الخشبة.. اضاف احدهم:

- وان لا يخاف من "السعلوه".

فلم يكن للغرفة سوى نافذة واحدة بعيدة عن الارض، وتشرف على الشارع العام، ومن المستحيل الوصول اليها إلا بسلّم المطافئ الطويل. تواصل الجوّ متوتراً حتى وصل "فؤاد" الصغير، دون ان يرسل وراءهُ أحد، جاء مُستطلعاً الخبر قبل ان يصل ابوه عمي الثاني. سألوه إن كان يستطيع الدخول، كان في السابعة من عمره، وجسده ملائمٌ للدخول، فوافق دون ان ينتظر موافقة ابيه. سأله أبي:

- "هل تخاف الظلمة"..

فأجاب ببراءة:

- "لا يُخيف البشر إلا البشر، وأنا لا اخاف البشر".

(كنت اتمنى ان اكون صانعاً للأحداث.. اتمنى ان اكونَ راويّاً خالقاً يخلق عالماً يتنفس، ويتفاعل تفاعلاً كيميائياً مع الاحداث، تفاعلاً يحدث تغيّراً فسيلوجياً، لا تفاعلاً فيزيائياً يزول بزوال المؤثر. وليس حاكياً يُعيد حكاية صقل حكاية، حُكيَتْ له، ميتة، أكون بطلاً، راويّاً، مشاركاً، متفاعلاً بما يروي كمن شاهدَ بأم عينيه.

أريدُ مشاركة حقيقية بأن اصنّعها، اجبلها بالحبر، والورق. أشارك فيها كأيّ بطلٍ حقيقي يصنع قدره بيديه، ليس بالخيال، لا ان يُكمّل على الحوادث التي سمعها من هنا او هناك)..

امتعضَ البعض خوفاً عليه من الدخول، وقد شجعّه البعض الاخر على الدخول.. حتى يعود كل منهم الى بيته. كلهم تذمّروا.

فصار لا سبيل إلا ان يدخل "فؤاد" ليفتح الباب المغلقة. وقبل ان يدخلوه جاؤا لـ"ابي" بعمود خشب ودفع به الماكينة الى الوراء لتنزلق على سكتها، ورجعت الى الوراء حتى استقرت عند الحدّ المصمم لها، وبذلك فسحت مكاناً تحسبّاً لأي ضيق، ويدخل منه الولد.. من "اللوج[١٠]" القريب من الفتحة القريبة، وبجانبها ماكينة العرض التي كانت تعرض القسم الاول من الفليم، حيث تتناوب مع الاخرى ما بين "بكرة" ومثيلتها. صفَّرَ "يسن دمعة".. مُشجّعاً، وصفّقَ "كريم" مُهنئاً وصمَتَ "بوجي" مطرقاً.

---

[١٠] * جناح خاص بالعوائل.

ثم رفعه "ابي" وهو يوصيهِ ان يذهب مباشرة الى الباب، (لاجل أن يرفع الخشبة التي تُعيق فتحها)، وتركهُ يحشر نفسه في الفتحة الضيّقة، بمهارةِ افعى تعرفَ طريقها الى جُحرِها. انزلق بيّسرٍ فصار في الداخل، وناولهُ المصباح الذي يعمل على البطارية، وتوجه الى الخشبة، ورفعها. كان "ابي" بصوتهِ الجهور يشجعَ "فؤاد" لأجل ان يُبعد عنه ايّ خوفٍ ويقولُ له:

- "ارفعْ الخشبةَ وافتحْ البابَ وسأعطيكَ فلوس يا بطلْ الأبطال"..

- "ارفع الخشبة ليدخل معك عمك جاسم".

- "ارفع الخشبة وحسب".

- "ارفع الخشبة ولاقي عمك جاسم".

وكان عمي "جاسم" ينتظره امام الباب متيقناً بأنها ستُفْتَح "فؤاد سيفعلها"، وفعلها "فؤاد". وصار التصفيق والصفير يرجع صداه في الصالة الفارغة. فدفعها برفقٍ وفتحت. ثم أخذ "فؤاد" بيديهِ الاثنين، وسلّمهُ الى من كان خلفه.

تناول منهُ المصباح الذي يعمل على البطاريةِ. ودخل ليكتشف ما حدث للرجل، ولم يشاهد إلا بعد أن فتح الضوء الداخلي، للغرفة وشاهد ما جعلهُ يضع يدّه على فمه موشكاً على التقيّؤ، وصار منفعلاً يصيح بكلّ ما اوتي من قوة، كالمعتوه.. كلمات متواصلة غير مفهومة:

- "مات.. ميت موشي.. الرجل ميّت".

عندها انحشرَ الجميع في داخل غرفة التشغيل مع "ابي" لمشاهدة اللحظة المروّعة، كان الرجل امامه قدح شاي بارد، وجالساً

على كرسيه مائلاً الى ماكينة التشغيل، ملفوفاً حول رقبته شريط الفيلم، ولسانه مُدلّى، وعينيه مبحلقة الى اعلى السقف:

- "المسكين مخنوق بشريط الفيلم".

- "هذه فعلة جنية شريرة"!.

- "لعنةٌ ستطاردنا جميعاً"

-"ماكينة غدارة"!.

***** ***** *****

كان "يهودا" يدرك جيداً بأنَّ العقل والمنطق دائما يوجهان التاريخ. وكأنما بقي مؤمنا بثقب في اغلب مصادر التاريخ المتراصة بعمد لتحجب عنا اغلب الحقائق تجعل تيهنا متواصلاً.. ذلك ينزل منه عمود الضوء. ذلك الثقب هو ما يتضمنه التاريخ من حركية للعقل. فيه تمرّد خفي، ذلك مدفون تحت الظاهر، ومتبطّناً ليثبّتَ انه استطاع ان يخترق رقيب السلطان.

ذاته الذي ابتلع الاماكن في شرقنا كما كان يؤكد "هيرودتس"، فالرقيب اكثر وحشية من السلطان، رقيب مُبرمَجْ على محاربة الحقائق، او ازالتها.

يُبدع اكثر كلما غاب سيده معتمداً عليه، فيظهر شراسته اكثر ليثبت لسيده السلطان بأنه صاحب الولاء الأكبر، وان تغير الزمان بسلطانه، يكون اول من يدعس السلطان. ويبصق من عليه.

اتخيلُ "يهوده" المثقف العارف، يُطفيء سيجارته في منفضة، ويكمل حديثه الى "أبي" بابتسامته العريضه قائلا:

/

- صاحبنا "هيرودتس" قال ما يكفي فيما يخصّ أمن السلطان، وما يمسّ سمعتهُ البهيّة. هو دائما ينسى بان هذا الرقيب هو مجرد عين، وكلّ عين فيها زاوية عمياء.

مساحة يستغلها العقل لتصبح مساحة حرّة. هنا أوهناك تتجمّع فيها المُحَرّضّات كبركة تتجمع فيها المياه، فتغرق كلّ ما كان تحتها.

***** ***** *****

كان في غاية الوداعة، والهدوء. فلم تبدر منه اي اساءة لأي أحد. وظيفته تشغيل ماكينة عرض الأفلام السينمية.. كان الرجل مستقراً في غرفة التشغيل، ولا ينزل منها إلا فيما ندر، ولم يكن على خلاف مع احد في يوم من الأيام. محدود الاختلاط والتجوال. لا يكثر الكلام، ابداً.

كان يُجيب باقتضاب مع ابتسامه شفيفة، ثم يسكت إلا اذ سُئِلَ مرة أخرى، ليجيب على قدر السؤال، بقيَ لا يرغب العيش في "دربونة التوراة"، وحيداً.. بعد ان هاجرت زوجه مع اولادها الى "اسرائيل" الوجبة الاولى في منتصف الخمسينيات[١١] .

---

[١١] * في البداية لم تكن الهجرة خياراً واضحاً في عموم يهود العراق حيث تعرضت عدة دور للعبادة اليهودية في بغداد للدمار مما أثار حالة من الهلع بين أبناء الطائفة. في البداية لم تسمح الحكومة العراقية لليهود بالسفر لكن لاحقاً أصدرت آنذاك قراراً يسمح لليهود بالسفر بشرط إسقاط الجنسية العراقية عن المهاجرين منهم. وقد هاجرت غالبية الطائفة من العراق خلال عامي ١٩٤٩ و١٩٥٠م في عملية سميت عملية (عزرة ونحمية) إلى أن تم إغلاق باب الهجرة أمامهم وقد

اذ "رفض ان يصحبهم مهما كلف الامر"، كان يشتهر بجملة مكررة يومياً على لسانه، بمناسبة او غير مناسبة:

- "بيت الله عُقُب بيتي لا والله"!.

لم يبْدُ عليه الخوف او القلق مما كان يحدث في الجوار. بقيَ يعتاش على راتبه من العمل في السينما. كان له بيت ملك صرف، ويقع في "دربونة التوراة" التي تبعد دقائق عن بناية السينما.. بقي فارغاً بعد ان تعرّض الى النهبِّ، وخوفاً من أن يتحوّل الى وكرٍّ للآثمين، والمارقين. أسكنَ فيه "كاظم الاعرج"، شرط ان يتزوج، وسرعان ما تزوج، فبقي يسكنه، ولم يأخذ منه ايّ اجر.. كذلك له بستان مسجلة بأسمه "ملك صرف" محاذية لنهر "ديالى".. لم تعد عليه بأيّ وارد مالي، ولم يطالب بحقّه خوفاً من العواقب. كما بعهدته بيوت اخرى لأخوته، وبعض أقربائه.. اشترط الزواج ايضاً على من رغب بالسكن فيها، دون اي اجر. هذا ما جعل له سمعة طيبّة.

كان في بداية الخمسينيات حوالي ١٥ آلف يهودي بقي في العراق من أصل حوالي ١٣٥ ألف نسمة عام ١٩٤٨م. وعند وصول عبد الكريم قاسم للسلطة رفع القيود عن اليهود المتبقين في العراق وقد بدأت وضعيتهم تتحسن وأخذت الأمور تعود إلى طبيعتها. لكن انقلاب حزب البعث واستلامه للسلطة أعاد الاضطهاد والقيود عليهم وفي عام ١٩٦٩م أعدم عدد من التجار معظمهم من اليهود بتهمة التجسس لإسرائيل مما أدى إلى تسارع حملة الهجرة في البقية الباقية من يهود العراق والتي شهدت ذروتها في بداية السبعينيات.

- هنا ولدتُ كما ولد اجدادي وهنا اموتُ كما مات اجدادي"!.

كان قد شارف على الستين من عمره. وبقي دقيق العمل، دائم البسمة، قوي الذراع، مفتول العضل، ومسالماً.. كان الوحيد الذي يقدر على تشغيل مولدة الديزل، والتي كانت بغرفة مُلحقة بغرفة خاصة مبنية بجانب السينما من الخارج.. كانت المولدة بعجلة أولية كبيرة لبدء تشغيل المحرك الكبير، تتطلب شخصين متقابلين لتحريك دولابها الكبير، وسرعان ما يجعلها تهدر.

وكان مُغْرَماً بأغاني "فريد الأطرش" فغالبا ما يُسمع داخلِي الدور الأول اغنية "الربيع" الطويلة التي كان يقول عنها بأنها تلخّص له مجرى حياته التي شهدت تغيرات جمّة.

***** ***** *****

بقيت كلماته العفوية مثيرة للأعجاب، وبقيت تدور على الالسن، وتدور في ذهني..

- "لا يُخيف البشر إلا البشر، وأنا لا اخاف البشر".

***** ***** *****

وقع خبر موت "العم موشيه" كصاعقة نزلت من السماء، وكادت ان تزلزل الارض تحت اقدام كلّ العاملين في السينما، اذ تبيّن فيما بعد انها جريمة قتل من الدرجة الاولى مع سبق الاصرار، والترصد حسب المصطلح القانوني.. لم يعرف "ابي" الدافع الرئيس وراء قتل "العم موشي".

/

احتجزت الشرطة تلك الليلة جميع العاملين، لإكمال التحقيق. خاف البعض ان تمسه الجريمة من قريب او بعيد، وكان احد اصدقاء "عمي" القدامى ضابطا في الشرطة، هو الذي انجزَ التحقيق المباشر، بعد ان تثبَّتَ غياب "جبوري"، فصار موضع الشك الاول. وخاصة بعد ان اجمع اغلب العاملين معه، دخوله غرفة التشغيل من "رازونة" فتحة العرض.

وبعد ساعة من انتشار خبر تلك الجريمة... عثروا عليه كان هارباً مشياً على الاقدام يروم الذهاب الى بغداد، ولم يصل حتى ربع الطريق في ساعتين ونصف الساعة، والذي لم تصادفه اية سيارة تقله من الطريق. فأخذوه الى المخفر، وفارق الجميع شبح ظل الجريمة المرعب.

يومها تفحص ابي الصندوق الذي يضع فيه "العم موشي" اغراضه، فوجده مبعثراً، وأغراضه كلها مدسوسة دون ترتيب في الصندوق، ولم يكن الصندوق مغلقاً، بصورة جيدة. وكان في الصندوق صندوق آخر، يحوي على "كيبا[١٢]" ، التي تستخدم في الصلاة، وهي رمز للتديّن، كذلك فيه شال من الخام الابيض الناصع البياض، يوضع على الكتف أثناء الصلاة، يسمى "طاليت"، وكذلك لفائف "التفلنْ"، وهو صندوق صغير أسود به نصوص من التوراة تربط فوق الجبهة، ويلّف أطراف خيطها الجلدي، ويبرم عدّة برمات حول الساعد، ثم يوثق بالإصبع الأوسط لليد اليسرى، ومعه "السيدور [١٣]"، و بعض "المزامير" المكتوبة بالعبرية.

---

[١٢] * قبعة

[١٣] * كتاب الصلاة

/

***** ***** *****

كل الحوادث تترى سواء كانت مكتوبة، مختلقة، او منقولة، او منحولة.. تتسارع، وتتصاعد، وتتصارع. اسأل نفسي ان كنت مائلا لجهة ما. خائنا لجهة على حساب جهة اخرى ومنتصرا على حساب ذاتي. كالتاريخ الذي لابد وان يكون مائلا لجهة ما.

اكون مخطئاً كلما رغبت بان اكون احد المشاركين في سرد هذه الأحداث.

- اريد ان اكون خالقا مبتكراً للشخصيات والأحداث، وأجلس على كرسي القراءة لاستمّتع بقراءة ما خطتّه أناملي و انتجه عقلي.

***** ***** *****

اعترف "جبوري القرم" قائلاً:

(فعلا دخلت من الرازونة عازماً على ان اسرق المال الذي شاهدته ذات مرة، وأنا اسرق السكائر من صندوق "العم موشي"، كان مبلغا كبيراً، ولم اكن ارغب في سرقة نقود ذات يوم. سكائر، وحسب، ولكن صاحبي اراد ان يَبيعني الى "مراد عربيد" بعد أن خسر كلّ ما يملك في القمار، ارادني ان ابقى ذليلا تحت ذلك الرجل الذي يصفونه بكبر آلته، وسوء خلقه. فقررت ان ادفع له الملبغ، واحرر نفسي من عبودية البيع والشراء، فليس ذنبي ان يكون جسدي ابيّض، وابدو ناعماً كطفل لا يكبر ابداً. فانا منذ ان ولدتُ، لا اعرف إلا هذا او ذاك مالكي، ولم يكنْ لديَّ عائلة الجأ اليها. ولم يكن بوسعي ان اخلص نفسي من هذه الخانة الضيقة، المقيتة، المهينة، ففكرت بان اسرق المال من "العم

/

موشيه"، واترك هذه المدينة البائسة الى غير رجعة. ولا سبيل عندي الا ان ادخل اليه اثناء تشغيل الفلم، ولا يمكنني ان افتح الصندوق لانه يستخدم الصندوق كسرير للنوم.

انتظرت موعد البكرة الاخيرة، في العاشرة والنصف، ودخلت الى الغرفة بسهولة. كان هو منهمكا في عمله، يُرجع البكرات الى عِلِبها. فتحت الصندوق، واخذت منه النقود، وشاهدت الصندوق الصغير الاخر الصغير اذ ظنّنته يحوي على مال ايضاً. ولما اردتُ العودة محمّلاً، هجمَ عليّ بغضب وهو يرعد:

- "تأخذ النقود ما همّني إمّا ان تأخذ تلْفني.. فلا وألف لا"

فرميت الصندوق الصغير نحوه فأفلتُّ من يديه وصرت خلفه، فامسكهُ مخافةً ان لا يلامس الأرض، فتعثر بشريط الفلم الممدود على الأرض، ثم سقط متسطحاً وجهه اليها، وهو يرفع يديه الحاملة الصندوق الصغير الى اعلى كسابحٍ لا يريد ان تطول ملابسهِ الماء. ثم صرتُ فوقه، جالساً على ظهره، وقد لففت الشريط حول رقبته بكل قوتي، وهكذا حتى اختنق. ثم بعدها زحفته واجلسته على الكرسي، بعناء، ونثرت الفلم حوله، واعدتُ الصندوق الى الصندوق بعد أن صار الوقت الكافي لمعرفة محتواه).

***** ***** *****

بعد ليلة مقتل "العم موشيه"..رغب "ابي" ترك ادارة السينما، وفعلاً افتتحَ مطعماً صغيراً، في وسط البلدة، ولم يستطب له الاستمرار في وظيفته؛ خاصة بعد ان هاجر "يهوده"، مع شقيقته الى فلسطين.

واستقر "حسقيال" في العاصمة "بغداد"، اذ نال درجة دينية متقدمة، فلم يعد باستطاعته ان يبقى مسؤولا مباشراً عن أملاكهم، ولم يعدّ متفرغاً للأمر الدنيوي حتى اقتضى به الامر ان يُوَكِّلَ محامياً لجباية الإيرادات.

٤

قالت "العمّة أمينة" محذرةً "فؤاد" من عواقب الدخول الى البيت المهجور، مرة أخرى:

- الجنية التي كانت تسكن بيت "يهوده" هي التي قتلت "نهية".

كان ولداً جريئاً جداً، لا يخاف من الجنّ، ولا العفاريت، ولا الطناطل، ولا السعالي التي كانت تسكن باطن عقول اغلب الذين كانوا من حولنا، وتجول بمرح، وحيوية. تمتليء بهم الارض كما يمتليء الواقع بالناس، والوقائع.

بَقِيَتْ العمة "امينة" تقص علينا اغرب القصص المليئة بالأشباح، وضحاياهم، وكان لا يُبالي بأيّة قصة، فهو الولد الوحيد، الذي بقيَ يدخل بيت "يهوده" المهجور، دون خوف. يتحدى قصصها، ويدخل وقت ما يريد. لا يصغي ابداً لتحذيرات الاكبر منه سناً. يدخل ويجلب ثمراً من الشجرة الكبيرة التي كانت تتوسط البيت، فيجلب للعمة "امينة" كيساً كبيرا مليئاً بثمرة "النبق[١٤] " التي تحبها كثيراً. فاسأله في اغلب المرات عما آل اليه حال البيت من الداخل، اذ كنت اريد التحقق مما رويّ لي من غيره عن الغرف الخربة، والازبال. بعد ان كانت في نظافتها، وجمالها مفخرة للعين، والخاطر.

[١٤] ثمرة شجرة السدرة

كان "فؤاد" في كل مرة يتجاهل اسئلتي البريئة ببراءة اكبر منها. كنت ارغب بالدخول، واخاف "أبي". لانه لن يسامحني اذا علم مرة بدخولي، دون اذنه. فأقاوم هذه الرغبة، ناوياً سؤاله. تجعلني رغبتي ان افكر في كل مرة لان اختلق عذراً مقنعاً. لكني في كل مرة ما ان اقترب فيها من "ابي" حتى اتردد، وابعد عني هذه الرغبة، لاني اعرفه يرفض حتماً، وربما قد ينفعل، ودونما سبب. كانت رغبتي كل مرة تكبر، وما ان يمضي بعض الوقت حتى اجد الفكرة تتجدد، وتتحول الى رغبة جامحة في الدخول الى البيت المهجور.

باتت تلك الزيارة السابقة التي كانت قبل النهب اشبه بوهمّ؛ كأنها مدينة الاحلام قد خسفت بها الارض وضاعت من ارض الواقع. ففي كل مرة افقد الكثير من تفاصيل تلك الحكاية، بعد ان تغير الحال. خاصة بعد ان دخلها غيري من بقية اقراني وبعد ان أُفرِغ البيت من تفاصيله التي كنت شاهدتها قبل ثلاث سنين.

اصبح بيتاً آخرَ. اذ تبين لي بان صورة الحلم السابقة كلها مسحت من ذهني، وحلّت بدلا عنها صورة اخرى غيرها، كأني كنت في مكان اخر، وزمن اخر، بعيداً عن تعاسة هذا العالم الارضي.

محت الحكاية الجديدة حكايتي القديمة، وتبدلت بحكاية اخرى يحكيها من يشاء، وعلى طريقته، ووفق ما رأى..

***** ***** *****

كان لها بيتان، الاول تقضي فيه معظم ساعات النهار في حياكة السلال، اما البيت الثاني فهو الذي تنام الليل فيه. لم تتزوج، وبقي يشاركها السكن اخوها من امها الذي لم يرث من ابيه شيئاً كما ورثت من ابيها الغني بضعة بيوت وبستاناً كبيراً.

كانت تروي لنا نحن ابناء جيرانها قصصا كثيرة عن ابيها، وكانت دائما تصفه بانه الشجاع الهمام، وكانت تقول عنه أبلى بلاءاً حسناً في انقاذ الغرقى ايام فيضان "ديالى"، عندما استطاع ان ينتشل من موجاته الكثيرين من الذين جرفتهم الامواج. وهو من اقترح ان يشيدوا سدّاً عالياً من التراب حتى تكون المدينة في مأمنٍّ من الموج المفاجيء. كان سباحا ماهراً، لا يتوانى عن انقاذ اي غريق. كذلك نهر "خريسان" في ايام الربيع كان يفيض على البيوت، ويجرف من الناس بيوتهم التي كان اغلبها من الطين. قالت ذات مرة بانها ايقظته للذهاب الى بستانه، ولكنه لم يستيقظ، وهكذا كان موته بلا الم او معاناة.. وبقيت تطلب من ربها في الصلاة ان يُميتها بمثل موت ابيها.. اما عن موت زوج امها المسلم "فقد لدغتهُ حيّة، ومات في البستان"..

كنا ننتهز الفرص ونسألها بخبث دون تردد، وتجيب بلا تردد.

- "ما الفرق بين صلاتنا وصلاتهم"؟.

- "صلاتنا خمس مرات في اليوم، وصلاتهم ثلاث.. كلها للربّ الواحد"!.

- "دينهم اقدم ام ديننا"؟..

- "دينهم"..

كانت تقول بان امها قاست كثيراً في تربية اخيها، فأخذته وتولت لوحدها رعايته. كنت قد سألتها:

- "أخوك مسلم وانت"؟.

- "اصبحت على دين أمي بعد أبي"!..

/

هكذا في كل مرة تروي لنا العمّة "أمينة" حكاية احدٍ ما عن اقربائها، او حكاية لواحد من اهل الزقاق. تسرد علينا لنبقى بالقرب منها، ونساعدها في ما يخونها جسدها على فعله.. احياناً تتسلى معنا بتسلية سؤال الالوان، التي كانت تقول بأنها تسلية ابائكم واخوالكم المفضلة:

"ابيض البطن، اسود الظهر"؟..

نحار بالجواب، ولكننا بعد ان عرفنا جوابها بانه "الباذنجان" فسهل اجابة "الحزورة" كل سؤال بعده. صارت مفتاحا لما بعدها. وعندما تنتهي من حزوراتها، تقول للذي تمسك بكفه:

- "اتحداك ان تفلتها".

أو :

- "افتحّها وخُذْ منيّ ما تطلبهُ"!..

كانت تثق بقوة اصابعها التي لا يقدر ايٌّ منّا على فردها. كانت تحرص على نظافة يدها دائماً، بالرغم من خشونتها.. تطلب منّا ان نغسل ايدينا قبل الاكل، وتشاهد ذلك بنفسها. وكان معظم الاولاد يلعبون امامها في باحة بيتها الواسعة. كذلك كان اباؤَنا وامهاتنا يلعبون عندها، ويسمونها "امينة المحبوبة". وتؤكد بانها تعرف "اصل وفصل ابائكم وأمهاتكم". فتروي لنا حكاياتهم التي سمعناها منهم، والكثير مما لم نكنْ نستطيعه منهم..

- " المرحوم جدك علوان دندي جرخجي نصف الولاية"..

تروي ايضا:

- (أن جدَّكْ المرحوم كان صديقاً حميماً للمرحوم "ناجي" والد "يهوده". اما "يهوده" فهو الصديق الحميم لأبيك، ولم يفترقا ابداً، في اغلب مشاويرهما، وشقاوتهما.. بالرغم من انه اكبر منه بخمس سنين أي بعمر عمك "صبحي"، وابوك كان بعمر "حسقيال"، اما "سناء" فهي اصغر بقليل من عمر "امك"، اما – انا- بعمر جدتك "فخرية[١٥]"، واصغر من المرحومة "حسيبة".

اذكرهم لكم واحدا واحداً، الولاية كلها، اعرفها فهم معدودون وليسوا كثاراً.. أنتم القادمون، ونحن الراحلون. الشخوص اغلبها من "العنافصة"، "ام الدجاج"، "السويدية"، "ام النوى". اخبارهم تصل من اول الولاية الى اخرها في رمشة عين)..

بقيت تروي لنا عن موقع السوق وكيف توسعت رقعته، والسينما وكيف بُنِيَتْ، والكسبة، والتجّار... تروي ايضا عن بيتها بانه كان من اول البيوت، وقد بني قبل ان يبنى بيتكم وبيت "بشير" اشترته منه قطعة ارض مفرزة. واشترى بعدي المرحوم "حسن الاسود"، "علي شلال"، "عبدان الحلاق"، "ميخائيل المصلاوي"، "عاصم البزار" "حمدية الخبازة"، ثم "حجي محمود"، وبنى جدك بيته بإمكانياته المحدودة في الوقت نفسه الذي بنى فيه "ناجي" بيته الكبير بإمكانياته الميسورة. وقتها كان بيتهم القديم قرب "السراي" في الضفة الاخرى من نهر "خريسان".. هذه البيوت كلها كانت جزءاً من بستان كبير، اذ بيع، ليصبح بيوتاً..

---

[١٥] * في شهادة وفاة الجدة كان مكتوباً تاريخ ميلادها ١/٧/١٩٠٠

- "الصديقان جدك وناجي توفيا في يوم واحد"..

*****   *****   *****

صاغتنا المدّونة. التي لم نصغها. ولم نرض بها.. صرنا لها تابعين ومتفاعلين وتحت سطوتها. بعد أن صارت تمسخَ مستقبلنا، وتحتل ما بقي لنا من مساحة حرية.

*****   *****   *****

صارت "العمة امينة" في الستين من عمرها، ولا تكلّ من عملها اليومي، زوّجت اخاها "عباس" من ايراد عملها، وانجب ولداً هي التي اسمته "عزيز".

كانت تحبه كثيراً الى درجة كانوا يسمونه "المدلل". ولا ترفض له طلباً.. لكنه تركها ملتحقاً للدراسة في "بغداد"، وبقيت تنتظر قدومه نهاية كل اسبوع بفارغ الصبر. كانت مخطوبة في السابق لـ"زهران مائير" بائع المواشي الذي سمي باسم امه. وعدها بالزواج بعد الهجرة الى اسرائيل، وبقيت تقول:

- "الوعد لا يكفي".!.

وتضيف:

- "اردتُ منهُ ان يتزوّجني عند اهليّ حتى يَحُقَّني"،

- "لن تخرج البنت الطاهرة من بيت ابيها دون مراسم زواج"،

وهذا جعل أمه "مائير" تصرّ على الهجرة بابنها. فبقيت بحزنِها العميق تعمل يوميّاً منذ الصباح الباكر، حتى مغيب الشمس. كأنها تكابر

بالعمل المتواصل، وتداوي جراح قلبها المحطّم. باكراً تقدمُ الى بيت عملها، ولا تتركه الا ساعة النوم، وتأكل وجباتها فيه. لا تطبخ سوى ان تضع ابريق الشاي على موقد الجمر، كان اخوها "عباس النحيل" يجلب لها كل وجبة في وقتها. ولا تقبل إلا ان تجعلنا نُشاركها بإلحّاحٍ ما تأكله، وبكل متعة.

تروي لنا القصص، والسيّر بالتفصيل، نتحلّق حولها ونستمتع بما تحكيه. تُحبُّ عملها كثيراً، وتتَفَنَّنْ في ابتكار اشكال هندسية للسلال المحوكَة من اغصانِ الاشجار الناعمة. والمزوّقة بخوص السعِف التي تُبْرِمُها ثم تشَرْشِبُها الى شرائطٍ بالغة الدقّة، لتعطي جمالها قبل أن تيبّسْ. هذا ما يجعل زبائِنها يأتون اليها من اماكن أخرى، وتروقهم نماذجها الانيقة، والدقيقة.. بسعرها النزر. كنا نلتقي عندها، فتهدينا الحلوى، ونلعب امامها في باحة بيتها الذي حولته الى مستودع السلال الجاهزة للبيع بمختلف الاحجام. تبيعها الى اصحاب البساتين، حيث يُعبِئونها بحاصل الموسم.

***** ***** *****

- "سعدون" هام على وجهه.. قالوا بانه قصد بئر "يهوده".

وجدت الحكاية وجهتها عندما اغوته الجنيّة بان يستسلم لها، فتطلق له سراح زوجته التي لا يمكنه ان يكون لغيرها.. كان يأتي من بيته الكائن في "دربونة التوراة"، ويهيم ساهم النظرة، صامتاً لا يتكلم مع احد، ولا احد يعرف ما يريد. كان الرجل وسيماً ابيض البشرة، ذا لحية سوداء.

كل مساء ينزل الى الماء ساعة الغروب، ويسبح مع مجرى نهر "خريسان".. يحمل صرّة ملابس على رأسه، فيها بعض ملابسه، وبعض من ملابس زوجته. رايته مرة يخرج من النهر، يأتي سابحاً، ويدخل من فتحة ساقية الماء التي كانت في السابق تسقي الحديقة.

يدخل وقت غروب الشمس، ولا يخرج الا في الصبح الباكر. كان يأتي، وامه لا تعرف اين يذهب، يصعد عاريا لا يلوي على شيء سوى ان يحقق نداءها. يبقى حتى الصبح.. يلبس كفنه الأبيض لتأتي اليه، إمّا أَنْ تُجهز على روحه، او تعيد له زوجته التي لا يمكنه العيش دونها. زوجوه اهله بأخرى الا انه لم يقربها، وزاد امره سوءا..

اراد ان ينفذ للجنية طلبها وتعيد له زوجته التي لا يريد سواها. يبقى طوال الليل، منتظراً. ولم ينِّم منذ ان ضاعت منه. البعض قال بانها هربت من سوء معاملة امه الغيورة.

بينما ام "سعدون" بقيت تتمسك بحكاية الجنية التي اعجبت بولدها الوسيم، وبانها لن تطلق سراحها ما لم تأخذ منه وطراً.

بقيت "العمة أمينة" تواصل حكاية "نهية" تلك المرأة التي نزل زوجها الماء، فخطفه منها الجنيّ، ولم يعد يراه احد.. قالوا لها بانه يسكن في بئر البيت المهجورة، فدخلت كالمجنونة الي عمق البيت، فالتقيا هناك.

كانت هي الجنية قد اخذت منه زوجته.. وتَلَبَسَتْ هيئة امرأة في العشرين من عمرها، سمراء، طويلة. وكان هو الذي تَلَبَسَهُ الجنيّ الذي اخذ منها زوجها في الثلاثين "صافي البشرة، طويل القامة، ويرتدي ملابس الملائكة".. ما ان اقتربا من بعض حتى رمى عليها قطعة ملابس زوجته فلبستها. دون ان يتبادلا اي كلام..

كانت الحكاية مع العمة "امينة" تأخذ وجهة حقيقية مقنعة، ولم تكن تريدنا الدخول لأي سبب كان. كنا نسمع الحكاية، ونتخيّل ما لم تكمله:

- "ظهرت عليها اعراض الحمل"..

ذات يوم راقبها شقيقها تدخل، وترتمي في حضن الشيطان. تابعها الى هناك ثم طعنها قبل ان يصل سعدون، ولم يعترف بقتلها الا بعد مدة طويلة. لاحقت التهمة "سعدون" زمناً، ومن يومها ما عاد أحد يراه. بعضهم شاهده في "بغداد" يرتدي ملابس الصوفية، وآخر شاهده في الشام...

***** ***** *****

استطاع "فؤاد"، دون قصد منه، ان يختصر لي خوفي من "ابي" وان احقق رغبتي في دخول البيت المهجور دون ان انتظر موافقته. جاءني بكتيّب مصور عن الدراجات الهوائية. لم اكن حينها استطيع القراءة بشكل كامل، ولكن ما إن رايته في يديه حتى اخذت اقلب في اوراقه بلهفة، كنت اول مرة ارى فيها واحداً من الاولاد الذين في سني يحمل كتاباً، فلم اكن متلهفا لمشاهدة الصور. لكن هاجسا ما في داخلي، يتحرك في مضمار الكتب، وعوالمها. كان شيء ما في داخلي يميل بغرابة الى رؤية تلك الغرفة التي كانت تمتليء بالكتب، والتي شاهدتها قبل اكثر من ثلاث سنوات. فسألته:

- "من اين لك هذا؟"..

فقال من "الخربة"!.

تهيأ لي انه يكذب علي، فأظهرت له باني غير مصدق لما يقول، ولكنه اكد لي بان تلك الغرفة ما زالت مليئة بالكتب، "ولم يعرها احدٌ اية اهمية".

بقيت مترددا، وغير مصدق بالذي اخبرني به. فأرجعت له الكتيّب أول الامر، وكأن الامر لا يعني لي شيئاَ، ولكني صرت بعد ذلك محاصرا بتلك الرغبة، ومشاهدة تلك الغرفة التي خرج منها "يهوده" ذات يوم ، وبكامل اناقته، بصحبة كتاب "هيرودتس". فقلت له باني اعرفُ تماماً مكان تلك الغرفة، وأعرفُ جيداً رائحة تلك الكتب. فعقدت عزمي ان ادخل البيت المهجور مع "فؤاد".. مهما كان الثمن، وبعد ان تحققتُ من نوم "ابي" في تلك الظهيرة القائظة، وعزمت على ان لا الفت الانظار الى خروجي، فتجاوزت الخروج من باب بيتنا المغلقة، فهي عندما تفتح تحدث ضجيجاً يجعل من في البيت يتنبه لخروجي، فتوجهت الى شجرة التوت التي كانت بجانب سور بيتنا وتسلقتها. ومن غصنها المائل الى الشارع.. هبطتُ خارج البيت. ثم تلفّتُ ظانّاً ان سيراني أحد. لم يبعد بيت "عمي" عن بيتنا سوى بضعة بيوت، كنت حريصا على ان اتأكد من عدم وجود احد ورائي، وبالقرب من شباك بيت عمي كان "فؤاد" ينتظرني.

دخل امامي وانا أتبعه خطوة بخطوة.. كان يتقدم بكل ثقة، ولا يعرف قلبه الخوف. اما انا فكنت اتعثر خوفاً وقلقاً.. كنت اراه متناسياً الارواح الشريرة التي ستكون بانتظار من يدخل البيت، فصرت مثله متحدياً لذلك. تعود ان يدخل البيت لوحده، متجاهلا وجودها، وراح يغريني بالكتب الكثيرة في تلك الغرفة. كانت امامنا الحديقة الكبيرة التي كثرت فيها الاحراش العالية، والقصب وتصاعدت على اليمين والشمال من ممرنا. وبقيَ درب ما وطأته الاقدام، لم ينبت فيه اي نبات. فقال لي:

- "هناك في الجانب الثاني من الحديقة البئر الكبيرة.. تعال لأريك اياها"، رفضت بتشدد ان لا نضيع وقتنا..

- "اريد ان ارى الكتب"..

تخطينا الغرفة المهدّمة التي تحولت الى تلّة من التراب، فصارت امامنا باب البيت الخلفي. لحظتها تذكرت بان "ابي" كان على حق عندما رفض ان يصدق ان الباب لم يفتح الا من الداخل. وقفت برهة امام باب الخشب السميك، لأتأمله مدعوماً بشبكة فولاذية، منقوشة، ومثبتة بمسامير غليظة، فمن المستحيل فتحها، الا بقلعها من الحائط العريض، وحيث تعمقت فيها دعائمها الى باطن الحائط، والذي يزيد عرضه على المتر. تلمست الرتاج الكبير الذي يشبه رتاج الباب الرئيس. قال "فؤاد" :

- "اتبعني هذه هي الشجرة اتحداك ان كنت تستطيع تسلقها؟"..

- "دعني اعرف غرفة الكتب"

كنت اعرف موقع الكتب. بالرغم من تغير المكان الذي تغيرت معالمه وصارت كئيبة، تنتشر فيها رائحة العفونة والعطانة.

افتقدت تلك الرائحة الطيبة التي لامست انفي وما زالت عالقة. تغيرت ملامح المكان، صارت له ملامح خانقة، مظلمة كئيبة، لا تشبه ذلك المكان، في ذلك الزمان.

تحول الى مكان غريب اخر حطّ بيّ دمارٌ لما خزنته ذاكرتي ليوم دخولي اليه.

قلت لفؤاد الذي بدا بصعود الشجرة غير مبال بالذي كنت اودّ اخباره..

- "هنا.. لعبتُ مع العمةِ سناء"!.

- "هنا طبَّبَنّي العمُّ "حسقيال"!.

- "ومن هنا نزلت القطةُ البيضاءُ "سنونة"!.

- "ومن هنا خرجَ العمُّ "يهوده"!.

بعد ان اعتلى الشجرة صمتت عصافيرها، وطارت بعيداً، فتركت صمتاً جعلني اصغي اليه، وكأني بقيت اسمع ما خزنته بذاكرتي من اسطوانة "اديث بياف".. تغيرت سمات الاشياء الى مسخٍ وقذارة.

تغير المكان الذي كنت قد دخلته في يوم من الايام، ولم يعد ذلك المكان. رائحته غيرها، حتى الشجرة التي توسطت الباحة صارت كأنها تبوح بحزنها، ولم يسعها ان ترتفع الى اعلى بشموخ كما في السنين الماضية. بل اثقلها الحزن، فمالت، ولم ترتفع. بعد ان استطالت اغصانها وبدا عودها، متغضّناً.. اذ فاجأها الاسى وتراكم السنين. تحيط بها اكوام الازبال، المتراكمة في كل مكان من البيت.

تلفتت الى البئر الذي كانت تسكنه الجنية، فلم يكن سوى بئر جافة.. ثم تقدمت الى غرفة الكتب. كنت اعرف موقعها، فدخلتها وحدي. كانت الرفوف العديدة محفورة بالحائط.. واغلب الكتب قد انزلت الى الارض بعبث سقيم. بعضها ممزق، وبعضها عليه اثار ماء لم يكن نازلاً من السقف، او زحف اليها من مكان ما. لم اكن اعرف بانه بقايا بول تيّبس؛ الا بعد ان وصلتني رائحته النفاذة.

/

شاهدت مجلدات لم يكتب على ظهرها شيء، وأخرى مكتوبة بحروف كبيرة. كنت اجيد قراءة اسمائها (فقط) دون ان اعرف معانيها، وبعض المجلدات مكتوبة بحروف مقلوبة، لم اعرف تهجئتها. اغلبها متناثرة على الارض، بعضها مجلدة بأغلفة من الكرتون السميك، وبعضها منزوعة عنها، او بقيت اغلفتها، ونُزِعَتْ عنها متونها. كتب مختلفة الاحجام، (حجم الجيب، وحجم المتوسط، وحجم الوزيري) بورق اسمر اغلبها لا يحمل صوراً، وبعضها باللغة العربية، وأخرى بالإنكليزية؛ لم افهم معاني عناوينها، كتب عرفت عنها انها كتب رجل تخصص في مادة التاريخ، استطعت ان احفظ ما عرفته، وميزته فيما بعد..

مجموعة متعددة من "الكتب المقدسة" بعدّة لغات، اشعار "هوميروس" (Homer)، بعض التراجيديات والكوميديات الإغريقية، واللاتنيّة، وبعض من ادب العصور الوسطى الذي يتمحور حول الفروسية، و"دانتي" (Dante)، و"سنبسر" (Spenser)، والكثير من اعمال "شكسبير" (Shakespere)، وبعض من اعمال "ملتون" (Milton)، بعض من اعمال "ميكافيلي" (Machiavelli)، و "غاليلو" مع الكثير من الروايات التي تعود الى القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر، وكتب في مختلف العلوم، والتي لم اعلم منها سوى تهجئتها (Phenomenology)[١٦]، Cyberentics[١٧])، وبعض من كتب الاقتصاد، كذلك العديد من كتب التاريخ على مختلف مراحله..

---

[١٦] * علم الظواهر..

[١٧] * علم الضبط..

كنتُ مهتماً بأن اجد ذلك الكتاب الذي هوستني رائحته، ذلك الكتاب الذي تحدث به "يهوده" الى "ابي". صرت ابحث عن تلك المجلدات التي كتبها "هيرودتس"، برغم اني لم اعرف شكلها، و لا اعرف لون غلافها، او اللغة التي كتبت بها. وكنت على يقينٍ باني سوف أستدلُ عليها دون اي جهد.

صرتُ ابحث بعيني على عجالة. برغمِ التراب الذي يغطي اغلبِ عناوينها، فوقعتُ في حيرة ذلك التأريخ الذي عصف بي، وجعلني اتخيلها في متناول يدي. واذ هي قبض ريح. يكفيني باني شاهدت احدها ذات يوم بعيد.

بحثت جيداً، وقلبت الكثير باحثاً عنها، اكاد ارى سطورها التي ترسخت في مخيلتي، ونُقِشَتْ عميقاً فيها. قلبتُ بهوَّسْ بقية الكتب المتناثرة على الارض، وأَعَدْتُ البعض منها الى رفوفها الفارغة. كان يدفعني شعور بانها كائنات حية، طيبة، تستحق مني هذه المجازفة الكبيرة.

كنت متاكداً بانه سيغضب مني غضباً شديداً.. هكذا مغامرة، ستكلفني الكثير. بقيت لا ادري كيف تأجج عشقي لعالم الكتب قبل ان اتمكن من القراءة.. كنت في العاشرة، واعرف القراءة بصورة متقنة، احببت التعلم قبل دخولي المدرسة. كذلك ساعدتني وعلمتني "امي" الحروف الانكليزية، وتهجئتها. صرت اقرأها دون فهم معانيها.. تلك رغبة "ابي". سألها ان تفعل ذلك بعد ان شفيت يدي التي طالها الدهن الحار.

اقترب "فؤاد" وطلب مني ان نجول سوياً على البقية التي كانت في الطابق الارضي.. دخلنا الى غرفة اخرى. كانت فيها ايضاً، اكوام

قمامة، وغائط، وبقايا كتب ممزقة، غرف مظلمة وفارغة، الا الغرفة التي كانت بجانب الباب الخارجي، كانت بابها ايضاً مفتوحة، وفيها شرشف ابيض، فقرر ان يدخل الى عمق الغرفة، وكانت المفاجأة التي كادت ان تطيح بنا. كاد قلبانا ان يتوقفا من الخوف.

***** ***** *****

أكون دائما في حالة سؤال مستمرة كيف يحاجج العقل التاريخ فينتج حالة ندم باننا بقينا في وحل جملة مفاهيم مغلوطة، اوصلتنا الى التيه بعيداً عن انسانية الانسان. وليتنا نفك من اسرها، على عكس ما يحاجج عقلنا التأريخ.. ينتج بان الثاني سيكون تابعا لا متبوعاً. مشكلة العقل انه يتماشى مع الشاهد الذي ترك اثراً قبل أن يمضى، وليس مع الذي تَرَك له اثراً بعد ان مضى، وتفسّخ، فالمشهود بما ترك، والشاهد بما رأت عيناه، وليست بعين غيره التي لا تحايد.. الأثر الشاخص الاكثر حضورا وثباتا من المختلق او المتخيّل...

- (التاريخ أعور، ولا يرى الا وفق زاوية الحاكم.. حاقدٌ على الأسوياء..

كاتبه يعرف كيمياء السمّ في العسل، ويقلب ببلاغته صورة الحق الى الباطل)...

بعدها اخرجت الآلة الكاتبة التي اهداني اياها "يهوده"، عهدتها ثقيلة، وكان علي رفعها بواسطة حبل كي اصل بها الى اعلى شجرة التوت. ثم رحت اثبتها جيداً تحسباً لسقوطها، بعد ان حصرتها بين غصنين متفرعين، وهناك جلست احلم باني أكتب بها ما ليس ادري.. ارقب العالم من اعلى الشجرة المطلة على حديقة "يهوده"..

بقيت كالعصفور على شجرة التوت، احلم، والعب. وما حدثتني به العمة "امينة" بقى بذهني ينتظر التدوين.. كتبت ذات مرة:

- لعل "فؤاد" هو اول من وجدها جثة هامدة في الغرفة التي تقابل الحمام.

يومها لم يخف، ولم يبال بشيء. نظر الى دمها الذي خرج من فمها، وفرش حولها بركة من الدم الاحمر القاني، هكذا واصلت الخيال، كأني اريد ان اجعل الصورة، مليئة.. ربما قررنا الخروج، بعدها. تعمدنا ان لا نخبر احداً بذلك، ولأننا اردنا مواصلة الدخول الى المكان المليء بالتشويق والمفاجاءات، المكان المثير والمدهش الذي يجعلنا في غمرة اكتشافات متتابعة.. ولكن "فؤاد" كل ما يهمه هو جمع النبق في كيس.

***** ***** *****

(هل يضيرُ السمَّ سمٌّ. اقتحمت ليلتهُ الظلماء بيقين خلاصها، خوفها يخضّها خضّاً عنيفاً، فثبتت بخطوّها نحوّه...

كان الملاك في ابيضه ينتظرها ساهماً في أسراره.

بينما ظلها يسبقها اليه، لحظات حتى تموّج الضوء الخافت متحولا بينهما للهفة من حافة حادة، فأما الموت، واما الحبيب... لم يتكلما خشية الافساد، فمسّا بعْضَيهُما، وتحول المَسيسُ شعلة محرقة، صارا في ظل واحد، فالانغراز راسخ، يتقلبان، يموجان، يلهثان، يشتعلان، يضيئان، ويمصّان رحيقٌ طيبٌ لا يملّْ)..

***** ***** *****

/

يطاردني قولُ "فؤاد" الذي لن ينسى..

- "لا يُخيف البشر إلا البشر ".

٥

كان يقول في كل مرة هازئاً:

- "مَنْ أَعطى ثُقْبِهُ لا يُثقّ بهِ"..

كنتُ اعرف أنه لا يشير إلى ثقب التاريخ الذي تشبَّث بعروته، وجعل منه مهمازا يهمزُ حصانه الطائر. بل كان يشير إلى حالة أخلاقية. هل يذهب بقصده الى المؤرخ الذي لم يقل سوى الحقيقة التي اراد ان يفرضها علينا، واهمل الحقيقة التي تناساها تحت ظرفه المسمى. التاريخ يبقى متضمناً حق النسيان، ولكن النسيان المؤقت، ليوم او لسنة، ولكن لن يبقى ابداً، يأتي مؤرخ اخر، فيفتضح ما ابتلعه المؤرخ السابق..

***** ***** *****

في ذات اليوم الذي سكنت عائلة "حسنة الخبازة" مستأجرة لبيت متواضع في محلتنا، تزامن معها بنفس اليوم الذي اشترت فيه عائلة "بطرس" بيتاً، وبالمصادفة صارت العائلتان جنب بعض.

تبين فيما بعد بان "نديم البيروتي" أول من ساعدها في الحصول على بيت لتسكن فيه، وهو أيضا من دفع من جيبه أجرة ثلاثة أشهر مقدماً لتسكن في بيت "رمضان" شبه المتداعي.. بعد أن كانت تنام على قارعة الطريق. التقى بها مصادفة فحكت له حكايتها التي جعلته يرأف لحالها، ويتعاطف معها كثيراً، الى الحدّ انه لم يتركها إلا وقد عزم أن يساعدها في إصلاح حالها، فاصطحبها إلى بيت أهله الذي

/

تقطنه شقيقاته الثلاث العازبات، بجانب السينما. وجعلها تنتظر عندهنّ هناك لأقلّ من ساعة واحدة حتى جاء بموافقة قريبه، فتم تسليمها المفتاح في ساعتها، وكأن الأمر مقدر، بتسهيل من الله. سألته العمة "نجمة" شقيقته الكبرى من أين جاء بهذه المرأة الطيبة وبناتها، فاخبرها بأنها صادفته في طريق عودته من الصيد، وقد اقتنع بكل ما أخبرته من قصتها، وصممّ بمعية زوجته على مساعدتها بقدر ما يستطيعان. كان قد التقى بالمرأة الغريبة مصادفة بعد عودته من جولة صيد أسبوعية، اذ يختار في كل مرة مكاناً، غير محددٍ من البراري التي تحيط بالمدينة، وفيها النعم. فالصيد مهنته التي تؤمن معيشته. بعدها يبيع مما يصطاده من غزلان، أو درّاج. سواء بواسطة البندقية، أو بطيور العقبان الجارحة.

كانت عودته ميمونة بخير وافر. وجد المرأة أمامه تستحق العطف، وليس لها مكان تستقر فيه، ويسترها من أقدار قد لا تحمد عقباها.. وجدها تستحق، وبما يستطع. فبقيت المرأة تدعو له بطول العمر، ولأهله بالاستقرار، والستر، والرزق، بعد أن امنّ لها البيت الذي يملكه قريبه، واقنعه بان يسلمها مفتاح البيت، وعلى ضمانته. راحت المرأة تدعو له كثيرا بالرزق، وراحة البال.. مثلما هو فرّجَ عن كربتها، وأزال عنها ضيقتها، وبكل هذا الكرم الكبير..

منذ ذلك اليوم قد حظيت باهتمام أكثر من الجيران كونها كشفت أخبارها لأهل المحلة.. عن عوزها وفقرها، ووحدتها، ورغبتها بأنها تودّ العمل، لتربية بناتها الأربع بشرف، بعدها تنافست اغلب عوائل المحلة، في مساعدتها وتجاوز محنتها، واقترحوا أن تبيع الخبز. بعد ذلك اليوم أكرمتها "أمينة المحبوبة" تنوراً فخارياً، وأهدتها جارة أخرى

/

مجموعة من الأواني الكبيرة، وأخرى بعض الحاجيات التي تتمكن بها من عجن عجينها، وتباشر عملها.

اما "ابي" وبقية الرجال.. فقد اتفقوا فيما بينهم.. كل مرة وبالتناوب، أن يتبرع من جيب احدهم لشراء كيسٍ كبيرٍ من الطحين، فتؤمن بداية عملها، دون حاجتها إلى احد. حيث دامت "حسنة" محطّ عطفّ من الأغلب، و تطوف قصتها على السنة نساء المحلة "بأنها امرأة فقدت معيلها في حادث عابر"، وبقيت لا تمتلك اي سبيل للعيش به، ولم يكن أمامها سوى أن تبيع الخبز جاهزاً لأهل زقاقنا، والأزقة المجاورة، وتعيل بنفسها بناتها الأربعة.

أما عائلة "بطرس" المكونة من أربعة أولاد وبنتين، وأمهما. فقد نزحت هذه العائلة إلى محلتنا وراء أقربائهم بحثاً عن الرزق الحلال، ومرافقة لعائلة "ميخائيل"، اذ كان الرجل ابن عمّه.. بينما زوجتاهما شقيقتان. فقد تكفلت العائلتان بعضيهما كأقرباء، وسرعان ما تآلف أولادهم مع أولاد المحلة، واستعدوا لان يكونوا زملاءهم في المدرسة الابتدائية، والمرحلة المتوسطة.

أنصهرت العائلة الأولى في العائلة الثانية فكلهم منهم، الصغير والكبير، يساعد أباه، ويساعد عمه.. ولأن عائلة "ميخائيل" ميسورة الحال، قديمة في سكنها؛ عرفت كعائلة طيّبة متزاورة مع أهل المحلة بيتاً بيتاً، وتسأل عن مريضها وغائبها، وتحزن معها لأي مصاب، وكأنه مصابها.. كذلك تفرح في الأعراس، وكأنها أعراسها.

حظيت باحترام كل الجيران، وصارت نسوة الجيرة تتعلم منها تفاصيل صنع بعض الحلويات البيتية غير المألوفة، والتي تذوقوها في مناسبات عدة، منهم. فبعد ان وصلت عائلة "بطرس" في سيارة حمل،

تساعد أولاد المحلة فيما بينهم مع أولادهم في إنزال، وتوزيع ما حملوه من "عفش" على غرف البيت.. صار الجميع يكنّون له الاحترام كذلك تقديراً لـ"ميخائيل" الذي يحبهم فرداً فرد.

استدعى قريبه من "الموصل" لتسليمه مطعم الكبة الصغير، خصوصا بعد أن افتتح لنفسه مشرباً يقدم فيه العرق المقطر المعمول من مختلف الفاكهة المصنع في البساتين القريبة.

- "رمانتان في يد واحدة لا تُمسك"..

بعد ان صار له زبائنه الكثر في المطعم والمشرب، وتتطلب منه المتابعة المستمرة، وليس معه احد يثق به في امور المطعم سوى ابن عمه، وأولاده أبناء خالة أولاده.. فلم يغير "بطرس" اسم المطعم المكتوب بخط رقعة توسطت الواجهة. الا انه ادخل عليها تغيرا في أسلوب صناعتها بدلا من حجم واحد بسيط الى "الصغيرة، والكبيرة، العريضة الصغيرة، والعريضة الكبيرة"، ولكون امرأته كانت تعدّها في البيت، بمهارة عالية، وتعتني كثيراً بتفصيلها من اللحم الممتاز الذي تشترطه على اللحام "حمدان"، وباعة الخضار، صارت زبونتهم الأهم، وتحرص على التسوق بنفسها وتنتقي لها أفضل موادها الأولية، فازدادت ثقة زبائن المطعم، وصار "كبة ميخائيل" علامة بين الناس وتلفظها باسم مختصر "كبة ميخا".. اذ ذاعت شهرتها إلى ابعد مكان من المدينة.

قالت ذات مرة "زوجة ميخائيل" مفاخرة، بان زوجها في أول تعارفهما قد أرسل لها "كبة" كانت مليئة باللحم، واللوز، والكشمش، وبداخلها خاتم الزواج.. هكذا وتم قبوله زوجا لها، وجاء بها من أقاصي الدنيا إلى "بعقوبة". إذ بدأت المساحات الفارغة بين البيوت تمتلئ،

/

وتصير بيوتاً متراصة، ومترامية الأزقة. و قد صار حيّاً اسمه حي "المحطة"، لقربه من محطة القطار وأيضاً توسع مراب السيارات الذاهبة الى بغداد، واختير مكاناً له في بداية الزقاق الذي يفصل بيننا وبين بيت "يهوده"، وتكاثر الطلبة. يأتون من القرى ليكملوا دراستهم في الإعدادية التي كانت الوحيدة في كل اللواء، فصار الشارع العام أيضاً فيه إضافة إلى مرآب سيارات الأجرة مراباً جديدا أنشأته الحكومة، وأسمته مصلحة نقل الركاب.

كانت دوائر أخرى، بدأت تأخذ أماكن لها في هذه البقعة التي توسعت تدريجياً، واتصلت حلقات بنائها ببقية حلقات الأحياء الأخرى، فصارت متصلة بالسوق، وتقارب المشفى، والجامع، والبلدية، ودائرة العقاري، ومخفر الشرطة.. ما جعلها مرغوبة للسكن فيها، ومحطّ أنظار القادمين من القرى البعيدة.

***** ***** *****

كانت المرأة الجميلة تبدو في الثالثة والثلاثين، طويلة، عيناها زرقاوان، وبشرتها قمحية، تقول بان أمها من أصول أفغانية، تتمتع بفطنة وسرعة جواب بعذوبة لسان متملق. ولا تتنكر عن أي سؤال، مهما كان محرجاً. قالت عمتي عنها بعد ان زارتها:

- "تكبرني بعشر سنوات في الرابعة والأربعين لو حسبتها من عمر ولادتها البكر اذ إبنتها البكر في مطلع العشرينات"

قالت اخرى:

- "كل ابنة تصغر الأخرى بثلاث سنوات".

همست امي:

- "ان صدقت معك امرأة في كل شيء فعليك ان تتوقف أمام جوابها عن عدد سنوات عمرها"!..

قالت اخرى:

- "لم تحدثنا عن فقيدها الذي ترك لها حمل تربية البنات القاصرات".

- "لم تذكر مكاناً معروفاً للناس.. كأنها لا تعرف لفظه، وليس من المعقول أن تكون نسيت مكانا قد ولدت فيه".

عادت اخرى لتهمس:

- "هي التي تعمدت عدم الذكر".

فعلا لم يعرف من أين قدمت "حسنة" حتى "نديم البيروتي" الذي خبر المناطق المحيطة، وخرائطها التي جال مساحاتها الواسعة على قدميه، وراء الصيد الذي يؤمن به لقمة عيشه الكريمة... اغلب الناس كانت تنظر لها بعين العطف لا الشك، وقد عاملتها وبناتها معاملة جيدة.

***** ***** *****

قال شقيقها:

- أنا من قتل "نهية"، وقد ضبطتها تزني مع الشيطان، وقد حملت منه، وتأكدتُ يومها عندما سألت "سارة" ابنة "سنية الخبازة" وقالت بأنها حامل، ولم احتمل ذلك الامر "كيف تحبل بعد أن تركها زوجها قبل أكثر من عام". سبق لي ان لاحظتها تعود الى البيت في الصباح الباكر وتدس نفسها في سريرها. طلبت من والدتي ان

تخبرني عن سبب تعرفه عن غيابها، ولم تعطني سببا مقنعا كونها تنام في إحدى الغرف في حرّ صيفنا الخانق، سألتها، فتجيبني وكأنها نائمة. تسير في نومها. حالمة وشبه نائمة. لم احصل على جواب شاف لغيابها، وكان فعلا غياباً عن البيت. تأكدت منه. بعد ان تاكد لي بانها تخرج ليلا بعد نومي من تعب العمل أثناء ساعات النهار الشاقة، فأنام مبكرا، واصحو مبكراً.

ذات مرة انتبهت الى صوت الباب تقفله بعد عودتها قبل الفجر. فحملت على نفسي وأصررت على معرفة هذا السرّ الذي أثارني، ولم اسأل عنها احداً من الأهل حتى استطعت المعرفة بعد ان تابعتها في اول الليل تدخل الى البيت المهجور. شاهدتها بعيني تخالط جنيا يرتدي الأبيض.

لم اصدق ما رأيت..

أول الأمر لم استطع ان اخبر احدا، حتى اخبرتني "سارة" بان الجني سوف يفتك بالعائلة كما فعل جنيّ في عائلة كانت قد سمعت عنها. وفي اليوم التالي دخلت قبلها، وانتظرتها عند مدخل الباب، أمام باب الحمام، فأخذتها بسكيني أكثر من مرة، وبكل ما املك من قوة. حتى تركتها جثة هامدة. غسلت عاري، وطردت الشيطان الذي سيطارد عائلة. بقي حالي كل يوم يسوء، وتركتني "سارة" بعد ان صرت عاجزا عن الزواج.

واليوم بعد ثلاث سنوات أقول بان "سعدون" ليس قاتلها، فهو الذي أخرجها من عمق البيت في حين كنتم كلكم تخافون من الجني الذي كانت "شقيقتي" تعاطيه.. فقد خلصت عائلتي من قطرة زيت طافية على سطح الماء.

***** ***** *****

لم يكن الأمر بيدي سوى أن أشاهد، وأتعذب.. كلما تدخل إحدى بناتها إلى البيت المهجور، وتخرج مُحمّلة بالكتب لأجل أن تكون وقوداً لتنور الخبز... حتى نفدت.. بقيت أتلظى، وأتأسف كثيراً، فاصمت.

بعد ذلك صرت اسمع بانهن يواعدن اغلب شباب المحلة في غفلة لم تغفل عنها المحلة التي كانت تراقب من خلف الشبابيك، ومن وراء الأبواب، ومن وراء الأشجار. صار في ذلك البيت محطة عابرة لالتقاء عشاق عابرين، ومواعدات لنزوات عابرة..

في تلك الأثناء، صارت قصص الأم تفصح عن نفسها، عندما بدا زوارها يدخلون، ويخرجون كالنسيان.

***** ***** *****

كان كل منهما يجادل الاخر عندما يلتقيان.

"ابي" تعود على الإصغاء اليه، اما "يهوده" فقد تعود على الإدلاء اليه، وما بين الإصغاء والإدلاء مدّ وجزر.

"ابي" لم يكن يعرف القراءة والكتابة، ولكن "يهوده" هو من كان يقرا له ويخلص بعض تلك الكتب..

"الأول" كان صاحب النظرة العملية، اما "الثاني" النظرة العميقة، فما ان يتطلب شيء يراد له الإثبات، والثبات، والتحقق.

يكون "ابي" هو من جازف بانجازه، ويكون "يهوده من جازف بتفكيره.. ما أن يتحقق فوزا، فيكون الفوز لكليهما. النتيجة الخطأ له، وكذلك صحيحها..

-        (في كل محلة توجد امرأة تمارس أقدم مهنة في التاريخ.. لا يراها الا من يريدها)..

-        (للتاريخ ثقب)..

يبدأ الضحك كلما يُذكِرْ احدهما الآخر بهذه العبارة، وتدور الضحكة بينهما صافية، مجلجلة. كأنها تهتزّ الشجرة التي تحتها يتسامران.. تأخذني الضحكة معهما، ولا اعرف سبب ما يضحكان عليه لكني كلما أكون قريبا منهما، أكون ضاحكا معهما، ودون أن افهم..

***** ***** *****

المثير بالأمر انه ذات يوم جاء رجلٌ بهيئة بائع متجول. أخطأ، فطرق الباب على بيت "بطرس"، ومنه أستدل على بيت "حسنة".. عرف الأولاد أوصافه "موشوم الجبهة والساعد، سنهُ ذهبية، يحملُ في رقبته عليقة متسخة وكبيرة" وراحوا يصفونه، ويهولون في وصفه. كأن أولاد الحارة قد وجدوا ضالتهم.

يومها شاعت بان رجالاً متنكرين بلباس الغجر، قاموا بخطف الأولاد من أهاليهم، خاصة الأولاد الذين يلعبون لوحدهم في الأزقة، وينقلونهم بالأقفاص ويبيعونهم الى الغجر. بقيت الصورة المُخيفة تطاردهم في الشارع الذي يلعبون، وخاصة في وقت الظهيرة. كذلك للنهر القريب صارت حكايات تبتلع الأخضر واليابس.

تكاثرت القصص، وصاروا يأتون من أماكن بعيدة. بقي الأولاد يترقبون متى سيخرج الغجري، من اجل سرقة الأولاد، والبنات. باتوا ينتظرونه من اجل ان يروه، ويراقبون بيتها عن كثب، فلم يشتر احدٌ منها الخبز. كانوا يحذرون بعضهم بعضاً.. كما لو ان وحشاً مفترساً قد

استقر في بيت "حسنة الخبازة" وحتما سيخرج. حتى البنات لم يبقين في البيت كالعادة، يدرن بين البيوت كضيفات ثقيلات، يضيعن أغلب ساعات النهار. وكان الأولاد يسألون البنات عما يجري في البيت:

- "من هذا "الغجري" الذي دخل بيتهم.. ولم يخرج"؟.

فكانت أجوبتهن تضيق، وتتضارب، وتضيع.

صارت لهفة الأولاد بان يروه، ويتعرفوا على شكله.

اما الكبار فقد جزموا بان الرجل والمرأة يختليان أثناء النهار، كذلك الليل لا يفضح الأسرار. بعد ان انقضت خمسة أيام، كانت "حسنة" فيها لم تترك ضيفها الذي صار في المحلة اكبر علامة سؤال. وهي لم تخرج لأجله من بيتها لحظة واحدة. ففي اليوم الخامس خرج صباحا، ودعته بسكب جردل ماء ودلقته خلفه في الشارع، كي يعود إليها سالماً. لكنه ذهب ولم يعد يراه احد. لان الأولاد الشباب كانوا ينتظرون تلك اللحظة الحاسمة، يتربصون له بفارغ الصبر، وما أن ابتعد عن بيتها خطوات.. حتى خرجوا له من وراء الجدران، والحيطان، والأشجار، ومن كل زاوية، وركن... ساروا خلفه أول الأمر، وتحول المسير الى رميه بالحصى، وبالعيدان.

كما تتدحرج كرة الثلج، وتكبر.. صاروا يضربونه بكل شيء، وبتواصل. عزموا ان لا يدعوه يرجع مكانه سالماً، وبذلك لم يعد أحدٌ يراه يصل إلى محلتنا.

بعدها شوهدت "حسنة" تعتني بملابسها، وتتعمّد إظهار مفاتنها. راحت ترتدي ملابسَ مزخرفة، بألوان جاذبة، وبعد ذلك الحادث بأسبوع واحد ذهبت حسنة إلى مالك البيت، واشترت منه البيت

/

نقداً، يومها أشهدت عليه جارها "بطرس" ورجلاً آخر. قبل أن يتم البيع، والتسجيل في دائرة العقارات. لم يكن البيت واسعاً مكوّناً من غرفتين جنبهما مرافق صحية دون باب، وضعت عليها قطعة قماش.. لتستر من يقضي حاجته فيها. وما أن اشترت "حسنة" البيت طلبت من احد البنائين في الحارة ان يضيف لها حماما وان يضع بابا لمرافقها الصحية، وبعدها أجرت تغييرات واضحة في مقدمة البيت، وأضافت له غرفتين، وصار بيتها لا يقل جماله عن أي بيت في المحلة. تغيرت مشاعر الناس تجاهها بعد الذي حدث، وما سمعوه من أخبار. فصاروا يتوّخون الحذر من الأم، وبناتها خصوصاً بعد أن قضى عندها الرجل الغريب بضعة أيام.

***** ***** *****

ثمة قصص كانت تجري بخفاء، خلف القصص التي كنا نسمعها.. احياناً تتطابق هنا او هناك ببعض التفاصيل، وربما تتعارض، ولكنها تسير وكانها الحقيقة الكاملة..

***** ***** *****

قصة الغجري الذي جاء الى بيتها وقضي فيه خمسة ايام، أنكرتها باصرار، انه لم يدخل اي رجل غريب الى بيتها، انكرت ذلك امام الجيران خصوصا الذين التفتوا الى بقائه في بيتها، الذين شاهدوه يدخل، ولم يخرج الا بعد خمسة ايام. وبقيت تعاتب كل من يسألها، "مريضة خمسة ايام ولم يزرها احد".. اما بناتها فقد غيرن معها مجرى القصة، أخذن ينكرن الغجري، وايامه الخمسة، وكل حديث عنه. سوى "امهم كانت مريضة".. صار ما تحكيه "حسنة"، وتفرضه كما أرادت

ان تفرضه كحقيقة.. وتتهم أولاد "ميخائيل"، و"بطرس" بتلفيق تلك القصة المُغرضة.

بقيت تلك القصة معلقة لأيام، او أسابيع، وربما بضعة أشهر حتى جاء اليوم الذي كشف فيه "سلام برهم" ما غمض من القصة. فالرجل كان من أشهر رواد مخيمات الغجر التي كانت تخيّم على إحدى مشارف المدينة.

***** ***** *****

كان "الحاج محمود" عائدا من المقهى تبعه ولد لا يتجاوز عمره خمس عشرة سنة، وقبل ان يدخل الرجل بيته، اخرج مسدسا من بين طيّات ملابسه عندما صار قريبا جدا. أطلق عليه النار، وتناثر دماغ "الحاج محمود"..

مات الرجل الذي كان يقارب السبعين، والذي كان يتكيء على عصا في مشيته، ولم يكن له أولاد. وقد كان يعيش وحيداً مع زوجته. بعد ذلك لم تستطع المرأة العيش وحيدة في بيتها. اضطرت الى بيع البيت لتسكن مع اهلها. فاشترته منها "حسنة"، لأنه كان خلف بيتها، وقامت بهدم الجدار الفاصل بين البيتين، وصارا بيتاً واحدا له بابان مشرعان على شارعين مختلفين.. ليكون بإمكان الداخل، ألا يخرج من الباب التي دخلها، ولا من الشارع الذي جاء منه..

***** ***** *****

يبدو لي بأني أحدثت مشكلة كبيرة، دون تعمّد، وبكل براءة. تلك التي تصير حولها لغط كبير، وصل بجدله وتبعاته الى ادارة المدرسة، ومن ثم الى اهل الطلبة، واهلي..

بقيتُ خائفاً منكمشاً ومحتاراً، لا ادري كيف اواجه عواقب الامر مع ابي عندما يخبره احد بكل ما جرى.

صار حديث الجميع، كل واحد من الذين حولي يسألني عما رأيت، وكان الامر محرجا لي. لم استطع ان احكي عنه بوضوح الى كلّ من كان يريد صورة واضحة عما حدث. خاصة الأولاد كانوا يريدون تفاصيل لم اكن قد رأيتها.

الذي حدث اني كنت لحظتها، قد استأذنت معلمي "مهدي القصير" بالخروج من الدرس، للذهاب الى الحمام، بسبب وعكةُ اسهال، تطلبت مني تكرار الذهاب الى الحمام والعودة منه الى غرفة الدرس، عدة مرات، وفي اخر مرة اثناء دخولي الى الحمام، سمعت بكاء واستعطاف "نصر" الذي كان يبكي من شدة الالم الذي يحدثهُ له "هيثم حسنة" في الحمام، لم افهم ماذا يحدث وراء الباب المقفلة، فدفعني فضولي، لمعرفة ما يجري، فاستطعتُ ان اضع قدمي فوق الباب، واصعد الحائط الفاصل بين الحمام والاخر، ليتسنى لي رؤية ما يحدث، اذ شاهدت "هيثم": (الذي سمي بالوسخ بعد ذلك الحادث)، يحاول تنزيل سروال "نصر" بالقوة، بعد ان كان سرواله مفتوحاً، وكان الصغير يبكي ألماً، ويحاول الثاني ان يضع يده على فمه ليسكته قائلاً، "اصبر قليلاً، ها قد انتهيت"..

بعد ذلك لم أتمكن لحظتها من تفسير ما يحدث؟، اذ صارت عيني في عين "هيثم الوسخ"، وحدثت بي رعدة خوف، لم افهمها، فافلت قدمي، وسقطت على الارض، وانطلقت اركض عائداً الى غرفة الدرس، وانا اتلفت رعباً، اذ تبين لي بان "هيثم الوسخ" ركض خلفي، محاولاً اللحاق بي ولم يستطع.

فدخلت مضطرباً وبي ارتجاف شديد، خوفاً منه ان يفعلها معي لو امسكني، كنتُ اراه وحشاً كبيراً. فوجدتني اقول بصوت عال للمعلم كل ما حدث، وامام التلاميذ. بعدها ركض المعلم الى الحمام، ووجد "نصر" على حالته مثلما رأيت، بينما قد فرّ "هيثم الوسخ" الى خارج المدرسة، متسلقاً سورها. وقد سأل الصغير عما جرى، فتطابقت أقواله مع اقوالي، فاستنفرت المدرسة وصار كل الأولاد يعرفون بما جرى بين "نصر"، والملقب بالوسخ.

وصارت سيرة "هيثم" على كل لسان، والمنقول الى مدرستنا حديثاً من مدرسة بعيدة، بعد انتقاله للسكن مع امه واخوته في بيت خالته "حسنة الخبازة". وكان الاولاد يقولون عنه:

- "كنا ننظر اليه وكانه فاقد لملامح الطفولة، وجه فيه شارب حليق، وحاجبان محددان، وغالبا ما تفوح منه رائحة تبغ كريهة، كنا نشمها فيه عندما يحشر نفسه بين التلاميذ اثناء الشراء بالفرصة من حانوت المدرسة"..

ولم يسكت المعلم عن الأمر، فاشتكى لإدارة المدرسة، واتخذت به أمرّاً حازماً بفصله، وجعله عبرة لغيره. يومها عدت الى البيت منكمشاً خائفاً لا اقوى على ان اجيب بكلمة واحدة، مرعوباً مترقباً بان "هيثم الوسخ" سوف يتعبني ويوقع بي "عاجلا ام آجلا".

***** ***** *****

ثمة فاصلة بين العمل الروائي والعمل التاريخي فاصلة تحددها المخيالية السردية الروائية، بحكم كونها كتابة مفتوحة تقبل التأويلات المتعددة، وليست تدويناً لتقريرٍ شفيف، بتأويل واحد.

/

***** ***** *****

عندما أحس "أبي" بأضطرابي، وخوفي من الذهاب الى المدرسة، أزداد من خوفه عليّ، وشدّدَ متوعداً، كأنه يعرف ما عليه فعله، واخذني معه الى بيت "حسنة"، وطرق الباب بعنف شديد، ولم يجبه احد، كأنهم كانوا يعرفون ما سيحصل، لو فتحوا له الباب، ولكنه بقي متوعداً بصوته الجهور:

- " اذ اقترب أحداً منكم من ابني لاي سبب كان سأحرق بيتكم بما فيه"..

واردف: "- لا تخف من احد ابداً.. سوف انال منهُ ومن الذي يشفع له"..

كان عمي يردد خلفه:

- "أمثالهم مثل الماعز"

ثم وجّهَ كلامه لي:

- "إن حاول اي واحد منهم أن يقترب لاي سبب كان.. تخبرني بدون تأخير.. كي أعرف التصرف اللائق بهم"..

يومها أدركت بأنه موضوع خطير، وعلي الابتعاد عن الطلبة الأكبر مني، ومهما كانت حُسن النية، فبقي "نصر" الصغير ممتناً لي، وبالرغم من انه بقي كسير النظرة. ومن يومها لم ارى "هيثم الوسخ" في طريق او اي مكان آخر..

***** ***** *****

جاءت ام "نصر" الى "امي" لتسألها عن حقيقة الامر، وصحة ما شاهدتُ. فالطفل ابنها لم يقل شيئاً من خوفه، لان "هيثم الوسخ" هدده، فوصفت لها حالي، وخوفي. وكيف تصرف "ابي"، على عكس تصرف ابي "نصر" الذي ضرب ابنه، محاولاً انتزاع الاعتراف منه.

وايضاً كمن لـ"هيثم الوسخ"، حتى امسك به، وكتفهُ، ثم ادخله في غرفة بيتنا، منفرداً به. وبقي يضرب به حتى كسر له انفه، كما سحق له اصبع يده اليمنى، لنزع الاعتراف قبل ان ينفذ فيه عقوبته التي يرتضيها فيه، فادخل قسراً في أسْتِ "هيثم الوسخ" مقبض عصاً غليظة، سببت له تمزقاً ونزيفاً حاداً، واخرجه من البيت امام الناس، ذليل مدمى المؤخرة، دون سروال، وذهب الى مخفر الشرطة، واراهم ما فعله به، بكل قناعة.

تعاطف كل رجال المحلة، وبضمنهم ضابط المخفر، مع الأب الذي استطاع ان يرد الاعتبار لشرف ابنه، وعائلته بكل اقتدار. ولم يتخذ اي اجراء، وبقي مؤكداً بان مجمل العقوبة التي تلقاها "هيثم الوسخ"، كانت كافية، وتعهد لـ"ابي نصر" بانه سوف لن يقر بأية شكوى من الطرف الاخر، وسيتحمل المسؤولية...

ولم يصل الى مخفر الشرطة، اي رجل من بيت "حسنة الخبازة"، بل هربوه في نفس الليلة الى مكان مجهول، خوفاً من عواقب الامور، ولم يعد بعد الحادث الى المحلة على الإطلاق.

***** ***** *****

دائماً تحدثني عن جدي كثيرا، وتفتخر بأنه كان يجيد الانكليزية قراءة وكتابة، وان "ابي" تعلم منه حساب وكتابة الارقام، وبعض الكلمات الرئيسة، لذلك كان يساعد في ادارة السينما، دون دخول إلى

أية مدرسة، كانت تؤكد على ذلك فجعلتني أرى مجموعة كبيرة من الأوراق، والوثائق، وصورة يتيمة له يرتدي فيها لباساً حكومياً مع أربعة رجال آخرين بدا فيها بينهم في كامل وجاهته. رؤوسهم معتمرة عقالاً عربياً مع اللباس العسكري، كحال اقرانه بسراويلهم الصيفية القصيرة، الانيقة..

- "ترك عمله كموظف حكومي، وتفرغ منذ يوم بناء السينما مشرفاً على عمل عمال بناء بناية السينما والتي اكتمل بناؤها بعد تسعة اشهر متواصلة، وبقي فيها حارساً ليلياً، ومساعداً لأولاد "ناجي يعقوب" في ادارتها، وعندما مرض "ناجي يعقوب" ترك العمل تدريجيا وبقي بصحبة صاحبه في البيت حتى تسلم ابنه "ابراهيم" بديلاً عنه.

في كل مرة تروي ما كانت تريدني ان اعرفه عن جدي:

- "نشأ يتيم الاب والام، وبقي جدك يعيش كفرد بين اولاد "يعقوب"..

كان والده تاجر قماش بالأصل من مدينة "الفلوجة"، وله قرابه لامه في "بعقوبة"، وبعدها تزوج من عمتي "سليمة" بنت "عفان بيك".. التي ماتت عقب ولادته.. كان احد اشهر تجار القماش في "بعقوبة"، لانه بعقله الراجح، منحه الاتراك لقب البيك، وسبق له عقد عدة مقاولات كبيرة مع "ولاة" و"اغوات"، و"بشوات"، ولم يدم به الحال حتى جاء اليوم الذي قتل فيه في ظروف غامضة، وهو لم يكمل الخامسة والثلاثين من عمره بعد ان سلب منه كل ما كان عائداً له من مال. مؤمناً ابنه الوحيد "علوان".. منذ ان كان في سن الثانية عشر.

تولوا أمره، وبقي في رعاية بيت والد "يعقوب"، لانهم جيرة وصحبة عمر، تكفلوا برعايته. وعاملوه كواحد منهم.

***** ***** *****

رغبتُ أن اتعلم الصلاة، برغبتي، وأن أصلي مثلما تصلي "أمي" و"جدتي"، وبدون ضغط من أحد.

ثم بدأتُ خلفها أول تجربتي، ورحت استعيد الحركات في التمام والكمال، مثلما تفعل، وان احقق صلة بيني وبين الله العظيم الذي يغطي بسمائه كل هذا الكون العظيم. فأخذت تعلمني الصلاة حركة بحركة. وكنت معها احاول ان ادخل غمار وضع الرهبة، مع اغماض العين، محاولا التشديد على مخارج الحروف، وقراءة الآيات القرآنية بتأن، متخذاً وضع السجود، وملامسة الارض بكل ما اوتيت من خشوع.

كنت متحمساً، ومتيقظاً، راغباً لمعرفة ما سوف يحدث لي، كأني اريد ان التمس تغير الاشياء من حولي.. عند تحقق صلاتي، وانتقل بعقلي الى عالم آخر، اغيب فيه عن عالمي الحالي الذي انا فيه، واحلّ في مكان اخر، فلم يكن هناك شيء يتغير، كأني اعيد الاشياء الى نصابها، ولم التمس جديداً من كل هذا الاندماج، الذي اريده ان يحدث. كنت اتخيل الملائكة سوف تأتي، تحيط بي، وتنقل سجداتي الخشوعة الى الله، فلابد ان يخشع قلبي أولاً، لأجل ان احل طائفاً بين يد الله العظيمة، مباشرة.

ضغطت على نفسي بقوة، ولم افلح. كنت احاول ان اكون اكثر صدقاً مع نفسي، وأن ألفظ الآيات القرآنية، بمخارج حروف صحيحة.. انطقها ببلاغة شفاه ثابتة. ولم يحصل تغيّر بذلك، قلت ذلك لجدتي، فقالت "اعد صلاتك من جديد وستجد نفسك بين يد الله عز وجل"،

حاولت مرة اخرى من جديد، وهي تراقبني، فخجلت من ان يكون ذلك هو السبب بعدم حدوث الشي الذي اريده، فأخذت ذلك الكلام محمل الجد، فذهبت الى فسحة كانت قرب الشجرة، واعدت الوضوء، وفرشت السجادة باتجاه القبلة، ولما نزلت راكعا الى الارض، احسست بان شيئاً عجيبا بدأ يحدث، ولما حاولت النظر الى تلك اليد التي تربت على راسي، وجدت الكلب يلحس فروة راسي، فابتعدت عنه لأجرب من جديد، ولم انجح في اية محاولة من محاولاتي.. بالرغم من اني حاولت تغيير المكان، والتشديد على تفريغ الذهن من كل شيء، والتوحد مع كل كلمة الفظها. لكني لم انجح، اذ صار ينتابني الضحك كلما صارت عيني في عين الكلب، وانا اجرب تحت الشجرة..

***** ***** *****

بقيت العلاقة متوترة بين الجيران، بسبب تلك الفعلة، وصارت الناس تتحفظ على اولادها الصغار، من لعبهم مع الاولاد الكبار، وبقيت العاب الاولاد، كل منهم حسب اعمارهم.. كما بقيت الصغار تتجنب المرور بالقرب من بيت حسنة الخبازة، وكأن اهله صاروا منبوذين، من الصغار، والكبار. كما بقيت انا في كل مرة انظر الى جهة بيتهم، اتذكر تلك النظرة التي كانت تلاحقني، وكأنها ستخرج عليّ في يوم ما، ولكني لم اعدّ خائفاً من ذلك، بل كنت حذراً.. لا اشارك حتى بأية غمزة تتعلق باي موضع جنسي، وكأني كنتُ ابتعد عنه، واحاول ان اطمسه، لأنه موضع يثير المشاكل العويصة التي تصل مباشرة الى الاهل، وتحدث من بعدها، صياحاً وهرجاً وانا قد كرهت الموضوع، حسب توصية معلمنا "مهدي القصير"، وهو من اوصاني بعدم النقاش، او اعادة الكلام في هذه السيرة..

..... "وان نبعدها عن تفكيرنا، كونها سيرة قد تؤدي بنا الى المزيد من المشاكل التي قد تكلف الكبار ارواحهم، لأنها مشاكل عويصة في مجتمعنا، ثم قال هذا لا يعني السكوت عن هكذا موضوع عندما نجد احداً يتعرض له، فالذي فعله "محمد ابراهيم" بعدم سكوته عن الموضوع، واخبرنا بما حدث ل"نصر" وانقاذه من الاستغلال الجسدي هو بطولة، بحدّ ذاتها، وعلينا ان نصفق له، لأنه لم يقبل الشيء الذي كان يحدث في السر، وينبغي على كل واحد ان يحافظ على نفسه، من بعض الاولاد الكبار، الذين تسول لهم انفسهم عمل مثل تلك الفاحشة، وان نرفض لان الرفض عمل اخلاقي، والمدرسة تعلمنا الاخلاق، وترفض ان تجري فيها هكذا امور، وتعد جريمة كبيرة بحق سمعة المدرسة والناس، وانا اقول بان الموضوع قد انتهى بأحسن وجه، وقد نال المجرم جزاءه، وحقق الاب "بطرس" لابنه الصغير رد الاعتبار الصحيح، وكلنا وقفنا معه، بالرغم من انه كاد يقتل الفاعل، ولكانت جريمة تتركب على جريمة، ولكان الاب في السجن، لحدثت كارثة، سببها كله عدم المعرفة.. انصحكم اولادي، بان ننهض ونصفق للبطل "محمد ابراهيم"، ونعاهده بان لا نفتح لا معه، ولا مع "نصر بطرس" الموضوع، ونعتبره مغلقاً الى الابد، ومن العيب ان نسألهما، ونجعل من هذا الموضوع عبرة، ولكننا لا نعود اليه، ابداً. وسوف يعاقب كل من يحاول التكلم في المدرسة او خارجها عن هذا الموضوع"..

بقيت صاغياً لما كان يقوله، واشعر بدوام الفخر..

*****   *****   *****

جدتي دائماً تقول بان جدك "علوان" كان يوصي اباك بان لا يمنع احداً من اخوته من اللعب قرب الشجرة، لأنه هذه الشجرة الوارفة، دائماً مرتعاً للعصافير.

***** ***** *****

صرتُ في المدرسة الشخص البارز، وصرت اتحسس من النظرات التي تخالطها الاعجاب.

مدير المدرسة وسم الحادث بالبطولة، في ساحة رفع العلم في صباح يوم "السبت".

بعد تلك الحادثة، انزويت، منكمشماً لا اتحدث بالموضوع، ولا اجيب عن سؤال اي زميل يودّ معرفة بدقة عن ما جرى. "العيب، العيب، ثم العيب"، فلم اكن اتحدث مع احد بذلك، حتى مع صديقي "فالح"، الذي كان والده طبيب اسنان، والذي يجاورني في الفرص بين الدروس، واتشارك معه بعض ما نجلبه من طعام قليل من البيت او ما نشتريه من الحانوت، وفيما بعد اخبرني بانه سبق له التعرض الى موقف شبيه، مع "هيثم" وكان ناوياً ان يخبر اباه، الا ان الدرس البليغ الذي تلقاه من تجربته مع "نصر" جعله مزهوا بالنتيجة.

صرت عندما اريد الكلام اتعمد التكلم عن "هيرودث"، فانا صرت احفظ الاسم جيداً، واعرف عنه معلومات سمعتها بشغف وكنت احفظها عن ظهر قلب، ولكني صرتُ اتعمد ان اتكلم عنه بطريقتي، وخاصة عندما اجد اذناً صاغية من صديقي "فالح"، ثمة فراغات في الدروس، يصبح كل متجاورين في رحلة واحدة، متواصلَيْنِ في الكلام العابر واللعب العابر، والحزورات، حتى يأتي معلم يسد الفراغ بدرس مفيد..

/

***** ***** *****

سمعت "ابي"، وكأنه يتحدث مع نفسه:

"- أصحاب حضارة، اية حضارة، حضارة الكيس المثقوب، كلما تقدمنا الى امام خاننا الكيس، ولم يخنا أحد، ولم نخن الا أنفسنا، ولم يسبق أننا اخترعنا كل هذه الاختراعات الهائلة، العظيمة، حسبما ندعي الا اذا كانت قد سقطت سهواً، ومعها أشياء أخرى، اولها مصارحة النفس.. ولم يبق منها سوى قاع الكيس الفارغ... حتى أخلاقنا العظيمة بات العالم اجمع لا يحسدنا عليها احد"..

فلما احس بيّ اني كنت منتبهاً اليه، ضحك بقوة، وادار وجهه، ولم يكمل.

بقيت استعيد ما كان يزدحم في فكره، فاردت القول الكتابة المثيرة التي تكون فيها كاشفاً ومقترباً من المحظورات دون الاساءة الى أحد، او تاريخ فئوي، فتكشف اسباب خيبتنا العقلية السقيمة، وقد تصل بها عند مفترق الطرق مع الناشر.

مَكابْيوسْ

١٩٧٣-١٩٧٨ م

أكتب بنا ابداً بعد الكتاب به فإنما نحنّ للأسياف كالخدم

٦

حتى في يوم استلام نتيجة الامتحان، لم يسمح "أبي" بان اذهب إلى المدرسة دون رفقة أحد من أشقائه، وسبق أن اشترى لهما بسبب هذا المشوار دراجة هوائية يتناوبان عليها في إيصالي إلى المدرسة، والعودة منها. بالرغم من أنها كانت لا تبعد عن "دربونتنا" سوى أربع أو خمس درابين [١٨].

هذا ما درجت عليه حياتي ان أكون متابعاً في كل شيء، ولا اخرج من دائرة متابعة "ابي" لي في كل شيء، كنت ارى توسعاً في المدينة، وتثيرني البنايات للبيوت الجديدة، فاحلم بواحد ان يكون لنا. كانت في المدينة درابين عدة لم اصلها حتى بنظري. خريطةُ المدينة تمتدّ على مد البصر، تتشكل فيها تضاريس اتمنى ان اتحسسها. امكنة قديمة ولكنها جديدة علي. كنتُ احفظ الطرق اليها، واجولها في الخيال.

كان ذلك الشأن يكلفني كثيرا من تبصري في الأشياء، وحدّ من تجربتي في الحياة. وقد جعلني لا أقوى ان اذهب لوحدي إلى أي مكان حتى ولو كان قريباً.. بقيتُ ابحثُ عن منفذ يفلتني من هذه الضائقة، حيث لا يمكنني ان أصاحب أي زميل لي إلى أي مكان، بحجة خوف والديّ عليّ. حتى وجدتُ الفكرة الأمينة، وهي أن أتشبث بحاجتي

[١٨] *مفردها دربونة ومجموعها درابين. وهي من درب بين البيوت، وتعني زقاق، أو شارع فرعي..

/

الدائمة للذهاب إلى المكتبة العامة من بعد ان نصحنا معلمونا في المدرسة في معاودة القراءة في العطلة الصيفية؛ ولا بد ان نكون قد قرأنا بعض الكتب الخارجية قبل دخولنا العام الدراسي في المرحلة المتوسطة، وكانت تلك الحاجة قد ولدت عندي أول الأمر بعض التحرر، والعزم للدخول الى عالم جديد طالما كنت احلم به، بان ألامسه بقربٍ. إذ كانت مكتبة "يهوده" في السابق أشبه بحلم رايته، وكنت على يقين باني لم ادخل إلى تفاصيله الحقيقية، وهذه "المكتبة العامة" ستوصلني الى بعض تلك التفاصيل، والتي صارت من الماضي المندثر..

كنت انظر إلى خزانة الكتب المليئة بالكتب المتراصّة، فأشاهد فرسان العصور الوسطى، وأبطال العزّ التاريخي تتقاطر من أمامي، بخيولها البيض والسود، محملة بالصولجانات الفولاذية، وسيوفهم اللامعة ذوات النصال الحادة، وهم يتبارزون خلف صفوف الكتب، وأكاد من شغفي اسمع حتى قعقعة دروعهم الرهيبة.

بعد أن تعلمتُ نظام الاستعارة الخارجية، صرت كل يوم، أو أكثر انتهي من قراءة كتاب، ثم أعود إلى كتاب غيره، أما الكتب الغالية التي كانت لا تخرج إلى الاستعارة الخارجية، فهي التي علمتني كيفية قراءتها والاستمتاع بها في داخل قاعة القراءة، وكان ذلك يسبب مللا لمن يرافقني، ويضطر إلى أن يخرج ويتركني بعد أن تأكده باني لا أتأخر في درب العودة.

كان في البيت فرح خالص بأنني أخذت القراءة وتركت صعود الشجرة، وأنزلت منها الآلة الكاتبة، ووضعتها إلى جانبي في مكان اجلس فيه تحتها، وأصبح كل من حولي يتركني لحالي اجلس على كرسي في ظلها، بقرب الكلب الذي تعود "أبي" ان يربطه بسلسلة

/

حديدية الى الشجرة في النهار، ويطلقه أثناء الليل في البيت المهجور. ليبعد عنه التقاء الآثمين، وما شابههم. أحيانا وأنا اغرق في تفاصيل أي كتاب كان يلامسني، ثم يأخذ بي بعيداً إلى مدن كبيرة، وقلاع حصينة، عوالم بكل ألوان الطيف الشمسي. وعندما أعود من رحلتي ابدا بحكي بعض محتواه إلى الكلب الذي تعود على الإصغاء اليّ بمحبة..

يومها كانت كتب لا تتجاوز الحكايات الملونة، ولم أكن قد بدأت بقصص التاريخ التي كنت أراها اقرب لي من كل شيء لأنها كانت قصصا استطيع أن احكيها لمن حولي فاستطيع أن الفت انتباههم..

كنت في ذلك اليوم أودع فيه المدرسة الابتدائية، وبعدهُ ستبتدئ العطلة الصيفية، ثم ألتحق بالمرحلة المتوسطة، فقد كانت نتيجتي الامتحانية متفوقة بعض الشيء. تراصفنا واحداً خلف الاخر، ورحنا نسلم بالمصافحة كرجال على معلمينا الذين كانوا حاضرين يودعوننا بفرح، وعيون مليئة بالودّ.. حتى المعاون، والمدير، و"الفراش".. ثم خرجنا نحمل "كارتات". فوجدت "عمي" الأصغر الذي يكبرني بخمس عشرة سنة.. ينتظرني قرب باب المدرسة، يومها نظرت إلى الزمان والمكان كله، وكأني سأفارقه بكل إشراقاته وعتماته.

لم يطلْ ذلك المشوار كله أكثر من نصف ساعة، والعودة إلى البيت حيث ينتظرنا الأهل في لهفة لمعرفة نتيجة الامتحان. تجولت سريعاً حول بناية المدرسة، وبقيت أودع الحيطان، والساحة، أودع الصفوف صفّاً صفّاً، كان اغلب أقراني يفعلون ذلك، فافعل مثلهم. جلنا في الأمكنة كلها التي قضينا فيها سنوات متواصلة بالدراسة الجادة، واللعب العفوي وما لحقهما من عبث طفولي، ونزاعات طفيفة قد ذابت بيومها، ولهوٌ في حكايات عبرت بنا كأبطالٍ مفترضين، ومتوّجين بالنصر.. مادمنا نحمل علامات النجاح بفرح، وناظرين بقلق الى

المكان المجهول في العام الجديد القادم الذي سيحتوينا في ساحة مدرسته كما كنا نقف فيها كل يوم، ننتظر عقوبتنا عن مقترف، نحن اقترفناه أو الحق بنا. فهذه هي ساحة الاصطفاف الصباحي اليومي التي كانت تأتي لنا بمختلف المفاجآت.

***** ***** *****

- "هاكم مأثوركم وأعطوني تاريخي"...

تدوين الاحداث اليومية الا محاولة لتدوين التاريخ القريب، بما يحمل من فرح او حزن. "تدوين قد اتحكم فيه، فيعني اني انتخبت من احداث اليوم قسما نزيراً منها، وليس كلها. وفق مأثور نرسيسي صارم يتحكم بما انتخب من الاحداث، ولن تكون من الدقة. ولن استطيع التدوين بدقة والا لاحتاجت الساعة الواحدة الى صفحات بعدد دقائقها، فكل ساعة تكون ممتلئة بالتفاصيل الدقيقة.. وسوف تحتاج الساعة الواحدة المكتوبة الى عدة ساعات لتقرأ"..

***** ***** *****

صرت أقود الدراجة و"عمي" معي على مقعدها الخلفي. عندما وصلنا البيت، وجدنا جنب بابنا سيارة "دوج" زرقاء قد جاء بها من بغداد "حسقيال"، وقد ترك فيها رجلاً ينتظره، ويقرأ في مجموعة أوراق.. في كل حين ينظر إلى ساعة في معصمه. قبل ان ندخل سلم عليه "عمي" باحترام بالغ، وقال همساً بعد أن ابتعدنا عنه قليلا بأنه المحامي "حسن قلق". ثم ركن دراجته داخل البيت قلت له لماذا "قلق"؟ فقال "لأنه في كل دقيقة ينظر الى ساعته". وتصاعدت ضحكتنا بعدها صار أمامي "ابي" يسألني عن نتيجة الامتحان:

- "سبع لو ضبع"؟

فسبقني عمي دون تردد:

- "ما شاء الله سبع"..

أردت ان ادخل إلى غرفة "أمي" وابشرها بنجاحي..

- "تعال سلم على عمك حسقيال"..

كان الرجل يغسل يديه بعد خروجه من دورة المياه، قائلا:

- "قل له أنا لست سبعا ولا ضبعاً.. انا البطل الذي يغلبهما"..

ثم جلجلت ضحكة "ابي"، بينما انحنى "حسقيال" إلي ليقبلني ويحضنني برفق قائلاً:

- "حتماً تستحق مني هدية"..

فتح "حسقيال" ورقة درجات الامتحان، وقراها بتمعن:

- "ما شاء الله ذكي"

فقال بعده "ابي":

- "واخرى هدية مني غير التي وعدتك امك بها"..

بقيت مبتهجاً، ومراعياً لابتسامة لا تفارقني.. بدأت أمي وعمتي وجدتي يفرشن المنضدة بصحون الطعام. اثارني بأن "حسقيال".. قد وضع غترة على رأسه، كان أيامها يلبس السدارة وكان في عدة صور يظهر ومع اخيه "يهوده" بصحبة "ابي" انه يلبس بدلة انيقة من سترة

/

وبنطال مكوي في غاية الدقة أردت السؤال.. كأن الرجل أحس بأسئلتي وأراد ان يوضح بابتسامة عريضة عذبة..

لم استطع الصبر فذهبت الى الصور التي تحتفظ بها "امي" في دولاب ملابسها. وأخرجت الألبوم ورحت أتصفح الصور.. وجدت في الالبوم عدة صور لمختلف مراحل طفولتي واغلبها اظهر فيها مقرباً وجهه يقبلني "يهوده" او يحملني ومعه "ابي" يرسم ضحكة عريضة..

كان ابي يفضل ان لا يضع أي شيء على رأسه، وبذلك يختلف عن بقية عمومتي الذين اغلبهم يضعون تلك الغترة، ولفها لتدل على أنهم من "الولاية". اما "حسقيال"، و"يهوده"، وبقية بعض الناس الذين يسمونهم بالافندية، فهم يحرصون عليها، ويكملون بها أناقتهم.

كنت احرص على ملاحظة ذلك، عند خروجنا من السينما، فغالب الناس كانت ترتدي الغترة، والسدارة تلبسها الطبقة المتعلمة الموظفة في الدولة. حتى الصور الفوتوغرافية التي عندنا. اكاد لا أرى فيها لأي من اصدقاء "ابي"، بغير غطاء للرأس. ولم أحفظ لهما صورة بلا سدارة، في ذاكرتي وكأني لا يمكن ان أتخيل أحدهم دونها.. لأني عندما أسال عنها تقول "امي" بانها تكملة للبدلة الرجالية "وعندما تكبر ستلبس مثلها".. بقيت أتأرجح محاولا سؤاله عن السدارة، ولم تأت الفرصة..

- صرت اعرف الكتابة على تلك الآلة.. مرني ان كنت تحتاج مني ان اكتب لك شيئاً؟

بقيت الضحكة متسعة بيننا...

***** ***** *****

/

بعد الطعام تشاور "حسقيال" تارة منفرداً مع "ابي" في بداية الأمر، وتارة مع المحامي الذي أصرَّ على العودة بعد أن تناول الغذاء، إلى الجلوس في السيارة، ويراجع بعض الأوراق التي يتطلبها عمله..

دار الموضوع همسّاً شديداً بينهما، تضمّن خصوصية شيء هام، لم افهم منه شيء.. تطرّقا إلى اسم "يهوده" أكثر من مرة، ولأول مرة "المرحومة زوجة يهوده وابنهما".

كان أبي في أسوأ حالاته، كنت أراه يدخن السيجارة تلو الأخرى، ويسحقها بقدمه على الأرض. وكان توتراً خفياً شاخصاً بينهما، ويبدو بان "حسقيال" يحاول أن يقنعه بما لا يقدر عليه.. وكان يدرك بان "يهوده" الوحيد القادر على أقناعه في أي أمرٍ يريد..

- "لا أريد منه أية مكافأة على واجب"!.

***** ***** *****

كانت يد "حسقيال" ناعمة وطيبة، ولم تفارق يدي، ومعنا "أبي" يتقدمنا نتخطى بحميمية باتجاه الشارع العام الذي يقع عليه الباب الرئيس للبيت الذي صار مهجوراً، ولا يسكنه احد. إذ كان لا يبعد سوى مسافة عشرين متراً تفصل ما بين بيتنا وبيتهم، ولم أكن اعرف ما يدور بذهنيهما، طلب مني "أبي" أن أكون بصحبتهما.. كنت أظن انه سيحتاجني لأمرٍّ، أو لآخر..

أما "حسقيال" فقد بقيَ يصر على دخول بيتهم من بابه الرئيس. كان العنكبوت قد ترك على زواياه خطوطه المتينة، المتسخة علاماته الأولى على الباب، بقي الرجل يتابع بدقة البيت من الخارج. فاخرج مفتاحه من جيبه، وادخله في مكانه وأداره دورتين إلى اليمين، ففتح

/

الباب. واحدث صريراً كأنه عويل امرأة مفجوع.. فتراجع الرجل خطوتين، وتمْتَمَّ بضعة كلمات لم نفهمها، ثم عادت يداه إلى احتضان يدي، وتقدمنا الثلاثة نحو عمق الدار، وصار أمامنا تل الأوساخ، والحيطان الجرداء، ألوانها كابية، وأبواب الغرف مفتوحة على الآخر. وكلها تعطّ بروائح البراز، والعفونة.. بقيت الغرف فارغة، معتمة، مليئة بالأتربة والأوساخ، وبقايا أوراق ممزقة عليها آثر براز، كنت أرى وجه "أبي" منقبضاً، وقد تعكّر، بينما كان "حسقيال" يشد على يدي بحنان ويده لا تود مفارقة يدي، فثمة انكسار عظيم يدور كروح شريرة قد قلبت الموازين، وعصفت بالمكان وحولته إلى عصفّ مأكول، بعد ان ابتلعت كل حيواته، وبقي الصديد مخزوناً تحت الجلد، فالوباء هَجَمَ، وراح يزيد بصخبه.

تفرد الانسان ككائن وحيد بين كائنات الأرض يعرف التدمير بأبشع صوره، وهياجه أعظم من أية كارثة طبيعية..

كنتُ أتطلع إلى شمالي ويميني، وتأتيني شحنات ارتجاف لا اعرف مصدرها.. ان كانت نتيجة خوف؟. ام مثل "ابي" نتيجة فشل؟.. فهو لم يستطع ان يحمّي لهم البيت. كنت انقل النظرة مرة الى "ابي"، وأخرى الي "حسقيال".. ثمة انكسار عميق كان يجمعهما في صمتهما المحتدم بالكلام، والذي حوّط عينيهما، وجعلهما لا يلتقيان. كي لا يتحدثان أمامي بما لا يريدان ان اعرفه..

تمتمَّ "حسقيال" بصوت مُحتقنٍ:

- "أمرٌّ مقدر من الله"..

/

أحسست بان ارتجافي قد اشتدّ أكثر، فقربني الرجل منه أكثر، وتوجه بنا إلى غرفة الكتب.. مبتسماً كأنه قد كشف لي بان ذات يوم قد دخلتها مع "فؤاد"..

لكني كنت متأكدا بأنه احد الأسرار التي لم تعرف بها "العمة امينة" ومن المستحيل ان تكون قد باحت بها لأحد من أهلي، والا لحدث يوما ما حدث. أطرقت راسي الى الأرض، وبقيت ابتسم.. فواصل "حسقيال" القول:

- "لاحظ يا بني حتى القطة سنونة لم تغادر بيتها"!..

التفت الى ناحية الدرج، فكانت القطة البيضاء تنزل تتهادى بعد أن نظرت إلينا وعادت إلى السطح..

-"عمتك سناء تزوجت من "صموئيل بن راكاح" استاذ التاريخ زميل "يهوده" في وظيفته.. اما انا فسأبقى في "بغداد" ولن أغادرها الا عندما أسلمها الى الله"..

فقال ابي: - "الله يطول عمرك ونشوف احفادك"..

دفعنا الباب فدخلنا الى غرفة المكتبة الفارغة.. اختار الزاوية الشمال من جهة الغرفة، وراح يُشبر بأصابعه خمسة أو ستة أشبار باتجاه الباب، ومثلها باتجاه الأرض، حتى صار من الأرض خمسة ومن الحائط إلى تلك النقطة.

كنت أجول بعيني الى الرفوف الفارغة، وألتقي بعيني "ابي" فاخفضهما حيث ما كان يعمله "حسقيال"..

كان المكان في عمق احد الرفوف الفارغة.. طرقَ عليه بظهر يده، وكان صوته كمن يَدلّ على ان تجويفا فارغاً خلفه.

كان "ابي" يتابع الرجل في خطواته، وكنت أنا اسرح في خيالى أن يكون وراء هذا المكان المنتخب بابٌ سري تأخذني إلى قصص ألف ليلة وليلة.

اخرج الرجل سكينة مطويّة من جيبه، جلبها معه لهذا الغرض. ثم طعن فيها المكان المحدد، ولم يكن هشاً، فلم يتهشم بسهولة، إلا بعد ضربة او ضربتين قويتين، وطلب منه "أبي" أن يقوم بدله بذلك الأمر إلا أن "حسقيال" رفض وواصل التهشيم، حتى تبينت فتحة بحجم نصف متر مربعة كخزنة لا يمكن الاستدلال إليها.

كان ينظر إلي، ويبتسم كأنه يشرح لي متفاخرا بالمكان السريّ..

بعد ذلك اخرج كيساً من القماش وقد اسمرَّ لونه.. كان فيه قرن "كبش" مبروم على شكل بوق[١٩]، وملفوفٌ بشكل معتنى به للغاية. كذلك

---

١٩ * الشوفار آلة موسيقية نفخية تستخدم في مراسيم السنة الجدية في الأول والثاني من شهر "تشرين الأول". قرنُ كبش.. يحظى بعناية فائقة طوال أشهر السنة للحفاظ على جودة النغمة، يضعون في داخله ريشه مبللة بالزيت، وعادة فان "الحازان" هو من ينفخ في "الشوفار"، وتحتاج النغمة إلى تمرين عال، لكي تضبط النغمة التي تؤدي في المحفل اليهودي.

اخرج كرّاسة الديون ووضعها في جيب سترته.. كذلك خاتم نحاسي سلمهُ إلى "أبي"، ولم يقل له شيئاً كأنهما قد اتفقا عليه من قبل.

كذلك مجموعة من الأختام معها مفتاح باب. كنت أتصور بأنه سيخرج من المخبأ السري ألماساً أو ياقوتاً، ولم يكن شيء من ذلك القبيل...

***** ***** *****

عينٌّ دائرية تسجل.. نصف قطرها المسافة بين كل الاشياء والسرد..

عينٌّ قد تعترف بأنها رصدت شخوصاً حقيقية، كانت وما زالت تعيش بيننا، وما حدث لها لن يدعيّ المؤلف نكرانها، ولن يقدم تبريرا بأنه نسجٌ من الخيال، وتطابق الأحداث فيها مع الواقع محض صدفة لا غير.

عينٌّ تصرّ على أن هذا الواقع خيالٌ استند الى واقعٍ قد حدث، وهذا الواقع المدون كان نسجاً من الخيال، وليس أكثر. سوف لن ينكره احد بأنه بعيد كل البعد عن النبل الإنساني الرفيع، فالإنسان كان عظيما بخلقه، وكان عظيماً بدينه، وكان كبيراً، وله أسماء حسنى أن أحصيتها لا تسدّها، أسماء لها معانيها الأرضية، إنسان مثل الالهه.. والله لا يكون بغير صورة لا يحبها الإنسان. إلا إن الله أكمل واشمل وأعظم، من كل كلمة مهما كانت حلاوة معناها في القاموسي، الأرضي، المتداول

بشرياً. كأنها تقلل من شأنه (معاذ الله)، وتجيره لصالح الإنسان ككائن حاكم مستبد بأمر الله...

***** ***** *****

وبعد ذلك طلب من "أبي" أن يعزلَ جزءاً من الحديقة الأمامية، لمساحة تزيد واجهتها على عشرة أمتار، وبعمق عشرين متراً، وطلب من المحامي أن يأتي في اليوم التالي، ويسجلها في دائرة العقاري باسم "أبي"، وجدته يرفض ذلك الأمر بصورة قاطعة. ولم يقبل بالأمر أبدا.. وان كانت بتوصية "يهوده"، ومن هناك. إلا أن "أبي" قَبل أن تكون هذه القطعة أمانة، وليست ملكاً صرفاً مسجلاً في دائرة العقاري.

***** ***** *****

"لماذا أبدلَ سدّارتهِ بغترّةٍ بعقوبيةٍ، اذ وضعها على رأسه بطريقة من هو غير متعوّدِ عليها. كالمتنكر، لا يريد أن يعرفه احد"؟..

اردتُ السؤال، ولكني شاهدت لأول مرة دموعاً في عيني "أبي".

بقيّ الرجل متوتراً، ونظر بقلق في ساعة معصمه، ثم قبّلَ "أبي" عدة مرات، مودعاً وقائلاً:

- "عنواني وتعرفه فلا تتأخر في طلب أي شيء فالمال مال الله"؟..

ثم انحنّى إلي وقبلني، قائلاً بدون مقدمات، وكأنه كان يريدني أن أحفظ ما قاله:

- ("يهودا ابن متاثياس" لقبه "مكابيوس" ثم صار هذا اسم لجميع الأسرة، ولما أتى الناس المرسلون من قبل "انطيوخس ابيفانيس" إلى "مودين" وأمروا الشعب بأن يقدموا ذبائح وثنية قام "متاثياس" كاهن فرقة "يهوياريب" بقتل اليهودي الأول الذي اقترب إلى المذبح لكي يمتثل لهذا الأمر ثم قتل المرسلون أنفسهم، وهرب إلى الجبال مع بنيه سنة ١٦٨ق.م. وهناك اتحد معه عدد من أهل وطنه المتمسكين بديانته، وهكذا ابتدأ العصيان، ومات "متاثيس" سنة ١٦٦ق.م، فخلفه يهوذا، وبعد أن ظفر بأعدائهم في بيت "حورون"، و"عمواس" ثم أخذ "أورشليم" وطهّر الهيكل ثلاث سنين بعد تدنيسه).

*****   *****   *****

تمّ اقتطاع تلك المساحة من واجهة الحديقة، وعُزلت بسياج من الخشب عن بقية الحديقة. وانشأ بجانب منها مطعمه الصغير، الذي لم يَزد على أربعة أمتار مربعة، شيدت من الخشب المتين. بعدها ترك محله الأول الذي كان قرب المصرف، وبدأ بالعمل فيه حتى صار مطبخاً، ثم أسس في الركن الذي يقابله مثله لعمل الشاي أول مرة، ونشر في مساحتها الباقية مقاعد خشبية ومناضد وهكذا صارت صالة مطعم ومقهى، متميزة.. ثم اشترى لها "مسجل صوت" يعرض فيه أغاني ريفية صباحاً، وعصرا أغاني "أم كلثوم" الطويلة.. وصار للمطعم والمقهى روادها، وكانت على مبعدة منها مطعم "كبة مخائيل" الشهيرة.. شهرة للمكان. وبعد حين بسبب صعوبة إدارتها جلب لها صديقاً له، ليساعده في الشاي وحسابه، استأجرها كمقهى، وبقي المطعم الصغير، لا يفرط فيه فصار يذهب إلى "بغداد".. ليصل بإيجار المقهى كل شهر، ويسلمه إلى "حسقيال".

/

وأصبح المكان يُزار من زبائن مرموقين، ومن أقاصي المدينة.. لأجل أن يستمتعوا بالأغاني ويلعبون الدومينو، والطاولة، ويدخنوا الشيشة العثمانية..

أما الحديقة الخلفية للبيت فقد سيّجت بسور جديد لا يمكن لأحد أن يعبره، حيث بقي الكلب حارساً فيه.

لأول مرة شعرت بالغيرة من "فؤاد" لان "ابي" بقي يعيد ما قاله:

- "لا يُخيف البشر إلا البشر، وأنا لا اخاف البشر".

بإصراري على ركوب الدراجة لوحدي، والذهاب عليها إلى المدرسة، والمكتبة.. تحقق فكاكي من قفص الخوف عليَّ، وخاصة بعد أن استدعيّ "عمي" الأصغر إلى الخدمة العسكرية، ثم لحقه الأكبر، وكان أيضاً متخلفاً عن أدائها لمدة ثلاث سنوات، ملتحقاً مع شقيقه. صار فراغ كبير في بيت جدي، وبدأت فيه استعد لان احضر ككائن فاعل يريد أن يفرض وجوده كبقية أقرانه.

كذلك بعد أن تعود "أبي" أن يذهب يومياً إلى "بغداد"، ويترك مطعمه يدار من قبل "حامد" أبن أخيه "جاسم"، وبضعة عاملين من أبناء أصدقائه الآخرين. إذ جعلهم يديرون شؤون مطعمه على هواهم، ودون شعور بالمسؤولية. حيث تصاعد الإهمال السقيم، وبدأ يخسر معظم زبائنه، حتى أصبح لا يربح أبداً.. حيث القاصي، والداني صار يأكل بالديْن، وصار رأس المال المدفوع يتناقص أمام المصروف.

على عكس المقهى الذي بقيت بجانبه وصار نجمها يتألق؛ إذ تصدر التلفزيون صالتها، وحضرتها مراوح الهواء لتحرك جوّها الراكد. بقي صديقه "مناتي" المستأجر يشرف على عامليه بنفسه، ولا يتركهم إلا لعمل ضرورة.

اما "ابي" فقد استحوذت على اهتمامه مجموعة أصدقاء من هواة سباق الخيل، فصاروا يأتون إليه في اغلب الأوقات، ويأخذونه معهم إلى مضمار رهان سباق الخيل في "بغداد"، ويعودون به آخر

الليل، وصار يصرف مدخراته ببذخ عليهم، حتى صرت لا أكاد أراه مرة كل يومين أو ثلاثة...

صارت "أمي" تتذمر، و"جدتي" بدأت تلاحظ التغيير في مواعيد رجوعه إلى البيت.

***** ***** *****

نقلتني هدية "يهوده" إلى عالم آخر، وفتحت علي آفاقاً لم أكن اعرفها. كبساط طائر، فما أن أضع سماعتهُ الصغيرة في أذني، وأغمض عيني حتى أطير فوق الغيوم، واعبر البحار والمحيطات، ويكون الكوكب الأرضي مطويّاً تحت قدمي، كنت انظر باستمتاع لكل ما حولي، من اوصاف، مطلقا العنان لخيالي، وذاهباً الى البعيد عن أجواء الشدّ العصابية التي أخذت تتوالد بين "أمي" و"عمتي"، من جهة وبين "ابي"، و"أمي" من جهة أخرى..

في النهار أحوله إلى الموجة القصيرة، بدلا من الموجات الطويلة القريبة.. لأجل ان احلّ ضيفاً على إحدى عواصم الضوء الكونية، وأتابع أخبار الكواكب، والتاريخ، والموسيقى، وبقية الأشياء الأخرى التي تخطر على بالي، وقد لا تخطر ابداً، اسمع بشغف، واقرأ بشغف، اغرق في تفاصيل موقدة بالانبهار، تجعلني اخترق جدراناً سقيمة، قد ترك تقاربها حولي ضيقاً لم أكن أطيقه.. وجدت المذياع كهدية عظيمة، لن تنسى، أما هدية "حسقيال"، فكانت مبلغاً من المال، قد خيّرني أن اشتري به ما أشاء، فأخذتني "أمي" الى السوق، واشترت لي به مجموعة من الملابس، وبعض الدفاتر الأنيقة، وحقيبة، وأقلاماً.

بقي ذلك المذياع معي يذكرني بانني أريد أن اعرف شيئاً عن ابن "يهوده"، وأين استقر به المطاف. حتى جاءت مرة فرصة تجرأت

على سؤال "أبي" واروي فضولي، فانتفض متوتراً، وقد امتقع لونه، أثار سؤالي حفيظته، وكأني قد مسست مقدسا لا يدنس. فتحول الموضوع من سؤال مجرد سألته، أودّ الجواب عليه، إلى أسئلة توبيخ متعددة، يتعذر عليّ الإجابة عليها،

- "كيف تتجرأ على مثل هذا السؤال؟"،

- "لا نسمح لك؟"،

- "لا يوجد عند "يهوده" أي ابنٍّ، ولم يكن قد تزوج أصلاً"،

- "لا تسال أسئلة من الخيال مرة اخرى"..

فكأنه فرض عليّ سورا، وعليّ ان لا أعبره أبداً.. مثل ذلك جعلني أتأكد من انها قصة حقيقية، ونكرانه لها، لن يزيدها إلا تأكيداً.

كنت دائما أتذكر الحديث الذي دار بين "حسقيال"، وبين المحامي "حسن قلق"، وبقي اسم "مُكابْيّوسْ[٢٠]"، كجرس يرنّ صداه في ذهني. فأدخلت نفسي إلى تحدي هذه الأفكار المتعارضة، خاصة باني انفقت وقتاً وجهداً كبيرا في قراءة العشرات من القصص البوليسية الممتعة، والتي عاشت معي بكل تفاصيلها.

- "لابد لي من أن استفيد مما تعلمته من الكتب واختبر ذاتي على ارض الواقع".. بعد ان توفرت لي فرصة حقيقية للبحث عن حلقة

---

[٢٠] * ينتهي السفر الثاني بخبر انتصار "يهودا مكابيوس" على "سلوقس نيكانور" سنة ١٦٠ ق. م

مفقودة اسمها "ابن يهوده"، ومن سوء الحظ ان "أبي" هو احد مواطن أسرار الرجل.

وهذا ما جعلني أن ابدأ البحث عنه بكل ما تيسر، خصوصاً "البومات الصور"، التي تحت اليد، أو التي في دولاب ملابس "أمي" أو بقية الألبومات لدى أشقائه، عساني المحه في لقطة ما. وتناولت "الالبوم" الذي يخص والدي ونظرت الى مجموعة من الصور كلها، وخاصة التي تخصّ "ابي"، وأشقاءَهُ، وأصدقاءَهُ، وبعض معارفه، وهي قد التقطت في أماكن وأزمنة مختلفة.. تارة بحثاً عن الابن، وتارة مدققاً في ملامح "يهوده"، وشقيقه "حسقيال"..

صرت أريد أن أحفظ تقاسيمه، فعسى أني استدل إلى الابن "مكابيوس" من معارفي، ومحيطي.

بعد أن يئست مع "أبي" واستحالة أن يُنتزع منه شيء.

كنت أتمنى مع نفسي ان يحدثني عنه بعض الشيء، ولكنه كان في طبعه لا يتحدث معي في اغلب أحواله إلا قليلا، ولا يظهر لي حميميته على الإطلاق. بالرغم من أني أراه مع غيري حميماً ومتجاوباً مع كل الناس بضمنهم أبناء أخوته، إلا معي في غاية الصرامة، والحزم. فكنت أعاني كثيراً، لأني كنت بحاجة إليه، واحتاج إلى مناورته بأي موضوع، وليس بموضوعة "يهوده" وحدها. فعدلت خوفاً من أن أناور معه بأية طريقة.

ليتني استطيع أن اخترع "كذبة" وأضعها أمامه، وتبتدئ سلسلة الحقيقة تنكشف أمامي متسلسلة.. كما في روايات "اجاثا كريستي" وغيرها..

بقيت تلفني حيرتي، وعنادي، حتى فكرت بخطة ان أسال عمتي بطريقة غير مباشرة، ولكنها كشفت غاياتي وقالت مهددة:

-"الم يقل لك أبوك أن لا تقرب هذا الموضوع وان تتركه حتى يحين وقته"..

ولم استطع أن أتحايل على "عمتي" ولم اتمكن من فتح إحدى الحلقات المغلقة، الغامضة التي تحيط بـ"مكابيوس".

***** ***** *****

وجدتُ لي صديقاً منذ أول يوم لدخولي المرحلة المتوسطة اسمهُ "صفاء"، وهو الابن الثالث بعد بنتين لـ"نديم البيروتي" الذي وقعت عليه ملامة إعطاء بيت إلى "حسنة الخبازة"، والتي حولت بيتها إلى ماخور سري، ولم يستطع أن يثبت عليها احد ذلك لان اغلب زبائنها من محلة أخرى، ولم يرّ احد بعينه، فيثبت ذلك.. وقد تعودت بين آونة وأخرى أن تظهر قوة لسانها السليط على أهل بيت "ميخائيل"، وقريبه "بطرس"، فتخرس المحلة بـأجمعها.

كان "صفاء" هو الوحيد الذي تغلب على ابن عمي "فؤاد" الذي تمادى كثيراً في إخافة أولاد المحلة عند لعبهم في المساحة الفارغة التي كانت خلف السينما، ويلعب بها الأولاد كل أنواع ألعابهم، فكل مرة يعمّ موسمٌ لإحدى اللعب، "لكل لعبة موسم بين الأولاد"، حتى يتغير إلى لعبة أخرى. أما "فؤاد" فكان إذا خسر يدخل إلى بناية السينما من الباب الرئيس، ويخرج لهم سريعاً، عاصفاً، مفاجئاً، وغامضاً من الباب الخلفي المواجه للساحة الفارغة، والتي تكون بجانب غرفة مولد الديزل، بعد أن يكون قد لبس لهم إحدى قطع الملابس المتروكة للفرق المسرحية التي كانت تحيي حفلاتها على مسرح السينما، إذ كانت صالة

سينما ومسرح في الوقت نفسه، فالشاشة البيضاء ترفع بسهولة، وخلفها سكة تجري عليها ستارة للمسرح، بواسطة حبال تسحب من طرف فتغلق، وتسحب من الطرف الآخر فتفتح.

كان "صفاء" قد كشف بان "فؤاد" هو "السعلوة" التي تركض وراءهم، وتفسد عليهم اغلب أوقات استمتاعهم بألعابهم، فقرر تلقينه درساً لا ينسى، فبدأ أولا بجمع مجموعة من علب الدهن الفارغة، البلاستكية. ثم أذابها وصبّ المزيج في صحن كبير فارغ فيه القليل من الماء، وتركه حتى جَمد، فاخذ القرص الذي نتج، ثم عمل له ثقبين للعينين وعمل من البلاستك أيضا الحاجبين والأنف، وتعمد أن يضع البلاستيك الأحمر ليبدو فماً دامياً، ثم الصق به مجموعة من شرائط قد أعدها من مخلفات عمته "نجمة" الخياطة، لتبدو أشبه بالشعر، فبدت المحصلة قناعاً بشعاً. ولم يخبر أي احد بصناعته، ولم يرد أن يُفسد عليه الأمر.

بعدها انتظر حتى جاء "فؤاد" ليلعب مع أقرانه الأولاد. فكان في كل مرة يخسر في لعبة "الدعابل "، او لعبة "التصاوير ". يسحب نفسه بهدوء، ويذهب إلى السينما من بابها الرئيس، ثم مثل كل مرة يفتح بابها الكبير بقوة فتصدر صريرا عالياً، ويخرج راكضا نحوهم، فيرتعبون هاربين، تاركين ألعابهم في أماكنها على الأرض، دون ان يضحك حتى عندما ينتهي من مزحته، ويحرص على العودة إلى الباب الذي خرج منه ليغلقه من الداخل، بعد أن يلملم ما بقي على الأرض من غنائم ما تركوه على الأرض، ويتحول من خاسر إلى غالب.

فاقتضت خطة "صفاء" أن يختبئ في مكان قريب إلى الباب، بعد أن استعار من أحدى عماته الثلاث عباءتها السوداء، ثم وضعها في كيس مع القناع، ليضمن عدم إفساد خطته، فدخل "صفاء" أثناء صولة

"فؤاد"، واختبأ خلف باب السينما من الداخل، واخرج من الكيس عدة اللعبة، وركب القناع على وجهه، ولفّ نفسه بالعباءة السوداء منتظرا عودة "السعلوة" المزيفة، ولما عاد "فؤاد" وجد "السعلوة" الحقيقية تخرج إليه من داخل السينما، والتي سمع عنها الكثير من الحكايات والقصص ولم يكن يصدقها، هي إمامه، وجهاً لوجه، ولم يتمالك نفسه "فؤاد" حتى صرخ صرخة خوف قوية "يُمَّـــــــه" ، كاد فيها أن يتوقف قلبه من شدة الرعب، وقد خرّ إلى الأرض مستسلماً لا تكاد تقدر رجلاه على حمله، وبدا ببكاء، ونشيج متقطع كمن يحاول ان يستعطف "السعلوة" ذات الوجه البشع كي لا تمزق جسده مثما تنقض القطة على طيرٍ من طيوره. كذلك "صفاء" هو الآخر كاد أن يتوقف قلبه من شدة الضحك بعد أن شاهد "فؤاد" بلل ملابسه ببوله..

ثم نادى على الأولاد الخائفين كلهم ليشهدوا مصير "السعلوة" البائس. ومن يومها تغيّر اسمه من "فؤاد السبع" إلى "فؤاد أبو بوله"...

***** ***** *****

يقال بان الأب "ناجي يعقوب" فرح كثيراً أول الأمر، وذهب مع ابنه في سفر طريق طويل لغرض خطبة العروس، والاتفاق على كيفية إتمام مراسيم زواج ابنه، وبعد مفاتحتهم بنية زواج ابنه "يهوده" من أبنتهم "مسعودة"، تبيّن له، بأنها لم تكن في عرفهم إلا "أرملة"، بالرغم من أن زوجها مات عنها دون أن يلمسّها، إذ تزوجت قبل خمس سنوات من "واكيم" احد أبناء عمومتها، ولما أتمّت الزواج الديني في المعبد، وكانت فرحة زواجهما كبيرة، وحفل باذخ هزّ أرجاء المعمورة، وأثناء ذلك تعرض العريس لنوبة قلبية حادة أدّت به إلى الموت، وتمّ الزواج بمأتم.

كل ذلك سمعه من أبيها، فتراجع "ناجي يعقوب" عن الأمر برمّته، بشكل حاسمٍ، وقاطع، فذلك الأمر من الله، فزواج الرجل الباكر من أرملة شؤم عليه، ولابد أن تؤخذ بالاعتبار، ولا يجوز مخالفة شرائع الله والأعراف المتبعة، وعليه ان يحتسب ويخاف على ابنيه الاثنينِ من فألها المنحوس. امرأة محكومة من الله، وأمر الله سيبقى فيها مفعولاً، ولا اعتراض عليه. ولم يتوانَ عن التراجع لحظة واحدة، رافضاً أن يكون زواج ابنه البكر، وقرّة عينه من أرملة.

وعاد بنفس اليوم بالرغم من أن المسافة بين المدينتين "بعقوبة"، و"قادش" ليست بالهينّة، ورفض أن تتم خطبة تلك الأرملة العذراء. وليكن ما يكون..

فلم يكن لـ"يهوده" أي ذنب، عندما أراد الزواج منها. يومها. ولم تكن بحسابه مخطئة عندما تصورت بان السنين سوف تطمر سرّ زواجها الأول الذي أُحتسبَ عليها زواجاً، ومضى بنصف يوم، وبحكم كل الأشياء، وكانت تريد أن تطمسه لإحساسها بأنه لم يكن زواجا حقيقياً كبقية زيجات أهل الأرض، ولم يكن سوى حفل لبست فيه فستاناً ابيض، أبدلته بعد نصف ساعة بفستان حداد.

لم تخبر زميلاتها في الكلية، عن هذا التفصيل المؤلم من ماضيها، ولم يكن لأحد معرفة بذلك سوى ناس من محيطها، ومحيطها لن يبوح به. ولم تبح لأحد، بسرّ حياتها الذي كانت تظنه سرّاً سوف يطمره الزمان، والمكان إلى الأبد، لا تريده أن يشكل عائقاً أمام مستقبلها.. كامرأة تريد أن تأخذ حقها الطبيعي في العيش، ان تتزوج، وتنجب، وتكون مسؤولة عن بيت زوجية تعيش فيه، معززة مكرمة بعيدة عن ضغوط زوجات الإخوة، وعاديات الزمن.

/

بقيت تعاني من تلك النقطة، متمنية ان ترفعها من تاريخها، وذاكرتها. وبقيت طوال سنوات دراستها تعمل على محاولة نسيان قدرها إلى الأبد، إلا ان النسيان ما بين تارة، وأخرى، يذوب كجبل من جليد في كل موسم.

كما بقي شاغل الدراسة أيضاً يساعدها على عبور تلك الأزمة الدفينة، فكابرت عليها طوال فترة سنواتها الجامعية، حتى نالت البكالوريوس في التنقيب عن الآثار، كما جاءها النصيب الجديد الذي أحبته، جاءت به الأقدار. خلال أعياد "البوريم[٢١]" التي تقيم بمناسبته

---

[٢١] * عيد البوريم - عيد المرح - هو من أكثر الأعياد مرحاً ومتعةً في التقويم اليهودي، فيتم إحياؤه في ذكرى خلاص اليهود من الإبادة في فترة عيشهم ببلاد "فارس". ذُكرت أحداث قصة "لبوريم" في سفر "إستر" بالكتاب المقدس. أبطال القصة وهم: "إستر" وهي امرأة يهودية جميلة عاشت في بلاد فارس، وابن عمها "مردخاي" الذي ربّاها كما لو كانت ابنته. أُخذت إستر إلى مسكن "أحشورس" ملك فارس، لتصبح جزءاً من نسائه. أحب الملك "إستر" اكثر من نسائه الأخريات، فجعلها ملكة، لكنه لم يكن يعلم بحقيقة يهوديتها، وذلك لأن "مردخاي" اوصاها بأن لا تكشف عن هويتها... العنصر الشرير في القصة هو "هامان"، مستشار الملك، ذو الشخصية المتغطرسة والمغرورة الذي يكره "مردخاي" بسبب عدم خضوعه وإنصياعه له، ولذلك تآمر "هامان" على إبادة الشعب اليهودي. وفي خطاب معروف لدى اليهود، قال

الجامعة حفلا فنياً كبيراً تستقدم فيه أفضل المغنين والعازفين، والفرق الراقصة ليقوموا بتقديم وصلاتهم الفنية على مدى ثلاثة أيام، وداخل الصرح الجامعي. فيعيش الطالب أياما مميزة عن بقية أعياد العام، تمتلئ بالدعوات والشراب، والمرح الزاخر بانفعالات الشباب، وتفجير طاقاتهم الخلاقة.

تميز "يهوده" بكونه عازفاً مقتدراً على آلة "القانون" الموسيقية، فوقع عليهما الاختيار للاشتراك معه في عمل غنائي، اسمه "النجمات الثلاث"، اختيرت معه "مسعودة" كمطربة تؤدي دور البطولة أما هو

"هامان" للملك: "هناك شعب ما؛ متشتت ومتفرق بين الشعوب في كل أرجاء مملكتك، تغاير شرائعهم شرائع جميع الأمم، وهم لا ينفذون سنن الملك. فلا يجدر بالملك إغفال أمرهم" (سفر إستر ٣:٨) بهذا جعل الملك ل"هامان" السلطة على اليهود ليفعل بهم ما يشاء. فحثّ "مردخاي" "إستر" بالحديث مع الملك نيابة عن الشعب اليهودي. هذا الفعل شكّل خطراً على "إستر"، لأن من يذهب للملك دون استدعاء خاص منه ربما يُقتل، وهي لم تستدعى. صامت "إستر" لمدة ثلاث أيام عن الأكل والشرب لتهيئة نفسها، وما إن جهُزت حتى توجهت إلى الملك "أحشورس" الذي رحّب بقدومها. وفي وقت لاحق، اخبرته عن المكيدة التي حاكها "هامان" ضد شعبها. وبهذا تم إنقاذ الشعب اليهودي من إبادة محققة، فشُنق "هامان" على المشنقة التي أُعدّت في الأصل لـ"مردخاي".

فكان ضمن الفرقة الموسيقية، كان لقاءً عابراً بصحبة جمهرة من الزملاء، إلا ان ثمة إيقاعاً خفياً بدأ يتصاعد بينهما، مثلما كونشيرتو متينة العُرَب صارت تجري بين كل هذا الخضم. التقيا وبينهما نصف قطر لدائرة، بدءا يصغيّان لسماع تلك المعزوفة السرية، الدفينة، جذبته، جذبها، أصغت له، أصغى إليها، وهكذا اقتربا دون تعارف سوى تلك المعزوفة الكونية التي قربت المسافة بينهما، واخذت يداه تصافح يدها.. كان ذلك في حفل التخرج لإحدى دفعات الجامعة المتزامنة مع نهاية المرحلة الثانية، تعرفت إليه، أو تعرف إليها.

- "احد عازفي آلة القانون، وعاشق للمقام العراقي، لم تسمعه يغني.. لكنها سمعته يوجه احد المؤدين في طريقة أداء الأغنية بطريقة أفضل"..

بقي الحبّ بينهما وهما طالبان في جامعة "بوهيما" لدراسة التاريخ، التي كانت تجمعهما.. لكنها لم تخبره بسرّها الذي كانت تظنه سرّاً سيطمر.

***** ***** *****

التاريخ سيلحق كل عربة نسيان ذهبت. وهناك ذاكرة أخرى، لا تريده أن ينسى..

التاريخ العاقل كالعطر الذي تتلقفه الأنوف..

***** ***** *****

بقيت ترفض بأنها في يوم ما مرّ عليها قدرُ الشؤم، وأصبحت في عداد الأرامل، كانت امرأة جميلة وتتمتع بشخصية، ولها سحر جذبه مثلما هو انجذب إليها. كانت من دينه ومن طائفته، أهلها من إحدى

العائلات المُتَنَفِذَة وسيطرتها على السوق، ويقال بان هذه العائلة كانت تستورد الطحين أثناء حصار المدينة، وتبيعه بنفس السعر، وقد حققت أرباحا كبيرة من صفقة الأكياس الفارغة. كانت تفرض احترامها على كل قصبات مدينة "قادش"، وهكذا انتهت سريعاً بمأساة موت زوجها الذي ورثت عنه، بعضاً من أمواله الكبيرة بحكم الشرع، والعرف الاجتماعي، ولم تكن بحاجة إلى المال ولكنها امرأة رزقها الله همّاً من حيث لم تحتسب، بعدها دخلت أزمة نفسية حادة كادت ان تطيح بها، وتؤدي بها إلى حرق نفسها. ليس حزناً على فقيدها بل على مستقبلها الذي غلقت الأبواب أمامه، مستقبل توقف عند تلك النقطة التي قبلت فيها على الزواج من "واكيم" الذي لم تكن قد اجتمعت به الا وقت قليل.. وقت لم تستطع فيه ان تنظر الى ملامحه، إلا وهو مسجى أمامها لا حراك فيه. كأنها شجرة قد اقتلعت وتنظر ان يحل بها اليباس لتحتطب... بقيت حجيزة ذلك الاسم الذي لم تعرف له وجهاً، ولم تعرف معه إلا القنوط بفاجعة بقيت لا تعرف كيف تغنيها.

حتى لاح أمل الدراسة أمامها من جديد، صارت تفكر لذاتها، ونفسها وأرادت أن تكمل تعليمها الجامعي بعد نيلها الإعدادية، وأرادت أن تبعد عن جوّ المدينة المشحون بالعرف العشائري، والذي لا يسمح للمرأة بان تلبس ما تشاء، بحكم الشرع الدنيوي المتشدد. وقد ساعدها أبوها وشجعّها على نيل الشهادة المرموقة، التي تعوضها على ما لحقها من قدر لا تستحقه، ولكنه كان مقدراً من ربّ رحيم، وهو الذي يحمد لكل ما يقدر، فهو سيد الملكوت كله.

كان والدها يعرف كيف يتعامل مجتمعهم مع الأرملة، واراد لها ان لا ينظر إليها كسور حديقة مهدوم، سهل العبور. فلا يعقل أن تكون "أرملة عذراء" في التاسعة عشرة، تبقى محكومة بقدرها مركونة في

بيت، وصار عليه أن يساعدها ليفكها من قدرها الآسر. وتمكنت من الحصول على مقعد دراسي في ايطاليا وسافرت إلى هناك.. كانت تعود لتقضي إجازتها السنوية في بيت أهلها، وفي سنة التخرج عاد معها، مواطنها المتخرج معها من الكلية نفسها، لأخذ الموافقات الأولية من أبيها، وصارت لها بداية فرح التي يبتدئ من عندها بعد أن تجاوزت الخامسة والعشرين.

***** ***** *****

لم يكن بيت عماته الثلاث جنب بيتنا، ولذلك لم أكن قد تعرفت عليه، إلا صباح يوم "الأحد" قرب كنيسة "أم المشورة" مقابل بلدية بعقوبة، مدعياً بانه يريد شراء آلة "جيتار".. من ابن "حنا"، الذي دخل إلى الكنيسة وراء أمه ليأخذ منها مفتاح البيت، وبقي "صفاء" ينتظره.. وخرج بعد ليقول بان أمه ليس معها مفتاح البيت وعليه أن يصل إلى محلهم في السوق كي يجلبه من أخيه، وطلب مني ان أعيره الدراجة حتى يذهب بها لدقائق، ويعود بالمفتاح. فقبلت وبقيت واقفاً مع "صفاء"، مترقباً عودته ليعيّد لي دراجتي ولصفاء بالجيتار.

هكذا حصل تعارفنا لأول مرة، ففي السابق كنت أمرّ بطريقي واراه كل يوم وأتذكر القصة المروية بكيفية تغلبه على "فؤاد"، وقتها عرفت بان لديه "جيتاراً" آخر في البيت، وكان غير جاد في الشراء من ابن "حنا"، وقد افتعل هذا الموضوع محاولة للتقرب من فتاة داخل الكنيسة.. حتى يستطيع ان يحظى بنظرة من "رجاء" ابنة "بطرس"، التي لم تنظر إليه في يوم من الأيام، ولأنه من دين غير دينها، فكان حبّاً من طرف واحد، لم يتحقق..

بالرغم من انه حاول كثيرا استمالة أخويها، لكنهما كانا يعيبونه لان أباه هو من جعل "حسنة الخبازة" جارة لهم..

***** ***** *****

صار لا محالة من الزواج، ومهما حصل، فحزم أمره معها في السنة الأخيرة، حتى لو أمطرت دنياهم جحيماً.. فقررا التريث حينما يقنعه بالموافقة، ولكن الأب كلما فاتحه تشتد أزمته الصحية، ويكاد أن يموت في كل مرة. اذ بقي متمسكاً برأيه المتصلب وإصراره على أن يموت، وان لا يوافق بكل الأحوال.

وان اعترف له عن يوم من أيام صفائهما، وقد تمادت بينهما نشوة القبل التي تطورت إلى رؤيته لقطرات دمّ عفتها، فصار ملزماً بالمرأة التي سلمته نفسها رغماً عن كل شيء.

لم يقبل الأب بكل الأحوال والظروف على زواج ابنه من "أرملة عذراء"، صفة عذريتها لا تشفع بإقناعه، والموافقة على أن يتزوج ابنه البكر من المرأة التي مات عنها بعْلها.. عقدة شؤم تهددهم بالكثير. عارض الامر بشدة، ووقع في أزمة صحية قوية هزته هزّاً عنيفاً.

- "قال يهوده لصديقه "ابراهيم دندي" ذات مرة لم يكن الدين سبباً في الصراع بين البشر في أي زمان ومكان.. بيد انه كان دائماً المبرر والغطاء لأطماع الاقتصاد"..

***** ***** *****

أي نصف مني هو الأول، وأيهما الأذكى والأجمل..؟ البيضة أم الحيمن؟.. البيضة بيضتها، والحيمن حيمنهُ.. كأني وقفت متسائلاً قبل أن اتَّحِدْ في خلية واحدة، واستوطن الرحم حتى تنشطر خلية كينونتي إلى خليتين، والاثنتين إلى أربع والأربع إلى ثمان، وهكذا حتى أكون كائناً واحداً، بكامل "أناهُ العليا"، وقبل أن اكتسي بجسدّ بشري، وادبّ بحواسي وأتحسس مكانيّ الهيولي. فكل نصف انصهر في نصفه الآخر، وصارت مني كتلةُ الخلايا تشغل مكانا آمنا اسمه الرحم كأول مكان في هذا الكون.

انطلقتُ مترقرقاً بعضي يجذب بعضي، عندما اشتددت الموسيقى بالتصاعد، وبعد ان أعطى الربّ العظيم قائد هذه النغمات العظيمة الموحدة، بأمره، ووضع نقطته في آخر السطر، وآخر السلم الموسيقى البديع.. انتهى بحث نصفي عن نصفه الثاني، فوجد حيمنه طريقه الى بيضتها لتخصب (يهو/ ده + مسعو/ ده). ما أن تعانقا، وما أن التفت الساق بالساق، وما أن لهثا، وانتهت نشوتهما كذكر، وأنثى، بعد اشتهاء عاصف.. توقفت تلك الموسيقى العظيمة المندلعة كخرير

/

السواقي، نقطة شوط المُطلق، وشوط المُحدد. تلك الكونية النغمية التي كان يقودها الله بجلاله جعلتني اكتشف بان لي نفسّاً، وكياناً مخلوقاً، مواصلاً رحلتي على كل مساحة أمامي.. وقفتُ عند غربة ظلام دامس، وبداية تجلي الضياع، ومسيرة دائمة، برحلة ضياع مستمرة. إن اخترت الأرض، فسيكون لي قدمان، وسأسير إلى ارض أخرى، وان اخترت العقيدة، فسيكون لي عقل، وأفكر بأخرى، وان اخترت اللسان، فاني سأتعلم لغة أخرى، حتى الأهل فمن الممكن أن يتغيروا. حتى الجنس من ذكر إلى أنثى، أو العكس. ما سأختاره كله. ويتغير كل متغير إلى متغير آخر، فالآخر هو خيار.

لكن تاريخ هذا الجسد كُتب، كتب على ورقة نوتة موسيقية، وسيقرأ معزوفاً على "شوفار" مقدس.. فكل تاريخُ هذه النغمات الموسيقة، حفظها التدوين، ذاكرة الاكوان، وأغلى ما تملك هذه الأرض..

(هو + هي) تراكمُ الحسّ، وتراكمُ الثبات، وتراكمُ اليقين.. اللحظة المكتوبة بنشوة، أوجدت (أنا) وأوجدت تواصلا لموسيقى أخرى ستندلع، لان هذه الموسيقى التي يعزفها الله بكل عظمتها وسحرها وملكوتها، بها أمر تكوين، موسيقى بها أمر الخليقة، الإنسان بلا هذه النغمة المتواصلة، سيكون منته، وستجعله الكائنات الأرضية ينقرض.. بها يتفجر سحره، وقوته، وجبروته، وصار هو الشبيهُ بالمطلق بالنغمة المكتوبة صار ينفخ بالنار، فتمور وتسعر، وصار سيداً على الأسرار. يأمر بالنبوّة والحكمة والمُلْك العظيم ثلاث مرات، المرتقي سلم العموم، الذي خلق بصوته الفاعل المكثف إلى مادة. فيطاع، وصار يؤلف نغمات لا تقل عن نغمات سيده.. العازف الأمهر، السر المطلق النغمي الذي لا

/

تحدّه الأسماء، ولا تصفه الصفات، ولا يستجيب لدعاء، بصورة بشرية .

نغماتُ مدوّناتها المحفوظة في فضاء الكون الواسع.. إنها موسيقى أسرار الخليقة، بها يُدَوْزِنْ آلةَ المجرات..

***** ***** *****

بقي أسمه في الوثائق الدينية اليهودية "مَكابْيوسْ [٢٢]"، كما بقي ذلك الطفل الذي لم اسمع عنه من احد "سرّاً من أسرار حياته"، وقد انقطعت أخبار "يهوده" لأكثر من سنتين...

ابوهُ من قرر أن يكون اسم ابنه في الوثائق المدنية "مُحَمَّدْ"، اعجاباً وتيمّناً بشخصية جدلية غيرت مسيرة التاريخ.. ولحماية "الابن" من الغدر الذي قد يلحق به بسبب دينِ أبيه، وثانياً بسبب خوف المطالبة به، من قبل اهل زوجته، لأنه تيقن بان والدها سوف لن يسكت عن الامر، ابداً.

بعد أن باتت بين العائلتين خصومة متوترة فيها شدّ، وجذب، ومنذ يوم الخطوبة التي لم تتم، وخاصة بعد أن شهرت عداوة "والد يهوده" لوالد "مسعوده":

- "بأنكم قد طرقتم الباب الخاطئة"

---

٢٢ * ينتهي السفر الثاني بخبر انتصار "يهوذا مكابيوس" على "سلوقس نيكانور" سنة ١٦٠ ق. م

جاءوا من "بعقوبة" الى "قادش[٢٣]" خاطبين، ثم تفارقوا، وبينهم جبل من خصام وكبرياء، وقال كل منهما للآخر:

- "تطردنا اذن؟"..

- "اياكم والعودة حتى ولو كنتم من النادمين"!!

- "لن تصلح نسيبا لي"!..

بعد ذلك بعدة أشهر عرفوا بان "مسعودة" بقيت في ايطاليا لأنها حامل من "يهوده". ولن تعود إلى بيت أبيها ما لم يتفق الأبوان على صيغة تجمع بين الحبيبين، وان يوافقا على إتمام الزواج. فتعقدت المسارات.

- "صار عناد الأبوين اكبر من قصة الحب بين عاشقين، وتراشقت الأطراف البعيدة بالتهديد والوعيد ما بين أهلها وأهله".

***** ***** *****

قالوا لي يا "مسعودة":

- "ليس بالضرورة أن يتسابق العرسان على طلب الزواج من المرأة الغنية والجميلة.. اقبلي يا مسعودة بأول خاطب، لا ترفضيه لان ذلك قد يجلب العنوسة"..

---

٢٣ * ورد اسمها في كتاب معجم البلدان لابن خلكان باسم "حران"..

كان "واكيم" يكبرني بعشرة أعوام، ابن الشيخ "ضرغام العطية"، انتظر وتقدم من جديد ففاز بموافقة والدي، وأيضاً هو أحدُ أبناء عمومتي، طلبني للزواج أكثر من مرة، لم يرفضه "أبي" ولكنه كان يريدني أن انهي دراستي في الإعدادية، قبل أي شيء، كان "والدي" يشجعني على نيل الإعدادية، ليس لغرض أن أكون موظفة براتب شهري. لكنه كان يرغب في ان أكون امرأة متعلمة، ولأثبت للجميع قدرتي على التفوق في الدراسة.

ولكن الرجل بقي ينتظر الوعد أكثر من سنتين، اثبت خلالها بأنه قد حسم أمر اختياره لي، وبقي يسعى لنيل موافقة والدي بالزواج بي، وموافقته بعد موافقتي، ولم يكن أمامي غيره لكي اختار، لم يجبرني احد على الزواج به، فانا الابنة الوحيدة بين خمسة إخوة، المدللة، زاد الاهتمام بيَ من بعد أن توفيت والدتي، وبقيت بين أشقائي وزوجاتهم كأميرة تحيطها حاشيتها من كل جانب.

ما ان تجاوزت مرحلة الخامس الإعدادي المنتهي، حتى كنت قد وصلت الثامنة عشرة، وشجعوني على الموافقة، ولم يكن الرجل ذا عيب واضح.

- "للمرأة نصيب لا يرفض"..

صارت النسوة من حولي يَنْصَحْنني بقبول الخاطب المتقدم لي، ولم يبق أمامي غير القبول لأنه وسيم جدا، ومتعلم، وغني، ومن عائلة معروفة، وسمعته جيدة، وكان كريما في تعامله مع محيطي.. كان في صورة زوج مثالي يستحق القبول، ثم أقتنعت بحسنات الزواج والاستقرار.

***** ***** *****

قالت مسعودة حكايتها:

- (طعنته "باهرة" ابنة ساسون اللحام، التي هاجر أهلها قبلها بأربع سنوات، وبقيت هي على أمل أن تتزوج من "واكيم"، ولكنه لم يفعل... جاءته متنكرة في ملابس الرجال، وأخذت خاصرته بضربة واحدة، لم نسمع منه إلا شهقة لم تكن عالية.. كمن لدغه عقرب"

تبين بأنها غرزة سكين مسموم. كان قد وعدها بالزواج، ولم يفِ بعد أن حملت منه مرتين، وأنجبت، ولم يتزوجها.. جعلها ترحل إلى "إسرائيل"، وبعد أن سقطت عنها الجنسية صعبت عليها العودة إلى بلدها الأم، بل المستحيل عينه، لكنها بنقودها تارة، وبمساعدة معارفها تارة، دون أن تكشف لهم عن غايتها.. استطاعت أن تخرق كل ذلك القيد، بعد أن جازفت بكل شيء لأجل أن تحقق غايتها. فهو لم يلتحق بها، بحجة انه يجمع أمواله، التي كانت بين الناس، وطلب منها أن ترحل مع أهلها، على أمل أن يلتحق بها في اقرب فرصة، ومضى عليها أكثر من سنتين، تنتظر الوفاء بعهده معها، حتى وصلتها الأخبار عنه بأنه يريد الزواج من امرأة أخرى. أقسمت على قتله قبل أن يتزوج من أية امرأة غيرها. وضعت خطتها بالعودة إليه وقتله مهما كلف الأمر.. كذلك لم يقبل بتسجيل أبنائه منها باسمه.

عادت من إسرائيل إلى "بلغاريا"، ومنها إلى "تركيا"، وهناك استطاعت أن تساعدها إحدى صديقاتها، المنتمية إلى احد الأحزاب المحظورة التي كانت تتمفصل على الحدود العراقية التركية، وعبرت مشياً على قدميها. تارة ركبت البغل مع دليل سار بها بين الجبال، متحديا وعورة الصخور، لأكثر من أربعين يوماً حتى وصلت إلى قرية تابعة

لمدينة "زاخو" العراقية، ومنها صارت متوجهة إلى "قادش[٢٤]" دون توقف..

تمكنت أن تتابع الأخبار بدقة من بقية أهلها، ومعارفها، ولم تخبر أي احد بنيتها، واستطاعت ان تكمل خطتها، بان تعدّ له سمّاً فتّاكاً، بعد ان تنكرت بزي رجل، وبقيت مندسة بين الرجال المحتفلين.. حتى إذ انفضّ الناس من المعبد، وبدأ العريس بأخذ عروسته إلى بيت الزوجية من مكان حفل الزواج، تقدمت منه بكل ثقة، وطعنته طعنة نجلاء واحدة جعلت منه.. لا يقدر على ان يكمل خطوه أخرى، وسقط مغشيا عليه بين الحاضرين، ولم تتمكن من الهرب بالرغم من قوتها البدنية حيث لم يقدر على تقييّدها ثلاثة رجال.

ولم يعرف احد أيضا مصير المرأة القاتلة، بعد أن أبرت بقسمها، وأنزلت عقابها، وحققت وعدها. أما أهله وذووه فقد أشاعوا بأنه مات بنوبة قلبية، بدل التشفي. فترك أملاكه الكثيرة، من بساتين، وبيوت، وسوقا كبيرة لتجارة الماشية إلى ورثته، وصار لي بستان كبيراً، كان أشبه بجزيرة يلتفّ حولها نهر الفرات، ويحيطها، وقد جعلها الله شبه جزيرة يحيطها الماء من كل جانب.

بعد الحادث المروع.. أقدمت على الانتحار أكثر من مرة؛ ليس حبّا بالرجل، فانا لم أره سوى ثلاث مرات لا تتجاوز أطولها عن النصف ساعة، مرة في حفل قبول خاتم الزواج، والثانية كانت في المعبد عندما ربط اسمانا بالعهد على السراء والضراء، والثالثة عندما سقط مغشياً عليه بفضل الطعنة السامة، رأيت الدم يخرج من منخريه، تحول بياض وجهه إلى سخام.. لوث بياضي، وما عدت أتخلص من

---

[٢٤] قادش هي طيبة

صورة العين المظلومة المليئة بالغلّ، التفتُّ بكل خوفي وهلعي إلى "باهرة"، وقد حبس لساني عن اي حرف.

كانت هناك شعلة من بغضاء مليئة بالأسى تمتد بينها وبين "واكيم" الذي لم يتأخر حتى سجى على الأرض، ولم الحظ دمه أول الأمر. بقيت أتحسس تلك الشعلة من الغلّ الغليل وكأنها تستصرخني أن ابقي على نفسي هادئة، طال هدوئي بالانبهار، وعدم الاستيعاب، ومساحة الفراغ الذي لم افهم كيف اتسع كالهوة، وحدث الذي حدث. ولم أكن قد تعاطفت مع الوجه الذي كانت يداه تمسك بيدي. شدّها علي يدي، وهو يهوي على الأرض كشجرة قطعت من أسفل.

كاد أن يأخذني معه إلى الأرض، أردت أن افلت يدي إلا انه قد اقفل ضمة أصابعه عليها، وكأنها تحولت الى حجر، حاولت إفلاتها، ولم استطع.. كأنه أراد ان يعطي لمَلَكْ الموت روحي عوضاً عن روحه المقبوضة، نفضتها عني كفه الممسكة بكفي، ولم استطع، كان الحجر قد اقفل بأصابعه الكبيرة على يدي. فصرخت بأعلى ما في من قوة رافضة أن يبدل روحي بروحه).

***** ***** *****

لم تتغير عادتي اليومية بالذهاب الى المكتبة العامة، وصرت اقرأ قصص التاريخ، وابحث عنها اضافة الى بقية القصص البوليسية، التي هوستني بحلاوة مفاجأتها، وحلاوة الاستدلال إلى نتائجها الذكية، ولما بدأت اصل الى صعوبة الحصول على جديد لم اقرأه بين كتب المكتبة، انتقلت الى قصص التاريخ، وقد اخذتني تلك الفوضى العشوائية، ورحت اقرأ فيها دون دراية بتسلسلها الزمني، أو بعشوائية.

بقيت بين الفترة والأخرى ادوّن في "دفتر" الملخصات موجزة جدا عن بعض الكتب التي تعجبني، وفي كل مرة ابتكر حواراً داخليا أجريه مع "هيرودتس"، بالرغم من اني لم اجد كتابا واحدا عنه في تلك الخزانة الكبيرة، الا اني كنت امل ان ارسم صورة واضحة عنه، واستدل منها على بقية الحلقات المحيطة بي من الناس الذين شرعت اعرف منهم قصة "يهوده"، فاغلبها مغلوبة، مظلومة، يسطحها الأسى، وقد مرّغها العدم.

فالذاكرة تسطحت تحت الفقر، والجهل، والتجربة المحدودة، ولم يكن لها أي عمق، ولكني بقيت أحاول المواصلة في جمع المعلومات.. بالرغم من شحة المصادر، حاولت ان اجمع حتى أذيال الكلمات، وبقاياها، وكل ما موجود في ذاكرة الذين معي، لم أهمل منهم اية كلمة في الموضوع ذاته، الا ودوّنتها.

نظمت دفتراً، وبدأت تدوين الملاحظات الشفهية فيه، ورحت أفهرسها حسب تاريخها بدءاً من عودة العم "حسقيال" متنكرا إلى "بعقوبة"، وكل ما سمعته من حديث لفتني..

دونت في كل صفحة اوصاف كل شخصية من معارفي، ورأيت أن اكتب تحت كل جديد التاريخ، اليوم، والساعة، وكل معلومة جديدة قد اسمعها عن الموضوع.. سواء من محيطي العائلي، او عندما اذهب إلى المطعم، أو إلى المقهى، أو من محيط "العمة أمينة" التي لم تبخل علي بشحّة معلوماتها عن مدى العلاقة الواضحة بين "أبي ويهوده"، ومرة ذكرت لي عن شخص صديق مقرب لهما اسمه "مير"، وكانت تلك فاتحة جديدة كان عليّ أن اجمع عنها معلومات علها توصلني الى "مكابيوس".. فلم يكن قد ذكره احد حتى ولم يظهر في إية صورة من الصور.

كذلك دونت معظم المعلومات التي استقيتها من جدتي لأمي، ومع جدتي لأبي إضافة إلى وصف الصور التي شاهدتها في جميع البومات العائلة..

صرت أريد أن افشي هذا الجبروت القاسي الذي عزلني به "أبي" عن معرفة حقيقة صديقه.

كان من المفترض ان اعرف منه، كما يحدث مع آباء أصدقائي، يتحدثون بحرية مع آبائهم؛ أما أنا فلا استطيع. فكلما نويت أن اسأله أجد لساني مقفلا، وتضطرب أحوالي، وأتلكأ في نطق حرف واحد، ولا استطيع أن انطقه في حضوره جملة كاملة..

عندما نزل مني سائل بلوغي في سروالي أثناء النوم، ظننت انه عارض لمرض خطير قد سمعت الأكبر مني يتحدثون عن "سيلان" ينزل من عضو المصاب، ولم أجرؤ يومها على الإنصات إليهم، ولم أجرؤ على الحصول على المعرفة.. موضوع قد سورته التربية بأنه أشبه بالسور المنيع.. وقتها ظننت باني قد وقعت في محظور لم اذهب إليه، كأنه مرض حلّ بي كاللعنة، وبقيت كلما نزل؛ يزداد حزني، وخوفي، وتزداد عزلتي.

فانزويت خائفاً منتظرا قدري. ولم استطع أن أسال به احداً، مخافة الظن بالسوء.. كم تمنيت أن أجد احداً ما اشرح له ما بيَ، خفت كثيرا من الأب، وخفت كثيراً من الأم، وخفتُ من الصديق، كذلك من الجدة، والعمة، والخالة. لكني بعد ستة أشهر من هذا الخوف، والظرف النفسي السقيم استمعت مصادفة إلى تقرير تحدث فيه طبيب لإذاعة "البي بي سي"، يومها كنت أكثر حاجة إلى "ابي" ليرشدني، ويفهمني باني قد بلغت مرحلة المراهقة.. كانت تلك إحدى أول أزماتي الكبيرة،

وتبين لي بأنها لم تكن أصلا أزمة، ولكن ظرفي وزماني ومكاني جعل منها أزمة.. فأصبحت لا أريد البحث عن "مكابيوس"، وأين استقر به الحال؟.

اصبحت علي يقين بانه موجود مع احد أفراد الحلقة القريبة مني..

- (أن لم يكن متزوجاً من "مسعودة"، فلا يحق له المطالبة بابنه)،

- (ولدته أمه، وماتت. أراده جده لامه لأنه سيكون الوريث الشرعي)..

- (تركت الأم من أموال وعقارات)..

- (أراده باي ثمن، لأنه ابن ابنته)..

- (فشلت الخطبة، فقررت البقاء هناك)..

- (أبقى هناك، ولن أعود إلا متزوجة، بعد أن كبر جنيني)..

- (الأيام السيئة كان فيها "إبراهيم دندي" يشاركه أزمته... بقي معه في أول أيام زواجه، محتارا معه، يشاركه الهمّ الصعب أولاً بأول)..

- (أوصى له بكل ما سيلحقه من أملاك)..

- (أي عائلة هذه التي قَبلتْ ببقاء ولد بينها، ولا يمت لها بأي صلة، وتكفلت بعيشه، وتربيته)..

- ("مير" صديق قديم سكن في بغداد قبل سنوات)،

- (الذي يعرف بكامل القصة هو صاحبه، ويعرف أدق تفاصيل حياته، متلازمان، متعاونان، صديقان يذكران وكأنهما شخص واحد)..

كذلك كنت قد كتبت في هوامش اخرى:

- (أية حكاية مقنعة ستكون أكثر تشويقاً، كونها حكاية حقيقة ليست ملفقة، الحكاية قالت نفسها بكل جدية، وحزم بان "يهوده"، قد ترك ابنه الوحيد منذ اليوم الأول، لولادته في عهدة احد أصدقائه المخلصين جداً.. تحت ظروف قاهرة جعلته يقبل بالحل الذي كان يظنه مؤقتاً)..

- (الحكاية تريد ان تكون أكثر موضوعية لتقنع قارئاً حتى يستمر في مواصلة سماعها للنهاية، وإلا كلما كانت الحجة ضعيفة، ومرتبكة، وغير مترابطة، تجعل القارئ يملّ سريعاً، وربما يترك القراءة بحثاً عن قراءة أخرى يقرا بها، قراءة لا تستخفف به وتسطح عقله. القراءة ابنة اليوم الذي هي فيه، وليست اليوم الذي هي منه، كما وان يكون موقعها، ومكانها ظاهراً معلوماً، وليست من جزر اللامكان، واللازمان)..

- (كلما يحتدم النقاش معه حول أمرها، فالمرأة حبلى وهو يريد الزواج بها، لكن أباه لن يبارك بها.. فكيف يتوفق في معصية أبيه)..

- (تزوج امرأة أحبها بجنون، فأنجب منها)..

- (ذلك الظرف القاسي على "يهوده"، لم يمرّ بدون تعقيدات وإنما صار أمام أمر واقع آخر.. وقع بين نارين، ولم يستطع أن يجد حلّا)..

- (تفاهم بذلك الشأن مع زوجته حول تبني طفل صغير يحتاج إلى العناية والرعاية، فقبلت به)...

***** ***** *****

بقيت عمتي "صبيحة" عانساً حجيزة البيت، منذ أن فقدت عينها اليسرى، في حادثة عمل في بستان كان يملكه جدي، وأهمل شانه يومها، ولم يسجله في العقاري، لما مات جدي ظهر له مطالب، ولم يؤول للورثة، تحت وصاية القانون.

لم تخرج من البيت إلا في أحوال نادرة، وهذا قد سبب لها حالة عصبية، وغالبا ما تكون متوترة، وتكيل لي ولأمي الشتائم، لأتفه الأسباب، ولكنها كانت امرأة طيبة..

بعد ذلك بدقائق تأتي إلى غرفة معيشتنا وتلاطفني وتلاطف "أمي"، ويكون الموضوع منسيا بين الطرفين، وربما يتكرر ذلك أربع مرات في اليوم نفسه، وغالباً ما تحضر "امي عمتي وجدتي"، وقبل الساعة السادسة مساءً، أمام التلفاز، الذي اشترته هي من مدخراتها، ونشاهد الخطوط المدرجة بالأبيض والأسود وبعدها يغرد عصفور البث ثم يتبعه الافتتاح بالقران الكريم لمدة ربع ساعة، وينهي بـ"صدق الله العظيم".. حتى يبتدئ مشوار افلام الكارتون، وتمتد حتى السابعة والربع، بعد ذلك تطلب مني ان اذهب الى النوم او متابعة دروسي.

ذات مرة قلت لأمي بعد ان طالت فترة برنامج قراءة القران، قلت لها لماذا يا "أمي يقول قارئ القران "صدق الله العظيم"، قالت لأننا وجدنا التعاليم هكذا، فقلتُ لها: ولكنها ليست مكتوبة بالقران.. فقالت: الله هو القائل، فعلينا أن نصدق القول كلما ننهي قراءته، قلت لها؛ هل يحتاج الله الى كلام حتى نصدق على قوله.. مادام الكلام كلامه فنحن

كبشر لسنا بحاجة الى هذه اللازمة الزائدة، وما أن أنهيت جملتي البريئة وجدتها تناولت نعالها، وقذفت به تجاهي، ولم يصبني. لكنه أصاب الصورة التي كانت معلقة في منتصف الجدار، فسقطت وتهشم إطارها، كانت عمتي تقول عنها أنها صورة نبينا أبو الأنبياء "آدم"، ومعه أم الأنبياء "حواء" عليهما السلام.. مما أغاض أمي أكثر، ولم استطع أن افلت الى خارج الغرفة، لأني بقيت محصورا في عمق الغرفة، وجدت "امي" تنقض علي بالضرب، وكأنها تصاب بالهستريا، ثم بالكاد خلصتني منها جدتي، وعمتي حتى نزف الدم من انفي.

٩

قالت العمة "نهلة":

- "يومَ أطلقوا سراح شقيقي "نديم" من الحجز، الذي دام تسعة أشهر، بسبب انتمائه للحزب الشيوعي".

صَحَبْتُ ابنه "صفاء" إلى بيته الذي لا يبعد عن بيتنا سوى عبور الضفة الأخرى من نهر "خريسان"، حيث هللّ بقدومنا الكلب "دوبر" بنباحه المعهود، فنهره "بهاء" شقيق "صفاء" من النافذة، كانت سعادتنا غامرة، بخروجه هذه المرة من الحجز، فهي لم تكن المرة الأولى، ولكنها الثالثة، أو الرابعة.. لكنها كانت المرة الوحيدة التي بانت على جسده آثار التعذيب، وجدته نائماً، وتركت "صفاء" يجادل أمه في رسوبه في مرحلة الأول متوسط، وكأنها تلومني لان أباه ترك لنا – شقيقاته الثلاث- مسؤولية تربيته، لأننا وحيدات في بيت؛ لا رجل لنا غيره يشاركنا العيش فيه، فكان رجل البيت المدلل، فلم يطلب منا شيئاً إلا وفرناه له. استطعت أن أعيل نفسي وشقيقتيّ من مهنة الخياطة لنساء المحلة، وكسبتهن زبونات دائمات منذ أكثر من عشرين عاماً، وخاصة بعد ترك شقيقي مهنة الصيد وتحوله إلى التعليم، وبعدما صار مُهتماً بالسياسة، ضاقت علينا الدنيا، وما بقيت لنا سوى ماكينة الخياطة نعتاش عليها، وساعدتني شقيقتي "نجلة" التي تعلمت التضميد وزرق الإبر للنساء.. صار بيتنا أشبه بنقطة تلتقي فيها اغلب نسوة المحلة، وصارت

الأخبار تتبادل منها. صرنا نعرف ما يحصل في اغلب البيوت قبل أي مصدر آخر..

وصلت الخمسين من عمري، ولم يأتِ إليّ أيّ نصيب بالزواج، وصار هميّ منصبّاً على تربية ابن شقيقي، فكنت احرص عليه، وأتابعه أينما يذهب، ويلعب، ومع من يلعب.. حتى ضاق بيّ ذرعاً كلما تابعته في مكان لعبه.. عندما افقد أثره، صار أولاد المحلة كلهم يرشدوني أين يكون هذا الولد الشقيّ..

عندما افتتح "اورزدي باك" في بعقوبة اشتريت له آلة "جيتار"، وصار بعدها أكثر ألفة للبيت، ولا يخرج إلا مجبراً، وصار يتمرّن على العزف عليها في اغلب أوقاته.. صار الأولاد يتجمعون في بيتنا حوله.. كنتُ أحسّ بسعادة غامرة كلما وجدته قريبا مني، وتحت بصري.

لم يستطع الصبر أن يبقى حتى يستيقظ أبوه من النوم، وبلمحة خرج عائداً أمامي إلى بيتنا.. هناك كل سعادته، صرت أراه يختنق، كلما زادت عليه أمّه الملامة، والسؤال عن دروسه..

ذكرت عنه إحدى جاراتنا:

- "بانه معجب بابنة جارنا المسيحي ويلاحقها كل يوم احد إلى الكنيسة"،

وأنه مؤدب، خجول. ولم يكلمها أصلا، ولكنه يحبّ أن يراها، ليس أكثر، حبّ من طرف واحد.. سألت عنها وقالوا لي بأنها ستعود إلى احد الأديرة في "الموصل" وتصبح راهبة.. قلت مع نفسي صار رجلا، ولكنه لم يعرف الاختيار الصحيح.. تمنيتُ أن تكون مسلمة لكنت خطبتها له دون انتظار بأن يكبر، تمنيت أن أزوجه من أية واحدة

يختارها، بالرغم من صغر سنه. نربي له أولاده أفضل من تربية القطط..

***** ***** *****

ذاتَ يومٍ من ايام شهر رمضان سألتُ "أمي" بافتراض بريء؛ لو ذهب "سوبرمان " إلى كوكب "المريخ"، أو إلى كوكب "زحل"، وبقي مشغولاً هناك دون أن يعود إلى الأرض، وحلّ عليه شهر رمضان.. على أي قمر سيصوم الشهر.. فقالت:

- "ربما يستخدم ساعته"..

فقلت لها "لا تتوافق ساعته مع ساعة أهل الأرض التي تعتمد توقيتات خطوط الطول"، فاحتارت بافتراضي، وأرادت أن تجد جواباً، فلم تجد ما يقنعها، قبل أن يقنعني. فصمتت، ولم تجبني..

- "عليّ أن أكون ارضياً بأسئلتي حتى أجد أجوبة موضوعية عنها"..

***** ***** *****

كلما نظرت إليه، أتذكر خيبتي التي صار عمرها خمس عشرة سنة، فهو يصغر "صفاء" ابن أخي بعام واحد.. لو كان قد وافق "نديم" تزويجي بـ"ابراهيم دندي".. لكان هذا الولد ابنهُ مني.

يومها كان الرجل أنيقاً، وغالباً ما يتطلع إلى شباكنا، وهو يمرّ يومياً بصحبةِ احد أشقائه، أو مع صديقه الحميم "يهوده"، ومن أمام بيتنا مرتدياً كبقية الأفندية، بنطلوناً من القماش الانكليزي الخالص، وقميصاً غالباً ما يكون لونه ابيض.

لم يوافق شقيقي على زواجي منه بحجة أن تتزوج أختي الأكبر مني "نهلة"، كان في الحقيقة لا يعجبه أن يناسبه واحدٌ من بيت "دندي"، لأنهم من عائلة تنحدر من أصل يهودي، وقد أخفى عني، وعن الآخرين السبب الحقيقي لرفضه. كانت مبرراته واهية، بقي يخفي أسبابه الخاصة حتى عندما حاجَّتْهُ عمتي "رجية":

- "أمنا كانت تنحدر من أصل يهودي أيضاً"؟!.

لكنه بقيَ مصراً على عدم الموافقة، ومخفياً أسبابه الحقيقية التي كانت مخفية وراء أسباب بلا أي مبرر موضوعي. حتى اسمع الرجل بنفسه رفضه لطلبه. وفي اليوم التالي تزوّج "ابراهيم دندي" من ابنة خالهِ "طليلة".. في غضون أيام، نفس الأسبوع، تمّ زواجه وسط حفل شاركه فيه كل أهلِ المحلة حتى "ميخائيل" رقص في عرسه.

وترك لي الرجل دون تعمّد جرحاً لا يندمل في داخلي، يكبر مع الأيام، وخصوصاً بعد أن أنجبت له زوجته ولداً، صرت اعدّ السنين التي يكبر بها ابن "ابراهيم دندني"، حيث يذكرني بخيبتي.

بقائي إلى ما بعد الأربعين دون زواج. ولم يتقدم لي احد بعدها، وكلما يذكر اسمه أمامي، يخفق قلبي لذكره، لأنه أول رجل استطاع أن يفتح قلبي، وبقيت أحب سماع أخباره، أولاً بأول. ودائما امني النفس به. كنت أراه رجلاً أنيقا بالرغم من السلبيات التي كان يؤاخذه عليها شقيقي "نديم".. اذ كان يقول عنه بأنه "مطيرجي" هو وبقية عائلته..

كان الوحيد من عائلته يرتدي لباس الأفندية، ولكنه كان لا يضع على رأسه "سدارة"، وكانت له هيبّة بين رجال المحلة، وحظوة بين اليهود، وقد اعتمدوا عليه بكل ثقة في إدارة أملاكهم، وخاصة إدارة السينما التي كان إيرادها الأسبوعي يفوق المئات من الدنانير. كان

/

مشهورا بعزّة النفس، ويذكرون عندما جاء "حسقيال" الى بيتهم جاء متنكراً، وأراد منه ان يقبل تسجيل البيت باسمه بالطابو رفض ذلك، وبقيَ يؤدي لهم الإيجار حاله حال صديقه "مناتي" شريكه في مكان العمل..

أيامها كان الحبّ بين اثنين، لا يتجاوز الرؤية من خلال الشباك، أو ملاقاة عابرة في سوق، أو طريق. ولا تتجاوز بيننا الإشارة، أو إلقاء التحية، ولم أكن أذكر باني قد رايتهُ ذات يوم، قبل أن يرسل لي شقيقته "صبيحة". أخبرتني:

- "نريد له الزواج، واخترناك فماذا تقولين"؟..

تغيّر لوني، واضطربت أوصالي، فوافقت في بداية الأمر بعد اذ استشرت شقيقتيَّ، ورحت احلم ببيت، وزوج، وعائلة.. إلا أن شقيقي "نديم" أوقف ذلك الحلم برفضه القاطع. توجه في اليوم التالي إلى خطبة امرأة أخرى، وسرعان ما جاءت الموافقة. فتمّ زواجه على أحسن صورة، بقيت وقتها لم اعرف ما سأفعل، وكانت تلك الفرصة الوحيدة التي جاءتني للزواج، ولم يتقدم لي بعدها أي خاطب.

بقيتُ أراه فارس أحلامي، وبقية كوابيسي.. لكني لم اشعر بالغيظ من "طليلة"، فلم تذنب المرأة معي، وأنا من أضاعت فرصتها.. كانت تصغرني بعدة سنوات. تزوجها، وأوقفها عن إكمال دراستها المتوسطة.

كما بقيتُ أعالج النسوة، وأساعدهنَّ في أمور التطبيب ما بعد الولادة.. حتى علمت بان الأخوين "يهوده"، "حسقيال" تكفلا في إرساله إلى "ايطاليا"، لقضاء شهر العسل. مرّت بيّ حالة عصبية من فيض الغيظ الذي ألمَّ بي. بقيتُ في خصام مع شقيقي، لا أتكلم معه أية كلمة

/

طوال فترة سفر "إبراهيم دندي" مع "طليلة"، وامتدّت إلى أكثر من إحدَ عشرَ شهراً.. حَبَلتْ زوجته هناك، وولَدَتْ هناك، وعادَتْ تحمل ابنها، وعمره شهر واحد، أو أكثر.

بقيتُ اعبر الثامنة والأربعين، وتجفُ شراييني يوماً بعد يوم.

***** ***** *****

بمرور الوقت؛ لم يَعُدْ يُثيرني لغزّ "مَكابيوس" كما كان السابق، بدأ اهتمامي به يقلّ تدريجياً خصوصاً بعد أن اختفى عني دفتر المعلومات، التي كنت قد اجمع فيه عن مستجدات الموضوع، وتشابكاته المثيرة للجدل، وأنَّى توجهتُ، ألتقي عند بوابة مغلقة اسمها "إبراهيم دندي".

ما عدّتُ قادراً على تحدي إرادته، ورغبته، فبتُّ أول الأمر أتظاهرَ بعدمِ أهمية الأمر، ولكن بقي الموضوع.. يشغلني لفترة طويلة، وكأني المحقق العظيم، الذي أظن نفسي. فقدت جميع أدلتي المادية الملموسة، وعليّ أن أبحث من جديد عن أدلة أخرى، لكنها شبه مستحيلة. كذلك اخذ الموضوع يلقي ضلاله المُعتِمة على "أمي"..

صارت تتوجس مني أي سؤال اسألهُ اياها. وتحولت أجوبتها ليّ، وكأنها – أيضاً - بوابة مستحيل لا يمكنني عبورها بأيّ سؤال، بريء آخر. بات اللغزّ يُشكل لي متاعب، كنت في غنًّى عنها. وليست مسألة أرغب في حلّها، فأبرهن باني استطعت حلّ قصة لغز حقيقي، في حياتي الحقيقية، كما تحلّ الغاز القصص التي قرأتها، وعشتُ معها بكلّ جوارحي.

تيقنتُ ان اختفاء الدفتر بفعلِ فاعلٍ عارفٍ، وصرت قلقاً من أن يكشفَ محتواه، فآثرت الصمت دون السؤال عنه، أو البحث عنه، ومتظاهراً بنسيانه، أو بات لا يشكل لي همّاً..

يومها شككتُ بان "فؤاد" أخفاه عني مؤقتاً، وكنت على يقينٍ مؤكدٍ، بأنه ينوي أن يساومني على مسالة ما، حاجة، أو خدمة، أو أمر آخر أجهله. وسيعلن عنه في اقرب فرصة. بعد أن مضى يوم، أو يومان دون أن يكون في جعبة فؤاد" أي شيء. تيقنت بأنه لا يعلم عن مصير الدفتر، ولم يعدّ له إي اثر.. بالرغم مني كنت احرص عليه وأخفيه عن الأنظار، وكنت أخاف من أن يقع في يد "أمي" فهي الوحيدة التي تجيد القراءة، والكتابة بين محيطي كله، ومن الممكن أن تخبر "أبي" بمحتواه، وتكون كارثة.. بالرغم من انه عدلَ عن ضربي منذ أن دخلت المتوسطة، مكتفياً بتوبيخي الشديد. لم تعد أية أهمية بمرور الوقت للدفتر أو محتواه. لأني بدأت أصل إلى طريق مسدود، لشحّة الأخبار، وعدم توصلي إلى أي مستجد.. إذا صار عليّ السؤال مكلفاً، وبدأت ابتعد فعلياً عمّا كان يشغلني كنزوة، عابرة، وخصوصاً بعد ان دخل إلى قائمة اهتماماتي عزف الموسيقى، والتمرن على لعبة "الشطرنج".. بعد أن وجدت "صفاء" قد أُولع بهما أيضاً، وصرت أتحداه في كل جلسة، وابرعَ منه في الشطرنج، وكان هو ابرع مني في مهارة العزف على الغيتار. لم يكن "صفاء" محبّاً وعاشقاً للكتب، فلم يشاركني مشوار المكتبة، واستعارة الكتب من المكتبة العامة، بالرغم من اني حاولت أن أستعير كتباً في تاريخ الموسيقى، وفشلت ان أحبب اليه رفقة الكتب، إلا انه كان يميل إلى آلته، ويعزف عليها أكثر من ميله للقراءة عنها، فكنت اقرأ، والخّص له أثناء تمرينه مما قرأته من اغلب الكتب المبسطة التي تخصّ الموسيقى، ووجدني المّ بتفاصيل كانت تثيره، كان يجيد الإصغاء، ويتفاخر كما لو هو قد استخرجها من متون الكتب، ويتحدث

بها إلى محيطنا من الزملاء.. أو الأولاد من معارفنا الذين يصحبون أمهاتهم إلى بيت "جده".. إذ كان لا يذهب إلى بيت أبويهِ... كان يعيش في بيت "عماته الثلاث" اللاتي يوفرن له كل ما يطلبه منهن، فالأولى اشترت له آلة الجيتار، والثانية اشترت له علبة شطرنج تماثليه مُجَسَمَة، وأجمل من علبتي التي اشترتها لي "امي"، كذلك كانت تعطيه مصروفاً يفوق مصروفي مرتين.

صرنا نحظى بفرصة اللعب بالشطرنج مع الآخرين، وصرت اشرح طريقة اللعب الى كل من يريد تعلمها.. لكني كنت أفوز على الجميع بلا استثناء، لاني كنت أجدها لعبة ألغاز مثيرة، ولم يستطع احد أن يتفوق علي بها، فاللعبة تحتاج دوماً إلى لاعبين ماهرين أتمرن معهم، وصرت ابحث في المكتبة العامة عن كتب تاريخ الشطرنج، وتعلمت منها كيفية قراءة، وتسجيل دسوت[٢٥] الشطرنج، ورحت افترش رقعة الشطرنج، كمن يلعب لوحده، وأتعلم الافتتاحيات الشهيرة، وأسماءها، واستطعت أن أميّز في قوتها، وضعفها أثناء لعبي مع الآخرين.

وكان صفاء يحتضن آلته ولا يفارقها، وكنت اطلب منه أن يعيد اغلب المعزوفات التي كان يحفظها من أشهر أغاني "عبد الحليم حافظ"، وأحياناً أوجهه إلى تصحيح ما يحفظ، وبقي مؤمناً باني أجيد الحفظ الموسيقي أكثر منه، بدلالة جعلهُ يعيد العزف حتى يتقنه.. بالشكل الذي يرضيني، بالرغم من أني لم امسك الجيتار، بقدر ما هو يمسكه من ساعات النهار، ولم أجد العزف كما هو يجيده.. كنت اسمع مختلف الإذاعات وأتوقف حيث ما أجد موسيقاي..

---

[٢٥] * الدسوت مفردها دست ومعناها جولة شطرنجية..

أما "فؤاد" فقد كان له هَوَس بتربية طيور الحمام الداجنة، وابتعد مساره، عن مساري، ولم تعد بيننا أية هواية مشتركة، فهواية جمع الحمام الزاجل، لم تُثرني منذ البداية، مثلما تثيره، ولم ألمّ بتفاصيلها مثلما يلمّ بتفاصيلها. ولم تتوافق مع اهتماماتي كما توافقت مع اهتماماته، فرسب أكثر من مرة في مرحلة السادس الابتدائي. ووصلت انا مرحلة الثاني متوسط، وكان علي أن استعد لعبور ما بعدها.

*****   *****   *****

كنّ يعشقن تربية القطط. وتعيش في بيتهم أكثر من ثماني قطط.. وعندما اسألهنّ عن القطة السيامية "سنونة"...

تُفتح سيرة بيت "يهوده". فيصفنّ ليّ معها صداقاتُ جاراتهنَّ اليهوديات.

(علي أن أدوّن التاريخ المَخفي غير المعلن.. تاريخ تحكمه الآلة الجنسية)..

*****   *****   *****

إذ كنت أضع أوراقاً بيضاً في الآلة الكاتبة، وابدأ بالرقن عليها، فلا تظهر الكلمات التي اكتبها بها، لأنها بدون شريط طباعيّ. يدقّه نابض الحرف بقوة، فيحفر صورته على الورقة، دون ان تظهر بلون له على الورقة، فأتمكن من قراءتها بتضليل الورقة بقلم الرصاص حتى تظهر الكلمات المحفورة بقوة الضربة، كأنها مطبوعة على الورق.

وهكذا استطعت مجدداً تدوين اغلب ملاحظاتي الجديدة عن اللغز "مكابيوس" الذي بات يمثل لي تحدياً، وعناداً، ونزوة تؤرقني،

ولم استطع إيجاد حلٍّ لها... كونه صار علي موضوعا محظوراً، من قبل أهلي.

قبلها لاحظت نتفاً من غلاف الدفتر، الذي ضاع مني عالقة في قعر سلة المهملات. فتيقنت بان الدفتر لم يضع مني، ولكن احداً من الذين حولي قد أتلفَه، متعمداً، ولم يكشف لي ذلك.

اختفى ذلك الدفتر إلى الأبد، وكان علي أن لا أضيعه مرة أخرى، فلم اظلل ما كتبته، بواسطة الآلة الكاتبة، وبقيت الحروف مخفيةً لا يقرأها احد غيري..

كنتُ اقرأ فيها، ولكنها كانت أشبه بكتاب أردت قراءته، ولم يكتمل.. مثلما رغبت بقراءة كتاب "هيرودتس" من المكتبة العامة، فلم أجد له أي اثر، وكما سألت احداً عنه، هو الآخر، لم أجد عنه الجواب.

***** ***** *****

كانت عمتي "صبيحة" برغم توترها، تندب حظها، وقد عبّرت عن ذلك بكلمات قاسية، ورغم حدوث المشكلة بينها وبين "أمي" في ذلك اليوم التي كسرت فيه برواز الصورة، لم ينتبه احد الى أَني شاهدت الصورة المخفية، تظاهرت كأني لم أُعِره الأمر أية أهمية، كنتُ متيقناً بان عمتي بكل أحوالها سوف تطلب مني مساعدتها في إصلاح ذلك البرواز، وإعادته إلى مكانه. فقد أعددت نفسي لمغامرة الدخول في موضوع استجدّ عليّ... حيث لم يذكر لي احد بان "أبي" و"أمي" قد زارا ايطاليا في الماضي يصحبهما "حسقيال"، عرفتُ ذلك من الصورة التي أخفتها عمتي بصورة فوقها، "ادم وحواء"، مستفيدة من بروازها.

/

كم أشعرني ذلك بالفخر، وكم يعجبني أن يحدثني احد عن مكان بعيد، وخاصة الأمكنة التي كنت اسمع عنها بأنها إحدى العواصم الكبيرة، التي ندرس عنها في درس الجغرافية. لولا الصورة، فانا لم اصدق لو كنت قد سمعتها من احد. أردتُ أن استعير منها الصورة حتى أريها لزملائي في المدرسة، وأعيدها بعد ذلك.. إلا أني مرة واحدة لمستها يدي، وتمعنتُ بها جيدا، وبعدها اختفت إلى الأبد.

لأول مرة رأيت فيها "أبي" يضع يده على كتف "أمي"، وبجانبهما "حسقيال". صار حدسيّ بان من صورهما هو "يهوده" فقد كانت الأشعة من خلفه تطبع ظلها على المكان الذي تصورا بقربه..

عندما ساءت علاقة "أمي" بـ"عمتي" استطعت أن استثمر تلك القطيعة، وان احصل على بعض الأجوبة.

***** ***** *****

عمومتي واغلب الجيران كانوا مولعين بتربيتها، والتسلية بها. بعض منهم كانت تدرّ عليه منها نقوداً. وكنت أظنها لا تحتاج إلى أي مهارة، سوى أن يُحبس الحمام في قفص لمدة من الزمن حتى تتعود عليه، ويكون فيه عشها، وبعد ان تتزاوج تعزل الذكور عن الإناث، و يطلق الحمام كلّاً على حده، ويدور في الفضاء حول عشه، حتى يتعب ثم يعود إلى قفصه..

(تعلم الصفير العالي، وذلك بعمل غرفة هوائية ما بين الفم وأصابع اليد، والنفخ فيها بقوة، فيخرج الصوت عالياً، وكلما تحرك احد الأصوات ليصدر نغمة من صفير، ذلك الصفير يميز مربي الحمام عن الآخر، وغالباً ما تكون لكل واحد نغمة يمتاز بها عن الآخر... وأحيانا تتشكل طريقة لتواصل حواراً بين اثنين. هذا من جهة يستخدم الصفير

لإخافة الطيور، وتوسع من قطر دائرتها، فغالبا ما يطير الحمام في سرب واحد، ويدور حول فضاء بيت صاحبها، والحمامة التي تتخلف عن السرب، وتنتظم إلى السرب الآخر، اما التائهة فتكون غنيمة لصاحب السرب الثاني الذي التحقت به)..

هذا ما انعكس على العلاقات الشخصية، فغالبا ما تكون الحمامة الجديدة الملتحقة بالسرب عبارة عن غنيمة، وتكون الغنيمة مسببة في علاقات متغيرة من حال إلى حال حسب أحوال الحمام..

***** ***** *****

لم يكن للعمة "نجدة" أية مهنة فهي ربة بيت بلغت السادسة والأربعين..

تعودتْ معهنَّ السهرة كل يوم من أيام الصيف القائظ، قبل ذلك ترطب المكان بالماء عصراً، وتملأ قارورة الماء، ثم تنتظر مع بعض من نسوة محلتنا تشغيل الفلم المسائي الذي تعرضه على الشاشة الصيفية للسينما. فالبيت هو الوحيد الذي يطل سطحه على شاشة السينما الصيفيّة، وبإمكانّهنّ رؤية الفيلم المعروض كاملاً، ومجاناً..

قالت "امي":

- "تقرر موعد رجوعنا، عندما وصلنا خبر موت الأبوين "علوان دندي" و"ناجي يعقوب"، صار علينا أن نجمع أغراضنا الضرورية، فقط. استوعبتها حقيبة واحدة، واهملنا بقية الاغراض كالفراش وملحقاته، وادوات المطبخ"...

حزمنا كل ما هو خفيف وغالي الثمن، وتركنا ما اراده زوجي ان نتركه. بعد ان وعدني بتعويض كل ما اريده. لاجل ان نعود إلى "بعقوبة" حيث اشتقت للعودة الى غرفتي في بيت أهل زوجي.. كما اشتقت كثيرا لامي، وشقيقتي، ولشقيقي أيضاً. اشتقتُ لكل الذين كنت اعيش معهم.

فودعتُ جاراتي في الغرف الاخرى، المجاورة، وسلمت عليهن في غرفهن واحدة تلو اخرى، حتى الاطفال فرداً فرداً. لانهم شاركوني ايام غربتي وكل اشواقي المكتومة لأهلي، فهن نسوة طيبات، باتنّ اعزّ الصديقات لي، فقد اعطينني من خبرتهن اشياء كثيرة، واكتسبت ايضاً منهن مشورة رعاية الطفل يوماً بيوم، كان خديجاً لا يتجاوز وزنه الاربع كليوغرامات حتى بات الان عمره سنتين، صار يركض، يمرح بين بقية الاولاد والبنات.. قبلتهن واحدة بعد واحدة، مررتُ عليهن، ولم انس واحدة منهن.. لا صبية ولا عجوزاً.

يومها اغرورقت اعيننا بالدموع التي وثقت الفراق، والاشواق. وخطت بمساراتها العهود "ان نتزاور مستقبلاً"!!.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، خرج زوجي "ابراهيم" الى السوق وعاد بعد ساعتين بحقيبة كبيرة، مليئة ومغلقة بطريقة محكمة، لم استطع معرفة ما بها، حتى وصولنا، يبدو أنّها حقيبة الهدايا "المفترض ان تكون قد جلبناها لاهلنا من ايطاليا"، وجاءت سيارة "حسقيال" بسائق الى الباب لتقلنا الى "بعقوبة"، وبقي زوجي يوصيني طوال الطريق ان لا ابوح بالسر، وكررّ مهدداً:

- "الثرثرة التي لا طائل من ورائها قد تجعلنا نخسر الولد الذي اصبح ولدنا"!!..

فقلت: - "فعلا ابننا، ولن اسمح لاحد بان يأخذه مني لأي سبب كان.. فانا لا اتخيل كيف تكون حياتي بدونه؟".

بعد اقل من ساعة وصلنا، وكانت الابواب مفتوحة على مصراعيها، والكل منشغل في عمل دؤوب ضمن مراسم العزاء. بالرغم من الحزن، سرت في القلوب فرحة عودتنا، ووجدت كل من حولي يبارك لي ابني، ولم أجد احداً، بين كل ما يحيط بي يُشكك باني أمه التي لم تلده، سواي، ولكني كنت أقاوم.

منذ ذلك اليوم صار ابني بين اهله، وذوويه..

****** ****** *******

قالت طُليلة:

الّا ان رغبتي في الاعماق بقيت أن أنجب كبقية النسوة. ولم استسلم أبداً، حتى أنجبت "خليل"، وعاهدت نفسي أن أعاملهما وكأنهما شقيقان.

****** ****** *******

اول مرة كنت قد شاهدتُ "اليزابيث" وكانت بصحبة جارتنا "كرستين"، في شباك غرفتي المطل على حديقتهم.

ثم شاهدتها مرة ثانية بعد عدة اشهر، كانت ايضاً عبر شباك سعيدة بزواجها، وكانت تواصل العزف على آلة الكمان مع "كرستين"، وبدت متألقة جداً، وضحكاتها تتداخل مع النغمات، وكأنها مكملة لتلك المقطوعات الرائعة، وكان زوجها بقربها يقطع بعض الحشائش الضارة من حديقة دارهم..

في المرة الثالثة شاهدتها تحمل ابنها وتجول بين غرف المستشفى بحثاً عن طبيب ينقذ ابنها الذي تعرض لتسمّم حاد، واستطاعت ان تنقذه.

وفي المرة الرابعة رايتها تلبس الأسود، وبيدها منديل تكف به دمعها، وبضعة نسوة مُتحلقات حولها، وهي تتلقى العزاء في زوجها الذي أعدمته الحكومة، بسبب تمسكه بانتمائه السياسي، ورفضه للخدمة العسكرية.

لم استطع ان الم بتفاصيل قصتها، وأخبارها الدقيقة.

في المرة الخامسة اخبرتني "كرستين" بموعد عرض مشاركتها في التلفيزيون لتعزف مع الفرقة السمفونية الوطنية.. شاهدتها تظهر في عدة لقطات، ومتألقة كعادتها.

اما في المرة السادسة فقد كانت بصحبة ابنها لتسلمه الى بيت جده، وكانت تبيّت نية للزواج من جديد.

كان ذلك اخر ما سمعته من أخبارها. بعد ان تخرجت "كرستين" طبيبة اسنان، تزوجت من زميل لها، وابتعدت ساكنة مع اهل زوجها في الموصل.

***** ***** *****

قالت "امي":

- "صديقة عمري "جنان" اول من وصلت بأشواقها اليّ، ملهوفة... حكت لي همساً كل ما جرى لها في فترة

غيابي عنها، وانها باتت مطلقة، وبعد يوم واحد من زواج فاشل، عادت الى بيت اهلها،..

جاءني "ابراهيم" وطلب مني عدم مواصلة علاقتي بها، وقطع صلتي بها.. بعد يوم من زواجها، اعادها زوجها الى اهلها، لأنها لم تكن باكراً كما قال الرجل.. فصدق زوجي ما قاله زوجها الظالم.

ولكن ابوها هو الذين كذب الزوج، وتريث قبل ان يتصرف بالامر.

هي ابنة الاستاذ "رحيمو المسلماني".. كان مدير الاعدادية الوحيدة في مركز "المتصرفية[٢٦]"، استمع جيداً الى كلام الزوج، ثم استمع الى كلام ابنته الوحيدة..

وكانت "القابلة مارغريت"، هي الفاصل الاهم بهذا الموضوع، لأنها صاحبة الخبرة الواسعة في اغلب الأمور النسائية، حيث تبينت الموضوع، في معرفة هكذا امر دفين.. وكأن المرأة قد استعادت حياتها. لكن الزوج تظاهر بعدم التصديق، وبقي في غيّه، وظلمه لها. اما اباها فكان على عكسه، فهو لم يكن اباً وحسب لابنته بل صديقاً ايضاً، وكلامها معه كان كافياً، لان يصدقها.

بينما في داخله، كان يعرف بان زوجها الـ"حصان" هكذا اسماه منذ ذلك اليوم.

---

[٢٦] * كان يطقون على مركز المحافظة اسم المتصرفية.. ويديرها المتصرف اي المحافظ.

وأكدت للجميع ما تبين بان صاحبته تشكو من عيب خلقي، وهو ان غشاء بكارتها لم يتمزق، ومن النوع (المطاط[٢٧]) الذي لا يتمزق الا بعملية جراحية، وما زال باقيا كحاله. ولذلك لم ينزل دمها، ونصحتهم بمراجعة الطبيبة "وجيهة"، المتخصصة بالجراحة والامراض النسائية..

كذلك اكدت الطبيبة تضامنها بعد الفحص صحة ما حددته القابلة، وتطوعت بتسليمهم تقريراً بذلك الشأن، والموضوع حساس، خطير، ولابد منه، فهو دليل براءتها من اية تهمة.. تبعد عنها الظنون، (في حالة عدم ارجاعها او في حالة حبلها بعد ان باشرها، ورفض ان يعيدها.. سيكون التقرير شفيعها وستأخذ به المحكمة)..

وصل الخبر الى ابناء المحلة فاستنكروا بشدة ما قاله "الحصان" فاعتبروه نذلاً لا يفرق بين الحرة وغيرها، لأنها كانت من النسوة اللائي لا يحببن الاختلاط. وهي بأطيب سمعة..

***** ***** *****

اصرت "امي" على براءة صديقتها "جنان"، وكذلك "ابي" بقي مصراً على قطع علاقتها بصديقتها، وكانت تلك اول التوترات التي بينهما..

وجهة نظر "أبي" لم تكن تتجاوز بانه رجل تهمه السمعة، وان المرأة وفقاً لما سمعه عنها، والنتيجة التي وصلت اليها يوم زواجها،

---

[٢٧] ذكرت الدكتورة "نوال السعداوي" عن حالة مماثلة في احد كتبها...

/

فهي امرأة مدانة، اجتماعياً، وكل امرأة مدانة ينبغي عليه ان يحذر اهله منها، وحتى لو كانت أعز صديقتها.

يجب ان تتفهم، وانه لا يريد ذلك خوفاً عليها" تلك السليمة تجربُ" وكان يشدد على ضمة حرف الباء الاخير..

بقي يعيدها عليها كلما عاد الى النقاش واصدار الامر كانه امر نافذ، ولكن العناد لم يساعد الولد الذي بينهما على تهدئته.. بقيتُ انكمش كلما تصاعد صراخ "ابي" مشدداً على منع "أمي" مما لا يريده.

كانت تطيعه بكل شيء، الا في عدم اللقاء بصديقتها، منعهما من اللقاء ولكنهما تلتقيان عندما تزور "امي" بيت "جدتي"، وكم كان ذلك يغيضه، وكأنها اكبر المعاصي. لأنها لم تنكر اللقاء بصديقتها ابداً...

١٠

ذات يوم افتضح أمر "سعيد" أبن عمي، ولم يدع "أبي" الموضوع ان يمرّ بسلام عليه، من دون معاقبة. خاصة بعد أن اشتكاهُ "ماجد ميخائيل" أمامي، وقال بصوت عال..

- "إن كنت تقبل له ذلك فعلى الدنيا السلام"

إذ كان مهووساً بسرقة ملابس النساء الداخلية من على حبال الغسيل.. لقد امسك به "ماجد ميخائيل" أثناء تسلله داخل سياج بيتهم، وأشبعه ضرباً إلى درجة ان الورم بان حول عينيه، ولم يتدخل احد بذلك الشأن ولم يلمه لائم.. وكذلك نال علقة أخرى عندما علم "أبي" بعمل ابن أخيه المشين، وربطه بسلسلة الكلب إلى الشجرة، ولم يطلق سراحه.. بقى بكاء "سعيد" يصل إلى آخر المحلة، ولم ينفع مع "أبي" أي رجاء من أي كان. حتى جدتي لم تستطع لان "أبي" كان مصراً على معاقبته بهذه الطريقة القاسية اذ جعله معلقا من قدمه إلى الشجرة ورأسه متدليٌّ إلى تحت.. بقيّ "سعيد" لساعات كسيراً، وفي حال يرثى لها، ولم يجرؤ احد على إطلاق سراحه من قبضة "ابي"..

كان "سعيد" يكبرني بأكثر من ست سنوات، وكان يرسب في كل مرحلة دراسية، ويبدو رجلاً بالغاً برز شارباه، باكتمال. لكن الضرب المبرّح جعل الدم يختلط بالدمع، وظل يشهق كالحمار يترجى عمّه بالعفوّ عنه.. واقرّ تلقائياً أين يخبئ مسروقاته، وطلب مني "أبي" أن اطلب من شقيقه "فؤاد" إنزال الكيس الذي كانت فيه تلك الحاجيات، في مكان عال من

"بيتونة" بيتهم.. بعد ذلك بقليل، جاء فؤاد بالكيس، وطلب منه أن يسمي كل قطعة باسم البيت المسروق منه، وكانت بعض القطع تعود لبيت خالته، وزاده ضرباً حتى جعله يعلن نفسه تائباً، ولن يعود إلى تكرار مثل هكذا فعل.

- حتى "تِبان" ابنة خالتك يا عديم الشرف!..

لم يره احد لأكثر من أسبوع حتى اختفت عنه آثار ما تلقاه من ضرب، وما جعل أمه تأتي إلى "أبي"، وتشتمه أمامنا جميعاً، فاضطر إلى ضربها ليخرسها. كما اغضب "عمي" غضباً شديداً.

ولم أجدهما في يوم قد جلسا في مكان واحد كأشقاء، مثلما كان عملهم في السينما يجمعهم، دائماً عمومتي متنافرون، ولم يصادف الحظ أيّاً منهم أن يلتقي بشقيقه، كبقية خلق الله إلا ما ندر.

وهذا ما جعلني أفسر عدم اللقاء به، وكنت افتقده كثيراً كما يفعل الآباء مع أولادهم، فثمة فجوة عميقة وكبيرة بينه وبيني.. تلك الفجوة ذاتها بينهم أبناء عمومتي وآبائهم. بالرغم من إن جدي كان وحيد أهله، فلا شقيق أو شقيقة له. اذ كان يجمعهم تحت جنحيه كما يفعل الطير عندما تفقس بيضات أنثاه.

كنت أتساءل لم كل هذا التباعد، والذي أدى إلى تباغض دفين.. كانوا كلهم محبوبين من الذين معهم، وكانوا ودودين جداً مع جيرانهم، ولكن فيما بينهم تفوح رائحة الفرقة، والشتات، والعزلة.. كنت أرى ذلك ولم أجد تفسيراً لذلك..

***** ***** *****

كان "عزيز شلومو" ولداً نابغة زميلنا في دراسة مرحلة المتوسطة، يقول:

- "بأنهم سوف يرحلون بعد أن يحصل على شهادة المتوسطة في الصيف القادم"..

هذا ما سمعته منه شخصياً، وكأنه كان يحدث نفسه.. لم اصدق ما سمعته فهو من النادر أن تتحرك شفتاه..

كان الولد نظيفٌاً جداً، وأنيقاً.. لكنه كان منطوياً، ولا يتكلم مع احد بسهولة، يخاف أن يرفع صوته، ولا يبقى في غرفة الدرس أثناء الاستراحة، ولا يترك الممرّ إلا بعد أن يسمع الجرس، فيدخل مع الداخلين إلى غرفة الدرس.

كنت أراه خائفاً، ويخفي رعبه منا جميعاً، لم أحاول الاقتراب منه، بقدر ما كنت أحاول متابعتهُ عن كثب فربما يحتاجني، فأتصدى لكل من يحاول مضايقته.. كنت أظن بان زملاءنا هم السبب في وضعه النفسي هذا، فهم يحاولون النيل من ولد ضعيف بينهم. لم افهم ما معنى انه من دين غير ديننا، وهذا ما جعله حبيس خوفه من زملائه. يرفض الخروج من حصة درس التربية الإسلامية، وكي لا ينفرد وحيداً في ساحة المدرسة.

يبقى يشارك كبقية التلاميذ في الحفظ والتلاوة والشرح.. من القران الكريم والأحاديث النبوية.. كان يحفظ جميع آيات القران التي درسناها، وكان مدرس المادة يغضّ النظر عن بقائه في غرفة الدرس بتوصية من المدير الذي كان صديق أبيه..

- "يعرف عن دينكم أكثر مما تعرفون.. أيها الكسالى"..

- (أتحمل كل شيء إلا البقاء وحيداً خارج غرفة الدرس)..

في بكلوريا الابتدائي جاءت نتيجتهُ ١٠٠%، الأول على مدارس العراق، كذلك سيكرر النتيجة في بكلوريا المتوسطة أيضاً. إذ كان يتمتع بموهبة الحفظ والفهم السريع، وكان مستعداً أن يعيد كتابة صفحة كاملة من أي كتاب بعد أن يقرأها لمرة واحدة. كنت معجباً به، وأتمنى أن يتحدث إلي في يوم من الأيام، ولكنه بقي منزوياً لا يسمع منه صوت إلا إذا وجه إليه احد مدرسينا السؤال، فيتكلم ببطء وبصوت ينمّ عن ثقته العالية بنفسه. وكنت أحس بان اغلب الزملاء، يغارون منه، ويتشاورون عليه، وأحياناً يرمون عليه بقايا قطع الطباشير الزائدة.

ذات يوم كان في إجازة، طلب المدرس من احد زملائي أن يتحول إلى أمام في المقعد الذي يجلس عليه "عزيز"، فرفض ولما طلب منه المدرس توضيحاً بعدم طاعته، أجابه، بأنه مكان "يهودي نجس"، ولم يعلق المدرس على ذلك الموضوع كأنه موضوعٌ لا يقبل الجدل، فقمت من تلقاء نفسي بعد أن استأذنته وجلست في مكانه، ولم يعلق المدرس بشيء، وبعد أن انتهى الدرس، وجاءت الاستراحة، قال لي احدهم يجب أن تغتسل جيدا قبل أن تتناول طعامك، فأنت جلست في مكان اليهودي، وضحكت بصوت عال، وتركني لا يعرف كيف يردّ على سخريتي منه.. بعد أن نظرت إلى أظفار أصابعه الطويلة المتسخة، والى القذى الذي في عينيه، والى وجهه الذي لم يطله الماء منذ أسابيع..

***** ***** *****

صديقي "الراديو" كان يسمعني برنامج "نافذة على التاريخ" الذي كان يبتدئ بموسيقى هائلة لم اعرف بأنها لـ"موزارت " الا بعد حين... من إذاعة دولة "الكويت".

صارت المقدمة تنقلني الى بحر من الأمواج المتلاطمة كاني عائمٌ فوق موج من الكتب العظيمة. وكنت في زورقي الصغير أحاول الثبات وسط هدير الأمواج العاتي. كنت أشمّ منها رائحة كنائس، وبخور. وطقوس سرية لا اعرف كنهها، ولا ادري كيف تعصف بأوصالي كلها ثقافات ومعارف وعلوم، موسوعات لمختلف الموضوعات والتخصصات.. إضافة إلى جولة البرنامج في قصص تاريخية بقيت تأخذني إلى متون لم تطلها عيني، ولم تلمسها أناملي، وتعرفني بشخصيات كلما أثارتني تلك الفتوحات في أعماق السطور الدفينة.. أبطال ثائرون يحملون مشاعل لتنير دربهم إلى حرياتهم المفقودة. ذلك الهدوء يجعلني مستعدا لتحمل العاصفة القادمة من رغبتي. أجدني تأهبت في اليوم التالي في المكتبة العامة للبحث عن بعض منها، وعن ألواح ورقائق سرية مطمورة.

ثم برنامج "من الذاكرة" كل جمعة من إذاعة "صوت الجماهير" تقديم وإعداد "سعاد الهرمزي"، كانت مقدمته مقطوعة "شهرزاد"، والذي كان يخوض في قصص عباقرة الغناء العربي وملحنيه.. يتابع بجهد مبدع، مفارقات اللحن الجيد، ويكشف طبائع العبقرية الفنية الإنسانية، وكيف تتلاقح الثقافة الشرقية بالثقافة الفنية الغربية. فأصغي بخشوع إلى تلك الأنغام المختارة، والموضوعات الأنيقة البالغة التأثير، فأجدها مخزونة في طيات الذاكرة الطرية، ولم تزل فيها ابدّ الدهر..

كان قبله برنامج قد اختفى اسمه "استراحة الظهيرة" من إذاعة "صوت الجماهير" في يوم الجمعة.. أما الأغاني فكنت ابحث عنها أثناء النهار

في الموجات القصيرة التي تبثها الدول البعيدة. وفي الليل كنت اسمع المقام العراقي وبعض الأغاني الكلاسيكية العربية، وأتوقف كثيراً عند الأوبرا التي تبثها الإذاعات الناطقة بغير العربية، ودون أن افهمها، وصرت اكتب اسم الإذاعة في قائمة فيها رقم التردد، والموجة، والساعة.. على ورق سميك واحشرهُ في حافظة الجهاز الجلدية، وكنت أرى "أمي" غالباً ما تقرأها، وأحياناً كانت تسمع معي إلى بعض الأغاني العربية. كذلك كانت تقرأ في بقية دفاتري، إلا إنها لم تكتشف طريقتي السرية بواسطة الآلة الكاتبة، وتركت ملزمة الأوراق، ظاهرة للعيان.. مع كتبي الدراسية، وكنت مطمئناً عليها من أي فضول..

- صديقي الراديو كنت لي خير صديق ..

(ماركوني "٢٥ أبريل ١٨٧٤– ٢٠ يوليو ١٩٣٧"، أسهم في اكتشاف الموجات كهرومغناطيسية اختراع الراديو، وهو مخترع الإبراق اللاسلكي. ولد في مدينة "بولونيا" بـ"إيطاليا" من أسرة غنية، وطوّر اختراعه، وذهب إلى "إنكلترا"، وسجله هناك وأنشأ شركة، وهو أول رجل أرسل، واستقبل بنجاح الإشارات الإشعاعية على مختلف المسافات. أرسل عام ١٩٠١م إشارات عبر الأطلسي، فكان يوما عظيماً في تاريخ الاتصالات اللاسلكية حيث أن السفن الحربية التي تعاني من مصاعب صارت بفضل اختراعه تطلب المساعدة بسرعة، وفي السنوات الأخيرة من حياته قام بتطوير استخدام الموجات القصيرة، والموجات القصيرة جدا، وتوفي "ماركونى" في "روما")..

عجبت من ان إذاعة "اورشليم القدس" تفتتح برامجها باي من الذكرِ الحكيمِ!..

كنت قد طورتُ طريقة لاستقبل بها أكثر عدداً من الإذاعات عبر الموجة المتوسطة، والقصيرة. فعملتُ هوائياً مددته بسلك من الجهاز إلى سطح الدار، وسلكاً آخرَ ارضياً ربطته بالأنبوب الرئيس لماءِ الإسالة..

***** ***** *****

قال سعيد ابن عمي:

- "لم يكن "ماجد ميخا" نبيهاً لتلك الدرجة حتى يضبطني داخل سور بيتهم، ما لم يكن ينبهَّهُ واش باني سوف اعبر من اجل تبّان "كريستين" الجميلة.. لكنت حظيتُ به كما حظيتُ بغيره، وانتهى الموضوع بسلام"...

اخترت الظهيرة، بعد أن خدعني الهدوء، ولم اعرف بأنه كان فخّاً فطناً سيوقع بيّ بين قبضة الملاكم المحترف. فما ان لمست "التبان" حتى وقعت على وجهي لكماته المدرَّبة، السريعة، والقوية. لم تتوقف حتى فقدت الوعي. صحوت بعدها ووجدته يسحلني من تلابيبي، ويسلمني إلى عمي "ابراهيم".

ورأيت كل أولاد الحارة الصغار والكبار ملتفين حولنا لمعرفة ما يحدث، فزاد الطين بلّة. كنت أتخيّل "علي عطابة صبي السينما"، يشمت بيّ، فلم يكن قريباً منا سواه، فسمع ما دار بيني وبين "جودي الحلاق"، ثم وشى بيّ غيرة، وغلّاً..

قبل أن يتوفى "عبداي الحلاق" كان "جودي" يعمل عنده صبياً، ويتمرن بمهنة الحلاقة، وعندما اكتشف زبائن المحل شذوذه في غيابه، فاخبروه بحقيقة "جودي"، وطرده دون أن يفضح أمره. وبدأ من الصفر

/

ففتح محلاً في مكان منزوّ من المحلة، يُحْلِق للشبان بثمن زهيد، وكان يلتقي عنده اغلب العاطلين عن العمل.

كان يعرف جيدا كيف يخفي رغبته، ويقتنص ضحيته. كان يتأكد جيداً من زبونه الجديد، قبل أن يتحسس له "عضوه". إذ صار خبيراً بهكذا أمر، وأي خطأ منه يؤدي به إلى الفضيحة، مثلما حدث له قبل سنوات في محل "عبداي" رحمه الله. بقي حذراً ليستطيع ان يتواصل مع مهنته التي تأتي له بالمال، ويشبع رغباته.. صار "جودي" يعرف جيداً بالزبائن الذين يراجعونه بغرض الحلاقة أو بغرض آخر، واتخذ غرفة سرية من ذلك البيت الذي استأجر منه المحل، فعزلها عن البيت، وفتحها من جهة المحل. ثم أخفى بابها بقطعة خشبية متحركة، لا تكاد تبين للناظر، فأصبحت غرفة معتمة، لا يستخدم فيها إلا الضوء الأحمر.

تمرس "جودي" جيداً بغرائزه، بعد أن نسي هواية جمع الحمام، وتشابكاتها غير المجدية. صار صاحب محل حلاقة معروف، وكثر زبائنه من الشباب استطاع أن يحوز على احترام الجميع، وكان كريما، سخيّاً مع المحتاجين، والشباب الذين اهلهم من اصحاب الدخل المحدود، أوالذين يأتون إليه، وأهلهم قد قننوا عليهم المصاريف أو الذين أصلا بلا مصروف. فقد خفض أثناء الأعياد، والمناسبات أجرته إلى النصف، مما زاد زبائنه، وصار من أشهر حلاقيّ الولاية..

كان يتمتع بلسان حلوّ، وصوت يتطبع بالليونة، وليس فيه أية خشونة، رجولية. كان يعتني جداً بشعر رأس الزبون، استطاع ان يماشي الموديلات التي تظهرها المجلات الحديثة المختصة بأخبار الفنانين، فكان محله الصغير لا يسع؛ إلا لزبون واحد يجلسه أمام المرآة، على كرسي خاص بالحلاقة، ومكان في الخلف يجلس عليه ثلاثة

زبائن، أما الباقون، فيتركهم يذهبون ليقضوا أعمالهم، ثم يعودون إليه بعد أن حجز كل منهم دوره..

كان هذا ظاهر "جودي" أما باطنه فهو يخفي كائناً، ودوداً، ناعماً. يحب ارتداء ملابس النساء الداخلية. وقع في شباكه مجموعة من الشباب المكبوت جنسياً، والذين بحاجة إلى المال وقد علمهم سرقة الألبسة الداخلية لنسوة المحلة، وخصوصا تلك النسوة اللائي لم يخطر ببالهن ان ملابسهن الداخلية تسرق من حبل الغسيل.. رغبة "جودي" بان يرتدي إحدى تلك القطع، ويضطجع بها في سرير ماجن يحوطه اللون الأحمر، ويجزل للفاعل العطاء.

تعود في كل ليلة، أن يسمي "نفسه" باسم صاحبةَ القطعة المسروقة، فكان كل واحد من الذين يثق بهم يمتلك مجموعة من الألبسة الداخلية لنسوة المحلة. يحتفظ بها عندما يحتاجه "جودي"، وقد اعدّ لذلك المشوار عدته. فتلك القطعة الوردية آخر محاولة لي، وبذلك كانت نهاية علاقتي بهم.. بعد أن شكا أمري "ماجد ميخا" إلى عمي "إبراهيم"..

***** ***** *****

- لماذا تلبسين الشال على الرأس أثناء الصلاة؟.

قالت بأن الصلاة تعني الوقوف بين يدي الله، والمؤمنة عليها أن تغطي شعرها، فقلت "ولماذا ترفعينه عن راسك بعد الانتهاء من الصلاة، وإنزاله بعدها". فلم تجبني، "وهل تعتقدين بان الله سيذهب عنك بعد إكمال الصلاة".. لكني لم أُسمعها بما فكرت به، خوفاً من ردة فعلها، ولكني كنت اريدُ الاجابة عن كل سؤال يحضر الى الذهن، حاجتي الى الاجابة تكبر، "كيف يطلب الخالق من امرأة أن تغطي شعرها أثناء صلاتها؟.. أن كان شعرها عورة، فهل تثيره عورة

مخلوقته، وهو العظيم. فكيف لا يريد أن يرى جمال ما خلقت يداه.. كيف يلبسوه صفاتهم البشرية وينسون انه اكبر من هكذا عمل"..

ذلك جعلني أفكر بماهية الشارح أن كان ذكرا أو أنثى. دامت قوانينه البشرية منحازة إلى الذكورة، وقاصية للأنوثة، فتعمد الحدّ من سلطتها، وحضورها الفاعل..

- (بدلا من أن أجد شخصية أناكفها في مواضيع حساسة وجدتني اعلق في مواضيع عقلانية وأناقشها مع نفسي، فالتاريخ تستفزه المناكفة، كونها تستمر الحفر فيه عميقاً حتى تظهر الحقائق. صرت ارى مادة التاريخ تفسر نوايا ما يرادُ لها ان يحدث، في مستقبل كاتبه، وليس ما حدث ويستمر حدوثه)..

***** ***** *****

صار عندي هوس اسمه مواصلة العزف على تلك الآلة الساحرة، فكنت كلّما استمع إلى مقطوعة أتخيل تنقلات أنامل يدي الشمال على أوتارها، وأين تزحف على تقسيمات عنقها الذي يشد إليه الأوتار. صرت أحرك يدي الفارغة في الهواء متخيلاً كيفية اللعب على الأوتار المفترضة، كما الحالم. يشتدّ ولعي كلما استمعت إلى مقطوعة في الراديو، أترجمها في ذهني إلى نغمات الجيتار، فصار النغم يجري في عروقي، ويزاحم ذهني. وكنت أثناء استذكاري لدروسي لا اطفي الراديو، اجعله معي، يصدح بما تسمعنا إياه الإذاعة. أذهب عميقاً في همّ جديد اسمه الشغف بالموسيقى..

أوصلني "صفاء" إلى أوتار الجيتار، صار حلمي أن احصل على واحدة، ولم استطع.

لم يكن ليتركها لحظة، فاستطيع أن امسك بالنغمة، واجعلها بين أصابعي. صارت فجوة مارقة، تحدّ من تلك النغمات الممسوكة بالأنامل، كنت أريد أن امسك بها كما يمسك بها -هو- يعطيها حلاوة لا تُمل، تُغرق، تُسربل في الحلم، تُطوف في الأثير. تثير نشوة كبرى. وتقطع الأنفاس، فتعطي أنفاسها العبقة بسرّ لا يدرك. كان عزفه يوصلني إلى جوهر اسمه، رفض.

عصر تحولات في منظومات الفكر والمعرفة.. عصر انتماءات، وولاءات يتصارع عليها الكثيرون، فالقوي يريد أن يحقق وجوده على ارض أي ضعيف آخر.. تتطاير من الأفواه كالمطر مفردات القومية، والأممية، والوحدة، والعالمية، الامبريالية والشوفينية، الطبقة العاملة، والاشتراكية والقومية.. المادية والروحية، الديالكتيك، الماركسية، العلنية، السرية، الوحدة، الحرية، الاشتراكية، يا عمال العالم اتحدوا..

في حوض المتوسط بين ابناء الأمة العربية الواحدة تختلط الشعارات، وتنفلت الرغبات، وأندفع منتمياً الى الموسيقى التي تبلّ العروق.

اغلب الناس من حولي صارت تسعى إلى الانتماء لحزب معين، وكنا نصرّ على معرفة شعاراتهم، وطبيعة المنتمين اليها..

- (حزب القوميين العرب. نبيهم "جمال عبد الناصر". حزب الشيوعيون. نبيهم "لينين". حزب البعث العربي الاشتراكي. نبيهم "ميشال عفلق")..

كنت اسمع من الساخرين (إن أمطرت في موسكو فان شيوعيي العراق سوف يستخدمون مظلاتهم حتى ولو كان يوم صحو وكأنها تمطر فوقهم)...

***** ***** *****

منذ ان تهشّمت صورة "ادم وحواء"، كشفت العري الاول. عري الحكاية الاخرى التي خبأت الصورة بغيرها. فيها اب وام يحملان طفلاً عمره لا يتجاوز العام، ويظهر معهم "يهودا" بعينين دامعتين. صورة ملتقطة قرب تماثيل ملائكة عارية تزين ساحة ما في احدى شوارع مدينة لم اشاهدها في الافلام.

وبعدها ايضاً لم تهدأ المناوشات الكلامية بين "أمي" و"عمتي"، وكانت "جدتي" تتذمر مما يحدث بين ابنتها، وكنتها..

كانت تأخذني إلى غرفتها، بعد ان تلاحظ الانكماش الذي يحل بيّ، فكنت اشعر بالذنب مما حصل بسببي، لأنهما تبدآن باسمي، وتنتهيان به كذلك..

ولم يكن بوسع "ابي" أن ينصر أخته على حساب مشاعر زوجه، ولم يكن يفعل العكس على حساب مشاعر شقيقته، وبات من المستحيل التوفيق بينهما، وكنتُ بين الجميع لا ادري أين تحل بيّ القدم، كلتاهما تتمترس خلف البكاء الذي يذيب القلوب، ويفتك بالسامعين، فاخذ التوتر يضفي جوّاً معتماً، فعزم "أبي"، و"أمي" أن يشتريا البيت الذي يقابل بيت "العمة أمينة"، ويجاور من الخلف بيت "ميخائيل".

/

قررت "أمي" أن تستعين بشقيقها الوحيد، الذي شاركها بنصف ثمنه، مشترطاً تسجيل النصف باسمه في دائرة العقاري لحين إيفاء الدين.

انتقلنا إلى البيت الجديد في اليوم التالي بعد الشراء.. كان للبيت خمس غرف قديمة مبنية بالطابوق الاحمر، وسقوفها من جذوع الأشجار، وتتوسط باحته الواسعة شجرة توت احمر مثمرة.. قالت لي "أمي":

- اختر أية غرفة وضع فيها آلتك الكاتبة، وسوف اشتري لك منضدة وكرسياً.

فاخترت الغرفة القريبة من الباب، والتي كان فيها شباك يطلّ على الشارع..

***** ***** ***** *****

- "اذا شاخ السبع عبثت بذيلهِ الثعالب[٢٨]"!!

كأنما المدينة تحدثت نيابة عنه، لأنه لم يُغيّر خَنْدُقْه بزمّ شفتيه عن ايّ كلام، اذ نأى بنفسه عن كشف الحقائق، فقد كان العارف الملمّ بدقائق تلك الحوادث المثيرة للجدل. زمّهما وانزوى في صمت حزن قاهر.

ليته يسرد بعض اسرار سيرتها من بعد أن احتكم على مفاصل حياتها، منذ ان ولِدتْ بين يديه ونشأت تحت عينيه؛ اذ رأى مفاتنها

[٢٨] كما ذكر عمي جاسم بان اصل المثل هو "اذا كبر السبع بالت عليه الواوية" السبع احد اسماء الاسد والواوية هي الثعالب في اللغة الدارجة..

المجبولة بسحر القداح. نزلت على شاطئه الأخضر بعنفوانها البهي. بقي شاهدها، العارف بالتفاصيل الدقيقة التي شكلت نشأتها، منذ ان وهبها ماءه، وعَلَّمَ انسانها كيف يجبل اول لبنة، وتُصف بأساس اول بيت له سقف على احدى ضفافه، صمته يشوقني لتفاصيل الاحداث الجلية، أو الغامضة منذ الأزل.

لكنه بكل عنفوان تمترس في حكمته البليغة، وراء سعة الصمت العظيم، سعة أجهلها؛ لأجل استنطاق الحجر، والمعرفة. يدرك ان صمته نعمة اكثر بلاغة من طبيعة طموح البشر الذي بات متبصراً في اعماق إنسانية الانسان، وبعد أن بَطُلَتْ المفاهيم القديمة، ودخلت طور اعادة النظر منذ أول لبنات التشكل المعرفي، بعد ان شوشت عليه الاوهام اكثر من الحقائق، ومزقته، وأزاحته عن جدية سبر اغوار هذا الارث العظيم. بودي ان أسأل الضفة هذه عن اختها، وان اروي فضولي بمعرفة بعض مما جرى..

المدينة قالت كلمتها، وبقيت تقول، وتقول؛ فيسمعها دون أن يكشف سرها، بقيّ مترفعاً عن النطق، لان نطقه عواصف وزلازل، واشياء اخرى بعدد المصائب التي دفنها التراب، والنسيان، والعجب العجاب.

المدينة احتضنتهُ لأنه سار بين مفاصلها وسيبقى لها حتى اناء شيخوخته يمنحها الحياة..

لكن النهر؛ بقيَ يأخذ ضحاياه بمباغتةٍ سريعة، على حين غرّة، وكأنه يقتنص السذَّج، ويبلعهم بصمت، ولا يترك أية فرصة لطلب النجدة، وربما لن يجدوا للغريق اية جثة طائفة قد تظهر في مكان ما..

لأنها تُحْتَجَزْ في الأعماق، تحت تلك الجذور القوية، والمتينة حتى تتهرأ، وينحتها الماء بقوته الجارفة فتذوب.

ربما نعتوه بـ"الخَرَسْ"، اذ غالباً ما يفيض، بغفلة عنهم، ويغرق كل سراديب البيوت التي حوله، والقريبة منه. كانه يغدر بصمت؛ مرة سمعتُ عمي "جاسم" يقول:

- "اسمه "خْرَيِّسانْ" وليست له اية صلة بمدينة "خُراسان البعيدة" لا من بعيد ولا من قريب، وليس منبعه منها، ولا مصبّه فيها".

انما جاءت تسميته من "الخَرَسْ: اي عدم النطق"، و"خْرَيِّسانْ" صفةُ "الاخْرَسْ"، لأنه كان نهراً عميقاً جداً، ولا يمكن لأحد السباحة فيه بمفرده، ما لم يكن قوياً، ويعرف جيداً دهاليزه. ففي اعماقه تشابكات متينة، من جذور الأشجار الكبيرة المزروعة حوله. فكانت تمتد شبكة عريضة ومتينة من الجذور الى ما تحت سطح الماء، لتصل حتى اعماق النهر.

اغلب ابناء المدينة، كانوا من السباحين الماهرين، يعرفون اسرار، وخفايا تلك التشابكات المتواشجة في الأعماق. بعضهم كانوا يدخلون غوصاً تحتها، وينتشلون من بين تشابكاتها جثث الغرقى، العالقة. اذ كان يبدو مسالماً فيغري الضيوف والغرباء على حدّ سواء بالسباحة فيه، حيث يتخيل لهم بانه نهر هادئ، وغير عميق. يبدو لأول وهلة من السهولة الوقوف على قاعه غير العميق، واغلبهم ينخدع بصره، ولا يعرف الارض الحقيقية لقعر النهر، فتنزلق الارجل، ويدخل الى متاهة ما تحت التشابكات، حيث لا يمكنه الصعود الى سطح الماء للتنفس.

اذ تبعد الضفة عن الاخرى بأكثر من خمسة وعشرين متر، وفي اقل تقدير عشرين متراً، فالأماكن التي ينعرج النهر وينطوي مشكلاً انحرافات تشبه الخطوط البيانية[٢٩]. كانت على ضفتي النهر، وفي مساره القديم، مجموعة كبيرة من البيوت القديمة يصل عمر بعضٍ منها الى اكثر من مئتي عام. تعود ملكيتها الى عوائل قد سكنتهاً بالتوارث، وخاصة تلك البيوت المتروكة التي كان بعضها آيلاً الى السقوط، واغلبها تشكل مجموعات متراصة جنب بعضها البعض، تبدو وكأن النهر يحوطها من كل جانب!.

اغلب تلك البيوت القديمة قد هجرها اهلها خاصة بعد ان تعرض اصحابها الى اعتداءات مباشرة من قبل قرويين هجموا من القرى والضواحي المحيطة بمدينة "بعقوبة"، فبات خيارهم الرحيل الى اجل مسمى، بعضهم لم يرتض البيع بثمن بخس، "لا يساوي ثمن عربة وحصانها" كما كان يقول "نعيم فلفل" وهو تاجر صاحب ورشة كبيرة تقع قرب "خان اللوالوه"، يصنع فيها مسلتزمات عربات الركاب التي تجرّ بالحصان، "فما دامت تلك الاملاك مسجلة في دائرة "الطابو" فهي ملك صرف لأصحابها، ورثتهم، فمنهم مَن رحل ومنهم مَن بقي يعتقد بان رحيله حرام، وعليه ان يبقى في بيته حتى المنية.

- "جرى التآمر عليهم من قبل منافسيهم في السوق"، "او من كان يعمل تحت ايدهم و من تعلم منهم مهنهم". البعض استلم جميع مهام الاعمال، و حازوا على ثقة العاملين معهم، اما البعض الاخر فقد وجد

---

[٢٩] ذكر لي العم جاسم ان للنهر قبل تعديل مساره من القنطرة التي انشأها خليل باشا وحتى ناحية بهرز حوالي ٣٢ انحناءة.

في عناد صاحب عمله فرصة للتخلص منه، فيكون ضحية مصيرها يساهم بترويع غيره حتى يبيع بيته بـ"تراب الفلوس"..

بينهم من اعتصم متعهدا لهم بالمحافظة حتى عودتهم، ولما تأخر الرجوع، وبعد اسقاط الجنسية. صارت تلك المعامل والورش ملكا لمن يديرها، كما جرت الاعراف.

سمعت "ابي" يروي حكاية "ليلو" الصبي الذي كان يعمل في ورشة "نعيم فلفل"، تسلل ليلاً الى بيت صاحب نعمته، الذي كان يعيش وحده في بيته المطل على نهر "خريسان"، كان للبيت حديقة محاذية للنهر، عبر النهر سباحة، ومنها تسلل اليه، ثم خنقه بواسطة حزام من تلك الأحزمة، التي كانت تنتجها الورشة، وسلم نفسه، ثم حكم عليه بالسجن، وتبين إن خاله "علي دخانه" هو المُحرّض على تلك الجريمة، والتي استنكرها أهل المدينة.

بقيت القصة سرّاً حتى خروجه من السجن، وبعد قضاء مدة الحق العام، واختلافه مادياً مع خاله. بدوره فضح تفاصيل الاتفاق بينهما.. بعدها استحوذ خاله على "أموال فلفل" التي كانت جميعها مخبأة في الورشة، وبعد حين ترك الورشة ليعمل في تجارة التبغ من بعد ان اشترى دكاناً صغيرة، ومع الوقت بات من اكبر تجار المدينة.

تقرر ان يكون له مسار مستقيم جديد غير مساره المتعرج، لتعديل ملامح المدينة الجديدة، مع مساره الجديد. حيث باتوا على يقين بان مشروع اعادة ترسيم مسار النهر، سوف ينظمها، لان المسار المستقيم سوف يختصر التعرجات العديدة التي احدثت جزرات معقوفة، ومتقدمة بالتفافات طويلة، بعد أن قيست المسافة- وجدوها تفوق مسافة استقامته، بأكثر من ثمان مرات. بعض البيوت تبدو وكأنها بنيت في

وسط النهر ويحوطها الماء من ثلاث جهات. نهر عميق جداً، وفي كل موسم سباحة يأخذ من الاولاد عدداً لا يقل عن العشرة من كل عام.

تلك البيوتات الصغيرة متراصفة حوله، تطلّ عليه، بأبوابها أو بشبابيكها، ومن المستحيل ان تمر عربة من قربه، من دون ان تتعرض للخطر. لأنها تكون قد اقتربت كثيراً من حافة النهر، ومن الصعب ان يتابع مساره بمدّ البصر، بعد أن حوطته من الجانبين الأشجار العملاقة، وظللته بفيئها الدائم. المتنوعة الاحجام، من اشجار "السدر" العالية، و"اليوكالبتوس" المتينة، وانواع اخرى مُعمرة مثل "التوت" بألوانه، والزيتون بأنواعه، اضافة الى الكثير من الحمضيات وخاصة "النارنج" بأنواعه، وبعضه كان مرّكبّاً على "برتقال"، و"ليمون" بنوعيه الحامض او الحلو، والكثير من الأشجار المزهرة كالرمان، والزعرور، والمشمش. بعضها اشجار معمرة وعملاقة قد يفوق قطرها المتر واكثر. متراصة حول خصره فيشطر المدينة الى محلتين كبيرتين هما الـ"سراي" في الضفة الغربية منه، والـ"تكية" في الضفة الشرقية.

تَطَلَّبَ أولاً ان يشقوا للنهر مجرى بشكل مؤقت، وتم تحويل المجرى الجديد الى مستقيم، وبجانبه على مسافة عدة أمتار، شقوا للنهر مساره الجديد، وعبد باطنه بالخرسانة والحديد. بعدها قاموا بدفن التعرجات التي كانت في مسار النهر. ومن بعد ان كانت ضفافه القديمة من الطابوق والاجر العثماني، تغيرت الى خرسانة. ويوم اطلقوا الماء في مساره الجديد، سمع صوت هدير الماء، وكانه قد قال كلمته بانه لم يعد ذلك الاخرس.

إذ سار مهداراً سريعاً، ومرّ باستقامة، متخذا شكله الجديد من قنطرة "خليل باشا" وحتى "مقبرة اليهود". ربما تلكأ العمل فيه لأكثر من سنتين بسبب عوامل عدة، اهمها انهم لم يعتمدوا على ذوي الخبرة..

/

بعد ان سلمت مهام المشروع الى المهندس المقيم "جوزيف راجي"، الهندي الجنسية من مدينة "كلكتا". ما ان باشر حتى قام العاملون معه بهمّة كبيرة فاستطاع بخبرته تحويل المجرى في ظرف اشهر، بعد ان استعصى على سابقيه، فشطر الامكنة الملتوية بالخط الافتراضي المستقيم.

*****   *****   *****   *****

عندما بدأت الجرافات في جرف بقايا تلك البيوت، التي تقع في محلة "التكية".. سرعان ما انكسرت تحت احد تلك البيوت ثمانية من الجرار الكبيرة المدفونة، او المخبأة في احد السراديب، اذ كانت اغلب البيوت مجهزة بسراديب باردة، ومنظمة لها فتحات تهوية كبيرة، تطل على الازقة، بعضها تستخدم لخزن (المونة[٣٠])، والبعض الاخر لنوم القيلولة ايام الصيف القائظ. كانت تلك الجرار مليئة بالليرات العثمانية التي اغلبها ذهبية، حيث لم يعبأ العمال الهنود، مثلما حدث مع الاولاد من مرج كبير يومها، اذ جمعوا ما ظهر على سطح الارض، وتلألأ تحت اشعة الشمس، وأنقضوا على المحتويات المتناثرة، من الجرار التي تهشمت تحت اسنان الجرافات، حيث لم يبق منها شيئاً، يُسلم للحكومة، من بعد ان اعتبر مالاً عاماً. عندما جاءت الشرطة لتنقذ الموضوع وجدت بان المال قد نفد، وقد ضاع، ولم يعرفوا اين ذهبوا به. الا إن "زيكو" الصابئ الذي كان يعمل صائغاً في احدى محال الذهب، هو الذي اشترى الليرات من الاولاد، ودفع عن كل واحدة "عشرة فلوس"، وكان مبلغا مغريا يومها يعادل "زنبيلاً مليئاً بالخضروات والفاكهة والخبز".

[٣٠] الطعام المخزون من الصيف الى الشتاء او العكس

وبعد وشاية الاولاد ببعضهم الى الشرطة، تمكنت من القبض على ابرزهم، واعترف انهم باعوا كل ما جمعوا من تلك الليرات الى "زيكو"، والذي بدوره سَلّمَ للحكومة نصف ما اشترى، ولم يضع عليه المال الذي دفعه للأولاد..

***** ***** ***** *****

ما حدث في محلة "السراي".. يوم تجمهر الناس ضد قرار البلدية تضامناً ضد هدم ضريح الامام "ابو سيف"، والذي لم يترك احداً من ابناء تلك المنطقة الا وحقق له مراده بمشيئة الله.

كان الرجل فارساً يجيد استعمال السيف بمهارة، وقد شهد له بانه قد دافع به عن المدينة، واهلها. وقاوم كل الذين ارادوا انتهاك المدينة بسيفه الشهير، ويقال بانه حسب وصيته طلب ان مات بان يدفن سيفه بجانبه، وكانت له هيبة عظيمة بين الناس حتى بعد مماته، وتبرع احد التجار ببناء قبة فوق قبره دلت على منزلته الدينية الرفيعة، وانه كان وسيطاً يحقق للناس مرادهم بمشيئة الله، وقد صارت الناس تلتقي تحت قبته..

يعود نسبه الى احد اعيان المدينة اليهود. عشق امرأة من منطقة الـ"منجرة" من اصول مسيحية، وعندما ارادها تبرء من دينه، وكذلك هي ايضاً تبرأت من دينها، واعتنقا الاسلام، ليضمنا سلامتهما من طائفتيهما، واجتهدا كثيراً في الدين الجديد. فصارا من كثرة تدينهما، يلمان بأحوال الفقه الديني، وصارا يجيبان على اسئلة الناس في تطبيق الشريعة. وكان للجامع بيت مجاور قد سكنا فيه، حيث لم يغادرا المكان. بيت توسط المدينة، وقد حاطه النهر من ثلاث جهات.

يوم ان جاءت الجرافات لتحفر للنهر مساره الجديد، تطلب ان ينقل رفات "الامام" الى مقبرة الشريف الرضي "ع". فأشاعت المدينة بان "الامام" لم يقبل بان ينتقل الى مكان اخر، وفسروا تأخير المشروع، "توحيد مسار النهر" كل تلك المدة الطويلة.. الى ذلك. فكلما تقدمت جرافه كانت تتعطل بمشيئة الله، وتتوقف عن عملها، "يخرّ عنها زيتها" وسرعان ما تتحول الى خردة. كما شاعت حولها قصص مثيرة التفاصيل مفادها "بان الملائكة كانت تحرقها ليلاً"، لأنها تعارض مشيئة الله، لان الله عزّ وجل قد اختار له المكان الذي يدفن فيه، ولا يمكن لأية قوة على الارض ان تعارض مشيئته.

وعندما تعهدت الشركة الهندية ان تكمل المشروع، ووفق ما ارادت "وزارة التخطيط العمراني" في المدينة، عهدوا بالأمر الى احد العمال الهنود المسلمين واسمه "رجاء الدين"، فصعد الى جرافة، بعد ان صلى ركعتين امام الجميع، و انطلق يجرف المكان بحركة واحدة، دون اي تأخير، وقد سار بمحتواه الى مقبرة الشريف، حيث وضع ما حمله، هناك، ولم تتعطل ماكينته حتى دقيقة واحدة.

يوم ذاك حضرت جمهرة كبيرة من اهل بعقوبة الذين تجمعوا حول المكان، ليروا ما سيحل بالهندي، وجرافته. لكن اي شيء من ذلك القبيل لم يحدث. بعضهم بقي خائفاً لساعات، ولم يستطع حتى النظر من بعيد، والبعض الاخر بقي يراقب عن كثب.

والعجيب في الامر، لم يجدوا اي جثمان للرجل او للسيف الذي في القبر، بعض الناس توقعت بانها سوف تجد "الامام" باقياً على حاله بدمه الذي لم ييبس ابداً، وكأنما قُتل قبل ايام، فهكذا طبيعة الرجال المؤمنين.

لكن بعضهم اشاع على الملأ؛ ان "البطل" طار الى السماء، ولم ينس سيفه...

*****   *****   *****   *****

لم ينكر احد ما حدث ل"عماد"، في نهار تلك الجمعة، عندما سرق له احد الاولاد من "رجاء الدين" سائق الجرافة زجاجة "العنبه" الحارة.

وان "نهاد نونو" هو الوحيد الذي يقدر على احضار تلك الزجاجة الكبيرة، والمحفوظة في صندوق الجرافة، بعيداً عن المتطفلين.

فعلها، وبادلها معه بزوجين من الحمام الزاجل، فقد كان "نونو" يتمنى الحصول عليهما، ثم وفي بوعده ولم يتأخر عنه "عماد".. لأجل أن يراهن عليها انه يستطيع أكلها دفعة واحدة، ولن يهمه فلفلها الحاد. يومها راهن "ابن خالصة" واتفق معه؛ ان استطاع اكلها لوحدها، امامه. سوف يسدد عنه دينه القديم امام الجميع كاملاً، فأراد ان يعتق نفسه من الاحراج الذي يلمّ به، كلما طالبه به مدينه.. كان "أبن خالصة" قد جرب العنبة تلك. ويعرف ماذا سيحدث له لو انه فعلها، فكان قد تراهن عليه سراً.. مع اربعة آخرين من اصحابه بمبلغ يفوق المبلغ الذي سوف يدفعه. بعضهم كان يتقصد ان يحلّ مكروه به، والبعض الاخر كان يريد ان يستمتع ببقية القصة المضحكة..

فغالبا ما كان "عماد" يتحدى الموجودين في المقهى، ويسكتهم بزعيق كريه.. بقي اغلبهم يتمنى فشله، وخسارته في رهانه البليد.

/

وما حلّت تلك الظهيرة، حتى اخرج العبوة من الكيس امام جميع الحاضرين في المقهى، وتعهد الرجل امام جميع الرجال، بانه سوف يحقق وعده، ويدفع عنه دينه كاملاً. بشرط ان يتذوق منها بأصبعه، ويتأكد من انها العنبة المتفق عليها. وراح "عماد" يتحدى بها كل ابناء محلة "التوراة".. الذي بقي يتخيل لوحده بان الجميع يعرفوا بطولته ولم ينكروا عليه قدرته على تحمل الشطة الحادة الموجودة في العنبة الهندية الأصلية.

بعدها لم يصدق أحد ما حدث للرجل، بعد عدة دقائق من تفريغها الى جوفه دفعة واحدة، وبكل ما فيها، ثم مسح كالأبطال فمه بكمّ قميصه. لم تمض لحظات حتى انتفخت اذناه، وتدليا كأذنيّ الفيل، وجحظت عيناه، وتحول لونه الى الاحمر الفاقع. وانتشر الانتفاخ الى كل جسده، فكاد ان ينفجر، كبالون سعته لا تحتمل النفخ. ما ان حاول ان ينهض، حتى سقط مغشياً كانه ميت، ولا حراك فيه..

حتى اخذوه الى العم "نجاوي"، وهو مساعد طبيب.. له خبرة في هكذا امر. فعرف بان ضغط دمه قد صعد، وكاد ان يؤدي بحياته، فجرحه مشرط حاد في رجله وخاصرته، وجعله ينزف، حتى ارتاح، وامر ذوييه ان يشربوه قدحاً من عصير الليمون الحامض. فالرجل كان يعرف ماذا عليه ان يفعل، وقد انقذه، من ذلك التهور، والغباء. "الرجل قد اعلن اسلامه قبل ايام، من بعد ان تعرض الى محاولة اغتيال".

بقي "عماد" يبرر ما حدث له أن الامام "ابو سيف" قد وضع سخطه في قنينة العنبة التي اكلها بدلا عن الهندي "رجاء الدين"..

***** ***** ***** *****

على حافة النهر، وبالقرب من جامع "الشاهبندر" كان هناك ايضاً، ضريح آخر لم يقل شهرة عن غيره، ولكنه كان لامرأة فاضلة؛ عرفت بـ"الستة مومنيّة"، ويلفظونها برقم الستة، ولا يسمونها بـ"الست"، اذ تناقل الاسم اهل المدينة كأي أسم قديم، ولا يمكن تغيره، ويقال بانه لأحدى المتصوفات المباركات، حيث لا يمكن تغير اسماء الصالحين، والصالحات.

لم يكن للضريح قبة، سوى غرفة صغيرة، لها باب مشبكة بالحديد، ومقفولة بقفل كبير، وكلما كسر الاولاد العابثين القفل، يجدون في اليوم التالي قفلاً اكبر من سابقه، وللغرفة المبنية بالحجر. شباك ربطت عليه اشرطة من قماش اخضر، لم يعرف احد في المدينة تاريخاً مكتوباً للسيدة الجليلة "الستة مومنيّة"، بقي ضريحها يتمتع باحترام كامل، فأغلب النسوة التي تعكر حظهن في الزواج، ربطن شريطاً اخضر كبقية الاشرطة، ليجدنّها في اليوم بان عقدتهن قد حلت، وبعد حين قريب يأتيها النصيب. قالت احدى النسوة لأمي، بانها رأتها في الحلم، امرأة بيضاء، طويلة، وكانت ترتدي ثوب عرسها الابيض، وأوصتها ان جاء نصيبها، فعليها ان تهدي بدلتها البيضاء بعد انتهاء العرس الى عروس فقيرة، وشيئاً فشيئاً حتى صار ذلك الفستان من اهم الفساتين، وصار يدور بين البيوت، بانه فستان "الستة مومنية" المباركة..

وبات يعرف بـ"ثوب البركة"، حيث لم تغرز ابرة في فستان جديد غيره، حتى تهرأ، وتلف. بعدها ادخلوه الى غرفتها من تحت الباب، وبقي هناك.

مضت احدى العجائز تحكي قصتها التي سمعتها عن جدتها، بان رجلاً مؤمناً امتحنه الله في ابنته البكر، فصادفها رجل من دين آخر،

وتزوجته بعد ان هربت معه الى مدينة بعيدة، وطلب في صلاته من الله ان يهبه اولاداً مؤمنين، فوهبه خمسة اولاد، بدلا عنها، وكلهم ساروا على نهج ابيهم في محبة الله، ولكن الله سبحانه قد اعاد عليه الدرس، اذ رزقه بعدهم بابنة سادسة عظيمة الجمال، ولم يشأ الرجل الا ان يسميها "الستة مومنية"، لتكمل الايمان بالله وتكملهم، وقد خاف عليها كثيراً من عيون الرجال الاخرين، ولأنها كانت فاتنة الجمال، وعندما علم بانها قد نضجت وصارت في سن الزواج، وتعلق فؤادها بشاب، اراد ان يتزوجها، ولكنه كان من غير دينها، ولما عهدها لم تغير اصرارها. قام بحبسها في تلك الغرفة الحجرية، وجعل اخوانها الخمسة يتناوبون على حراستها، فلم يجعلها تشاهد احداً، بعد عزلها، وبقيت سجينة، حتى ماتت ملدوغة على سجادة الصلاة، ودفنت في نفس الغرفة.

وجدتُ من يقول لي بان العمّة "سناء" كانت تحفظ الكثير من شعر تلك المرأة المباركة، مثلما تحفظ الشعر العربي القديم، وكانت تنسخ منه الكثير في كراس انيق، ودائماً تذكر منه ابياتاً كلما جاءت الفرصة المناسبة. وكلما تحضر الى مجالس النساء، تقرأه منه على اسماعهن، وقد قسمت الابيات التي كانت تحفظها الى ابيات حسب القافية.

***** ***** ***** *****

حكاية "حبيبة" روتها لي جارتهما "ام عبد"، التي كانت تسكن دربونة أخرى مجاورة الى "دربونة التوراة"، حيث قالت عن يقين ان "حبيبة" لم تغادر بيتها مع المغادرين، لأنها وحيدة. ودودة يحبها الجميع وتحب بيتها. كانت تخيط للنسوة جاراتها اغلب ما يحتاجونه، بلا مقابل.

- "ما حدث للعجوز الطيبة حبيبة الخياطة مخجل ومخزٍ، كونها لم تكن تبخل على ربيبها "فرفر" بشيء، وإنما بقيت تعامله كابنها، من بعد ان حرضوه عليها ظنا ان صندوقها مليء بالنقود، وطعنها بسكين الغدر"..

لم يتكلم النهر، ويجلي عن نفسه، ولكنه بقي يستمع لحكايات من يجلس على ضفافه.. يصغي بحياد، عما جرفتهُ المصائب، والاهوال العظام.

***** ***** ***** *****

اما "خليل طرب" الملقب بـ"خليلو" شاع بين الناس بأنه تعلم اصول الغناء الهندي علي يد استاذه المهندس "جوزيف راجي" حيث صادف سكنهما في نفس الفندق الذي اختاره المهندس "جوزيف"، لقربه من موقع العمل، واثناء رسمه مخططات تعديل مسار النهر، وكانت الكذبة لا تمرّ على اغلب الذين يعرفونه، ويعرفون طبيعة الرجل الذي لم يكن يتلقي به اكثر من دقائق في باب الفندق، عندما يصادفه في الصباح الباكر ذاهباً الى موقع عمله، ومن النادر ان يتكرر ذلك اللقاء في المساء، اذ يعود الى الفندق بعد الواحدة ليلاً.

عمت شهرة "خليلو" في ارجاء المدينة، لكونه يغني يومياً في عربة بحصان واحد تجول الشوارع، تؤجرها ادارة سينما "ديالى" ولأجل الاعلان عن الفيلم الذي سيعرض.

***** ***** ***** *****

من بعد اكساء ضفافه بحلة جديدة، تقلصت مسافة عمقه الى خمسة امتار، اي انه خسر اكثر من سبعة أمتار عن عمقه السابق. فصار

اعلى من مستوى البيوت القديمة؛ هذا ما خمنهُ عمي "جاسم" الذي كان احد هواة الغطس تحت الماء. من بعد ان تفقد كل تغير فيه، اذ صفق بيديه، كأنه يبدي اسفاً كبيراً من بعد ان "اصبح نهراً اخراً"..

- "شاخ السبع فعبثت بذيله الثعالب"!!

كما تبدل اسمه الى نهر "سارية"، نسبة الى احد القادة العرب في الماضي السالف. وصار له على جانبيه، حديقة ازهار جديدة غير حديقته. وتعبد بجانبه شارع للذهاب على شماله، وآخر للإياب على يمينه.

وامتدت فوقه اكثر من خمس قناطر للمشاة، ثلاث منها لعبور السيارات. ثم ثبتوا في اوله مضخة كبيرة، لتدفع الماء من ثماني مثلها، وتقابلها على الضفة الاخرى ثماني مثلها، كما ثبتوا مصابيح ملونة لونت بمساقط ضوءها الماء، لتبدو اثناء الليل اشبه بكرنفال ينثُ ماءه على العابرين، والجالسين الذين صاروا يأتون اليه من كل انحاء وضواحي المدينة، وليجربوا متعة تناول وجبة من الطعام على ضفافه الجديدة..

صرتُ اعرف يقيناً ان "عمي جاسم" اول، واشدّ الكارهين لتلك التغيرات التي حصلت للنهر فهو المولود عام "١٩٢٨"م الابن البكر ل"علوان دندي"، حيث نشأ في اقدم البيوت الصغيرة التي كانت مرتمية في حضن النهر..

- "اذا شاخ السبع عبثت بذيله الثعالب"!! .

***** ***** ***** *****

/

همس لي مره يوم كنت اجلس تحت فيء اشجاره العالية، ورجلاي متدليتان في مائه البارد، ودفقاته المتتابعة بنغم "شتراوس" تسري بعنفوان؛

- "انه كان واحداً من اهم أبطال المدينة البارزين، شارك في ثورة العشرين، ونقل العديد من انواع الاسلحة التي استخدمت في دعم الثوار".

حملَ لهم العتاد الكثير بالقُفَفْ الصغيرة، التي كانت تطفو مع مسرى الماء متوجهاً بها صوب ناحية "بُهرز". كانت تلك العوامات الصغيرة الدائرية، لا يلتفت اليها أحد، ولا تعلق أو يوقفها غصن، وكانت امينة لا يتسرب اليها الماء، لان باطنها واسفلها كان مطلياً بالقار، وتبقى تندفع طائفة، بكل حمولتها، فتصل الى اماكنها المحددة..

١١

"قرطاسُ لحظكِ سيفيض ألقاً،

رجوتكِ أن لا تعذلي".

قالت: "فما الكتابة والعذل يا صاح"،

قلتُ: "عجباً أني لم أنَمْ الليل،

واسمع حفيف ورق الخريف"..

*****   *****   *****

كانت الإضاءة ليلاً جيدة جداً في الحديقة العامة الصغيرة التي تحاذي نهر "خريسان"، الممتدة من قنطرة "خليل باشا"، وحتى تقاطع ساحة "سارية". تغري معظم أقراني، والأكبر مني، أن يتواجدوا فيها لغرض المذاكرة استعدادا لامتحانات الصفوف المنتهية.. بعضهم كان يذهب إلى قاعات الانتظار المكيفة في محطة السكك، والبعض الآخر، كان يذهب إلى الشارع العام القريب من بيت المحافظ، حيث كثرت كشافات الضوء الكبيرة، وجعلت من ليله نهاراً.

توطدت علاقتي بـ"عباس زرزور"، أثناء مذاكرتي في الليل داخل سياج حديقة نهر "خريسان"..

كل ليلة التقي به خمس دقائق، وامضي عنه إلى كتبي وأوراقي. اتركه يفترش كومة جرائد، ويمضي في نومه، وعادة ما يكون قد شرب حصته اليومية المجانية من العرق التي قرر "ميخائيل" أن يعطيها إياه.

كذلك "أبي" كان يعطيه كفايته من الأكل، ويوصي كلّ العاملين معه، أن لا يقصروا معه. كان "ابراهيم دندي" كريماً إلى ابعد حدّ مع كل المُعدمين، والمُدمنين، الذين ينتشرون في أنحاء الولاية، ويقول عنهم انهم "ملائكة تائهون قد اضاعتهم اهاليهم". فهو يجيد قراءة وجوههم، ويميّز بين العدواني، والمسالم..

يعدون على الأصابع، ولا يبتعدون عن محيط نهر المدينة، الا في النادر.

"رزوقي ابو الكش"، "حسين أرمني"، "فؤاد طرزينة"، "كاكه نام دار"، "عناد الطويل"، "عزوز"...

فقد عمل "عباس زرزور" في مرآب السيارات مع "سعدون دلال"، وبقيّ يبيت معه في غرفة داخل المرآب. ولما تُوفِيَ بقي يجول في الفنادق، وعمل فترة في السينما، بعد ان تركها "ابي"، ولم يرق له الحال فيها، فاكتفى "عباس" أن ينام على إحدى الأرائك الخشبية الموضوعة خارج مقهى "مناتي"، وتارة يغير مكانه إلى الحديقة.. تعود عليه أولاد معارفه، يمازحونه، ويعيدون عليه جملته التي غالباً ما يرددها، فيعيدها عليهم مبدلا حرف السين بالشين.

- "السلامُ عليهم يوم يبعثون"!.

لقد نال بعزّة نفسه احترام الجميع، فلا يثقل بطلب على أي احد، ولا يكشف جوعه لأي كان. كنتُ أعطيه ما يمكنني إعطاءه من النقود، فلا

/

يأخذ مني إلا ثمن سيجارة أو سيجارتين، وكنت أشاركه ما تعدّه لي "أمي" لآكله أثناء القراءة..

غالباً ما يمتدح "أبي" أمامي، فيقول:

- "أبوك بطل حقيقي، لا يقدر على قهره أربعة رجال"

فأقول ساخراً:

- "جان فالجان [٣١]"..

فيضحك ويقول لي بأنه "قرأها ايام زمان"، فأمطّ شفتي دلالة عدم التصديق. فيقسم لي ويقول "بروح الأرواح الطاهرة"، بأنه "قرأها"، ويؤكد قائلاً:

- "جزاء سرقة رغيف واحد من الخبز دفع بقية عمره من الماسي"!.

أعجبني كثيراً ذلك. ورغبت أن يخبرني أين قراها. هكذا امتّد الجدل فيما بيني وبينه، فيظن بيّ أني لا أصدقه، وأيضا يقسم من جديد، ويؤكد لي بان هكذا أبطال موجودون في كل زمان ومكان، ثم يمسح فمه يواصل القول:

- "مثلا الحوذي "عباس ياسه".. هل سمعت عنه؟.

- "نعم اعرفهُ"!.

---

[٣١] * الشخصية المحورية لرواية البؤساء بقلم "فكتور هيجو".

- "مرة سقطت عربته فوق حصانه في حفرة قرب مدرسة "الحكمة" وأمام عيني رفع العربة لوحده ثم سحب حصانه إلى خارجها"!

ضحكت قبل أن اتركه، وقال بسرعة:

- "تظنني اجاملك"؟، ثم واصل القول:

- "الم يحدثك أبوك عن إنقاذه لعائلة "ناجي يعقوب" كلها من الغرق"؟

اضطربت أوصالي، ولكني بقيت أصغي له، فقال:

- " أبوك رجل طيب وعلى سجيته.. اذهب إلى دروسك ودعني لأنمْ"!..

- "عمي "عباس" بالله عليك لم دائماً تكرر جملة "السلام عليهم يوم يبعثون"؟.

- "دعني لأنمْ".

فيضحك ويقول:

- "يخبرك إبراهيم دندي لو سألته"؟..

أردت أن أقول له بان "أبي" لا يتحدث إلي إلا قليلا، وأن اكشف له طبيعة علاقتي به، أردت أن أتحدث عن حاجتي إليه، ورغبتي بردم الفجوة التي صارت تتسع بيني وبينه مع الأيام.. أردتُ أن أقول بأنه لم يحدثني يوماً عن حياته.. كبقية الآباء، فما زال يتركني اسمع عنه، ولا اسمع منه. اسمع من البعيد والقريب، ولم يسمعني إياها بنفسه. بالرغم

من انه لم يجعل مني أعاني في مأكلٍ أو ملبس، أو عناية ومتابعة، بقدر ما جعلني افتقد فيه الصديق. كنت اسمع أغلب زملائي، يروون مغامراتهم الطيبة عما تحدثوا به إلى آبائهم، وعما سمعوه من أجوبة شافية، وجعلتهم ينظرون إلى الحياة، بتحدّ، أما أنا فكنت حجيز الممنوع، ولا أعي المسموح. فكاد دربي أن يكون على حبل مربوط بين قمتين، يمرّ من فوق نار، لا بد من العبور. ثم مضيت عنهُ بعد أن أشعل فيّ الأسئلة النائمة..

بعد أكثر من ساعتين عدّت بالقرب من مكان نومه على فراشه الورقي في جانب من الحديقة، كان يغط في نومه، مثل كل مرة بجانبه قنينة عرق فارغة.

***** ***** *****

- (كلّ الضعف هو ان تستمر بالكتابة عن طفولتك المعذبة البائسة، فتمسي أسير مصيدة الذات المهزومة، أو أن تفتح مذكرات المدرسة وتنتحب، لتكتب تاريخاً فاشلاً، مخزياً، ينقلب فيه السارق، المأبون، الفاحش إلى بطل، والحقيقة ليست سوى وجوه عدة، تغطي بها وجهك، لتظهر البريء الساذج، الطّيب.. يجب ان تعلمنا بمصائر الناس الذين كتب عنهم، ان تعطينا الكيفية التي وصلوا بها الى نهاياتهم، المعلومة الدقيقة هي التي تجعلنا نصدق ما آل اليه الحال[٣٢])...

---

[٣٢] القول لبارت

بقي "بارت" يحلل الخطاب التاريخي التقليدي "لتسليط الضوء على الطريقة التي يؤقلم بها التاريخ نفسه، وينتج سردياته بوصفه خطابا رسمياً من خلال تجاهل حضور التاريخ بوصفه مؤلفاً، وخلق مظهر من الوصول إلى الماضي".

سرد الحقيقة يغري، ويغوي..

ويخادع ايضاً اذ صار فيه التعس الأرعن الأجوف من الناس قائداً صاحباً للقرار، ولا يقل بؤساً عن سلة قمامة، مُتخمة. فما كتبت سوى بؤسك، وعدم فعاليتك.. "ترودوروف، مثلاً، حدد الاستعارات والوسائل السردية المشتركة بين التاريخ، وسرد الرواية، وتشاركهما باللغة، ليقول إن خدعة السرد تُقرض الماضي شكل القصة، واستيعاب أحداث الماضي بالتماسك والوحدة، والامتلاء، والغلق.. التي لا يمكن إلا أن تكون وهمية". وجدتني قد دخلت محنة السرد الشائك، ولست سوى بطل محوري بلا فعالية.

ربما قال احدهم، معترضاً: لا تظن بسرد سيرة الآخرين من الذين حولك، سوف يغض القارئ عن ما يجري داخل رأسك قليلة التجربة.

بقيت أنت بلا ملامح، بلا وجه واضح، تشبه الشبح، أين هي صورتك في المكان؟..

تثير السؤال وتتركه بلا إجابة، إثارة السؤال بطريقة كطريقتك!. دليل هنّتك؟...

فلا تحاول الإثارة بغموض لا تدرك عمقه؛ ذلك الإحراج عينه. لم يعد التاريخ كيانا مستقرا، وأصبح من المؤكد أن هناك واقعاً خارج النص، أو سياقا يمكن فهم الأدب بمقابلته به. كما أنه لم يعد سياقا مستقراً

/

يمكننا من الحكم على صواب أو خطأ السرد التاريخي من خلال المرور السريع، ثمة وقفات تحتاج الى سرد دقيق، متضمن وجهة نظرك كسارد.

أما "باختين" فقد لحظ في هذا السياق، أن التاريخية الجديدة "تعيد صياغة التاريخ باعتباره معركة ضد القص والتخيّل".

الواقع؛ أن إعادة تشكيل الربط بين الخيال والتاريخ التي قام بها المؤرخون الجدد. تؤكد على أن تاريخية النصوص، وتناص التاريخ توحي بأن كاتب السرد يمكن أن يتقاسم دور المؤرخ. يشغلك دوماً البحث عن الهوية في التاريخ، بعدما تدهورت مصادر الهوية الأخرى، بين شدة مَوَران الصراعات الإقليمية، بالأحزاب، والأديان، فتكتب كإعادة نظر في كتابة تاريخك الشخصي، فكل ما كتبت محض سيرة بائسة لتجمع بائس، ولم تملأ فراغ الحقيقة الفاضح.

ألم تشبع غرائزك يوماً، ومن حولك لا يدعي النبوءة، والكمال. أين محطاتها التي لا يمكن أن يعبرها الكاتب المحايد. الإبداع ليس محايداً، بل موقف من الحياة "الماضي الذي لم تحدثنا عنه كتب التاريخ بوضوح*[٣٣] ".

لم تفهم كيف يسرد السارد سرده، بعد. فكل سارد لا يسرد إلا صورته، مهما تقنعت الوجوه. وكل قارئ قد لا يقرأ إلا باحثاً بين الصور البينة عن صورته. بتطابق ما توافق بينك وبينه سوف يصدق به، ويؤمن.

---

[٣٣] * امبرتو ايكو.

- "يبتكر الكتّاب المقتدرون عالماً متكاملاً من الخيال، وبعد حين يكتسب من الواقع ألوانه".

الكتابة تأخذ بالقارئ، كحصان التاريخ. ما أن تركبه حتى يطير بك حيث يريد. الكتابة كالموسيقى أما أن تتفاعل معها، أو تنفر منها..

***** ***** *****

لم يكن "صفاء" شيوعياً كأبيه بل متأثراً به، واذ صار يتكلم بمفردات الخاصة بالشيوعية، فذلك ليس دليلاً. ولكنه كان يرفض الانتماء إلى حزب البعث في المدرسة، وبقيَ يسمي نفسه مستقلاً..

ليس كـ"ماجد ميخائيل" الذي هو اكبر منا فهو شيوعي كأبيه الذي كان من أول المنتمين للحزب، والذي أعلن انسحابه من الحزب مبكراً، بعد وفاة قائده الروحي "فهد"...

"الحزب عندما يتغير قائده يتغير حتى جوهره، بقضّه وقضيضه، ويبقون على اسمه، لأجل أن لا ينفض احد عنه بحجة تغير الى حزب آخر"

كان "ماجد" منتمياً ويعلن عن انتمائه، دون أن يخاف، جاءنا طوعاً بصفة "جارنا" ليدربنا على العزف على الجيتار.. فتوهم الاخرين "انه يحاول كسبنا الى الحزب المنتمي اليه".

التقينا في بيتهم، عدة مرات، واخترت الة الكمان، للتمرن على العزف عليها، وبقي "صفاء" محتضناً الجيتار.

بقينا نأخذ دروسا في النوتة، وكيفية قراءتها، وكتابتها. ولم يمض اسبوع حتى كتب عنا تقرير وشاية "مستقلون ويجري علينا تحرك بغرض ضمهم الى الحزب الشيوعي".

وعندما علم "أبي" بالموضوع من احد أصدقائه، ذهب إلى بيت عمي، وبالصوت العالي هدد "سعيد" ابن شقيقه، إن لم يذهب، ويسحب الوشاية، فسيكون الأمر وبالاً على كل من في البيت.. ذلك اليوم منعني "أبي" من الذهاب إلى بيت "صفاء"، وعدم الالتقاء به في كل الأحوال.

***** ***** *****

قال "عباس زرزور"...

- "أنا اخترت اسماً لا يحتاج الى كشف هوية دينية "عباس"، فكان ستارا بدلا من اسمي الأول "عزرا" !!.

ولكنهم لم يقبلوا إلا أن اختاروا لي معه لقباً بسبب قصر قامتي نحافة بنيتي، وسمار بشرتي الشديدة، وشبهوني بعصفور يسمى بـ"الزرزور".. لصق بيّ اللقب أكثر من الاسم المختار. فأحببته أكثر. يوم أن جئت لم أكن أحبّ شرب العرق، كما الآن، أجبروني على تذوقه، فأحببته. أيام سكني مع "سعدون دلال"، فصار العرق نقطة التقاء الساكنين. تعودنا على عرق "ميخا" كما يتعود العاشق على معشوقه. بات العرق مساحة فاصلة، بيني وبين الحنين الذي يهاجمني بين الحين والآخر. فكل قصة عشق لابد وان تمرّ بنكسة، النكسة تجعل من القصة المنسية، قصة على كل لسان. مَنْ منّا لم تمر بقصة حبه نكسة. سوف لن يحتسب عاشقاً، عندما تشرب تطفو فوق ما يربكك ويجعلك عاجزاً عن التخطي. تشرب كلما أحسست بأنك فقدت عشقك الحقيقي.

/

أما –أنا- فضاعت كل حياتي، بعد ان تتبعت أثر "يهوده"، فافقدني أثر ابن "مسعودة".

ضاع الاثر، بل مُحي، بعد ان كنت أتصوره سيكون في قبضة أصابعي. تلك النكسة هي التي جعلتني أعيد النظر، بالأشياء والمعتقدات. بالحقائق، والأوهام.

اكتشفت بأني أضعت عشقاً حقيقياً. بالطبع لم تجرب العشق لتعرف مقصدي، العشق قضية تؤمن بها، مثل أمل تتقرب به من الرب المقدس. العرق يثقل اللسان، ويبعد الخوف.. كلما شربت تقترب إلى ذهنك أمور، أنت تريدها، وعند الصحو. يقترب منك غول الحقيقة، والواقع.

- "ههههههههههههههه"...

بدأتُ افقد السيطرة على الكلمات. صارت الكلمات تأتي لوحدها، جاهزة. الكلمات التي طالما هربت منها، المشحونة في عقلي الباطن، تودّ الاعتراف.. أكثر مما انا أريد ان اجهر به.. اذهب الى دروسك. دعني لأنام، اذ شربت حصتين، صادفني رجل ما، قبل ساعة، جلس بجانبي، وحدثني باكياً عن امرأة يحبها، المسكين لم يكن يعرف بأننا "كلنا في الهوى سوا".

قصص الحب، ذاتها قصصنا، كل منا يبكي على ليلاه. "الليل يا ليلى يعاتبني ويقول لي سلم على ليلى". سمعته إلى الآخر، وبكيت معه. فقال كم تريد من المال، قلت له انتفت حاجتي إلى المال منذ زمن طويل، ولا أريد اليوم أي مال أو جاه، ولا أريد أي مأكل أو مشرب، أريد عرقاً، أي نوع منه لذيذ، يروق لي الغرق فيه. انظر الى ماء النهر "خريسان"، الجاري، أتخيله ان يكون من انهار الجنة، وانزل فيه،

اشرب. واشرب. واشرب.. اذهب اليوم إلى دروسك. عندك امتحان البكلوريا غداً، وأنت تريد أن تعرف قصتي، فهي طويلة وعريضة، بدأت ولن تنتهي إلا بموتي..

بعدها لفّ نفسه بشرشف جديد نظيف، وتمدد فوق ورق الجرائد، وقال لي مرة أخرى:

- "لا أريد أن اضيّع عليك وقت دراستك.. اذهب عني الآن يا بني، وتعال بعد الامتحانات.. وسأحكي لك حكايتي. أعدك".. ثم غطى رأسه، ونام...

***** ***** *****

صحت المحلة على أصوات صراخ فيه تهليل، ودعاء، وتكبير. وكله جاء من بيت "حسنة الخبازة". أخذ معظم أهل المحلة يركضون إلى داخل البيت، ليستطلعوا ماذا يحدث. وقد شرعت الأبواب، ببسملةٌ، وحوقلة، ودفوف.

كأن حدثاً كبيراً قد حدث. سبقني إلى هناك "فؤاد"، ودخل إلى عمق بيتهم دون أن ينتظر دعوة من احد، دخل وبقي في باب غرفة الضيوف ينظر مبهورا إلى عمق البيت كغيره. لم استطع أن اخترق خجلي. كحاجز نفسي، لذلك بقيت متلهفاً أن يلتفت إلي، واسأله عما كان ينظر اليه.

بدت الحلويات، والعصائر تصل إلي، وأنا في مكاني، ثمة حدث مفرح كان يحدث. أردت العودة، اترك المكان، وأن أعود الى البيت، ولكن الناس كانت تدخل، وتجلس في الغرفة المعدة لاستقبال الناس. كان فضولي يدفعني لمعرفة الأمر.

حضر "صفاء"، وتشجعت على الدخول معه، دون دعوة من احد.

كان البيت مؤثثاً من الداخل على أكمل وجه. وقَفْنَ بناتها الجميلات، وحضرنَ بأجمل زينة، وتفوح منهنّ أطيب العطور الصناعية. أما بقية أولاد المحلة كلهم فقد حضروا قرب الباب، ومنهم من دخل مباشرة، ليستطلع ما يحدث في الداخل. كانوا مندهشين مما يرون، ويسمعون، وصرنا عند عتبة باب غرفة الضيوف، رأيت كرسيّاً كبيراً يرتفع عن بقية الكراسي، بشكل واضح، وجلست عليه امرأة جميلة جداً، كانت الابنة الصغرى، التي تخرجت في كلية الفنون الجميلة - العام الماضي. تجلس عليه، وكأنها قاضي القضاة، مرتدية ملابس رجالية، وتضع في رأسها عمامة، متكئة على عصا غليظة، كتلك التي يتكيء عليها الشيخ في آخر عمره. بدت أصابع يدها مثقلة بعدة خواتم لها فصوص كبيرة من أحجار كريمة. وعلى جيدها أكثر من قلادة، وعلقت بإطراف أذانها أقراطاً لها بريق يومض.. كأنه سحر، وكان يقف على شمالها، ويمينها صبيان أسمران، يبدوان كعبدين مطيعين.. شبكا أيديهما إلى أمام، وبقيت اعينهم تخزر الناس، كحارسي والٍ في إحدى القصص التاريخية.

كأنها أرادت أن تمتلئ بالناس لتقول ما تريد قوله. ضربت البخور بالأنوف، وراح شاب منهم يرش على الحاضرين، ماء الورد، وصارت "تنحنح" كأنها تريد تصفية صوتها قبل ان تلقي خطبتها، فشددت كل العيون اليها. تود ان تعلن بإنها استعدت لقول معد سلفاً.. لكن الناس كانت تأتي إليهم أكثر، متزاحمة داخل الغرفة الكبيرة التي باتت مختنقة، كان "فؤاد" ينظر إليها مثل بقية الناس بخشوع، وكنت انظر

/

إلى "صفاء"، وانتظر ان يقول لي شيئاً.. بقيت محصورا وأريد أن اسمع ما أرادت أن تسمعنا إياه.

بعد حين آثرت أن اخرج من المكان المزدحم، وتركت "صفاء"، و"فؤاد" مع الناس، وعدت إلى وقوفي خارج البيت، أتنفس الهواء مع بقية الناس.

شاهدت صبيين آخرين كانا يضربان بالدف ثلاث ضربات، ورابعة، دون أن يسكتا بالصلاة على النبي. ثم خرجت واحدة من بناتها، وهي تقول بصوت مرتجف - سوف يأتي "نسر" كبير سوف يمرّ من فوق البيت، ويعطينا البشارة.. بينما أخذت اغلب الناس لا تنزل أنظارها إلى الأرض.

صدمني ذلك، وقلت هل أنا في خيال؟.. وهل سيمرّ الطائر الأسطوري حقاً من فوق بيوتنا، وكل هذه الناس ستصدق ما يحدث؟. مضت الدقائق سريعاً ما بين تعليق مؤيد، ومصدق لكل ما يراه، وما بين ناكر، رافضاً المسرحية الفاشلة، والتي لم تعتمد مخرجاً محترفاً، يقنع جمهوره.

بقيت انتظر خروج "صفاء"، أو "فؤاد" اللذين بقيا يتفرجان باستمتاع لما يحدث في الداخل، فآثرت أن أعود إلى البيت، وأكمل ما كنت اقرأ فيه.

مررت إلى بيت "جدي"، وقالت "عمتي":

- "سوف لن تكون وحيداً، ما دامت أمك حاملاً"!..

وكعادتها بقيت تحكي مع نفسها:

- "يبدو بان الأدوية قد نفعت معها"!..

لم استوعب ما كانت تقصده، فذهني كان مليئاً مما رأيت في بيت "حسنة الخبازة"، فأكلت قطعة الحلوى التي أعطتني اياها "جدتي"، ومشيت بعد ذلك إلى بيتنا.. فالتقيت بـ"صفاء" عائداً، فضحك معلقاً حتى "فؤاد" لم يقتنع بالقصة، وطلبت منه التوضيح..

(روح طيبة تلبست ابنتها، وأكسبتها طاقة تشفي بمشيئة الله الأقرع والأعرج، والأعمى، والأخرس)..

***** ***** *****

قال "عزرا":

- "انحدر بأصلي من مدينة "قادش"، جئت إلى مدينتكم "بعقوبة" قبل خمسة عشرَ عاماً، بغرض البحث عن ابن "مسعودة"، الذي لم يعرف عنه أحد شيئاً سوى اسمه المسجل في احد معابد مدينة "ميلان[٣٤] " الايطالية"...

تطوعت للمجيء إلى هنا، في مهمة ليست بالسهلة، بعد ان كلفني بها "والد مسعودة" بحثاً عن حفيده لابنته، وبعد ان تم أخفاوءهُ إخفاءً تاماً، فلم نجد له ذكراً لا في المستندات الورقية، القانونية. شيئاً نستند فيه على انها ولدت، وتوفيت عقب الولادة.

---

[٣٤] * مدينة كبيرة تأسست فيها جامعة "ميلانو" المتميزة بالكادر التعليمي المتقدم.

حيث لم يسجل ابنها الذكر ويلحق قانوناً بها. كانه لم يعد له أيّ وجود على الأرض المنظورة، بعد العودة من "ايطاليا". واثناء مراسم العزاء تطوعت وقلت لعمي من السهل تعقبه وأين يستقر مطاف الطفل الحفيد، حتى تشبث عمي بكلامي، ففوضني مالاً كبيراً وكل ما يلزمني ثم وعدني بما أريد، وأتمنى؛ أن استقصيت الأخبار الحقيقية حتى يسترد حفيده.

بعدها وصلت ونزلت المدينة أول الأمر، بحجة البحث عن عمل، سألوني كثيراً عن أصلي وفصلي. فأخبرتهم كذبتي باني انحدر من "أفغانستان"، عائلتي أصابها الطاعون، ولم يبق منها سوايّ. بقيت اشرح لهم كيف ضرب الطاعون أهلي وعشيرتي، وكيف كان الوباء الخطير يفتك بالناس. كنت صادقاً في سرد تفاصيل ما رأيت. ولكني كنت أغيّر الزمان والمكان. واحكي عن تلك التفاصيل التي عشتها في "قادش"، وسرعان ما دخلت بين أبناء الولاية، فأصبحت منهم. وسرعان ما وجدت أكثر من عمل، ولكني تشبثت بالعمل بالمرآب لأسباب عدة أهمها تواجدي فيه يجعلني على معرفة تامة بالذي يدخل، أو يخرج من المدينة، والسبب الأهم بأنه قريب جدا من الباب الرئيس لبيت "يهوده، وحسقيال".

كان عملي لا يتجاوز تسجيل المركبات القادمة من بغداد في دفتر يحمل باليد، وتأشيرها عند المغادرة.

بقيت عيني على بابهم.. أول بأول اعرف من يدخل، ومن يغادر..

في العام الأول بدأت أتأقلم مع البلد الجديد، والناس الجدد، فأحبني من تعاملت معه، صرت معروفاً بعفويتي، وصدقي، وحبي لأصدقائي الجدد، وان أعيش بينهم، وحسب. بغاية مراقبة تحركات

"يهوده"، وشقيقه "حسقيال". استطعت ان اكون خفيف الظل في المكان الجديد، ومتآلفاً مع شخوصه.

تصادف باني حفظت جملة قد علقت في ذهني، وبقيت ارددها مع نفسي، لاحظوا طريقتي المتميزة في نطقها، وصرت ارددها لهم كثيراً، بمناسبة أو غير. فكان كل من يعرفني يسلم علي بها "السلام عليهم يوم يبعثون"!، وكنت أشير إلى جهة مقبرة اليهود التي لا تبعد عنا سوى مئة متر، دون أن اكشف غاياتي، خصوصاً انني قد تركت الصلاة بلا رجعة مخافة أن يفتضح أمري، وتثار حولي الريبة.. لأحافظ على نفسي، وأكون واحداً منهم، فالدين مهما كان فلن يغير من إنسانية الإنسان شيئاً. تعلمت القراءة والكتابة في كنيس، وقرأت العديد من الكتب في الدين، وخارجه، فما تسليت بقدر قراءتي لكتب قصص الحب، فما صادفتني بحياتي المرأة، التي تبتدئ قصتي معها. ربما بسبب مظهري الذي يشبه "الزرزور"، وربما لأني بقيت ليومي هذا منطوياً لا أجيد إكمال أربع كلمات، واربطها جوابا إن سألتني امرأة، بسبب عزلتي في الكنيس، وعدم الاختلاط..

لم يأت ضيف من خارج الولاية، وخصوصاً بعد أن تزامنت مع الإحداث الأخيرة، في ترحيل معظم إخواني في الدين، والعقيدة إلى "إسرائيل". فلم يغادر أي منهم إلى مكان خارج المدينة. قلما يتحركون. كل ظني بسبب حرصهم على الولد الصغير، اذ كان يحتاج الى عناية خاصة. ولا يمكن أخراجه حتى إلى الحديقة، ويخافون عليه من تهديد أبي "مسعودة"، ولم يحدث أن غيرت حدسي وحساباتي بان الولد سيكون في مكان آخر. كنت أظن بأنه معهم في البيت.. حتى جاءت اللحظة التي اكتشفت فيها بأنه لم يكن معهم أصلا.

في يوم وفاة أبيهم "ناجي يعقوب"، تيقنت بان الولد لم يكن موجوداً أصلاً. فكل العائلة يوم مات الرجل، اختلت موازينها، ولم يكن احد من المحلة إلا وجاء ليشاركهم مراسيم الدفن.. "باسم الله العظيم المقدس"، ولم يكن احد من المحلة إلا وجاء ليشاركهم مراسيم الحداد. فخرج "حسقيال" ظهراً واعدّ قبر ابيه في مقبرة آبائهم، "مقبرة الأسرة" ليدفن الفقيد الى جوار أسلافه، ويودع إلى "شيول" التي لا عودة منها. فالتعجيل بأمر الدفن يؤكده العهد القديم. اضطررت لمصاحبتهم، متظاهراً بالمساعدة في البيت مع "يهوده"، وشقيقتهما "سناء"، فالحدث كان حدثاً جللاً خلف الاضطراب.

رحت أساعده في إلباس الميت "طيلسانه[٣٥]" الذي كان يصلي الذي كان يستخدمه أثناء حياته. حتى عاد "حسقيال" بعد ان اعدّ القبر، وبدأنا نصلى "الإشكناز"، وطلبنا الغفران من الجثة.. قبل الخروج من البيت فصار عندي الوقت اللازم للبحث عن الطفل ولم أجد أي اثر له، حتى ملابس الحمام فتشتها، بحجة أو بغيرها، حتى أيقنت بأنهم لم يجلبوا معهم الطفل "مكابيوس"، وشاركتهم مراسم الدفن والاحتفال البسيط بعد تلاوة صلاة "القديش[٣٦] ".

لم اصدق ما جرى، ولم اعرف ماذا سأفعل فأرسلت الرسالة أثناء مراسم العزاء، كتبتها بالتفصيل الدقيق، مفادها بان الولد غير موجود معهم في البيت. ثم غلفتها جيدا ثم سلمتها إلى سائق يسلمها في بغداد إلى احد السائقين العاملين على خط النقل بين طيبة، وبغداد..

---

٣٥ * الطاليت: ملابس الصلاة.

٣٦ * صلاة وداع الميت

حتى جاءتني رسالة السخط والملامة، والتقريع والنعت بالغباء، وعدم الشعور بما يحترق من قلب الجد. فقطعت عني النقود، وبقيت خائفا من كل قادم جديد إلى "بعقوبة". مخافة العقاب، والنيل مني كخائن، ولكني أثرت الصمت والكتمان، فلم افضح الأمر، وبقيت مفكرا بمصير الولد، وأين استقر به المطاف، وكان من المفترض أن تصحبني امرأة في هذه المهمة، لتعرف من النسوة الخبر اليقين، وتكشف السرّ العصي. فلم يغادر "يهودا إلى "بغداد" ألا نادراً، وان غادر، فلم تتجاوز سفرته الساعات المعدودة. ويعود إلى بيته سريعاً. امن الممكن أن يكون تركه في ايطاليا، فكيف يصبر كل هذه المدة على عدم رؤية ابنه..

بقيت خائفاً مرعوباً، لا ادري أين ستحطّ بي القدم ان رجعت إلى طيبة، وسأنال عقوبة على تضييعي فرصة إيجاد ابنهم. ونزعه من أبيه، بأي ثمن.

أما كان الأب أكثر تحسباً منهم، ومحا كل أثر له، اذ جعله في مكان بعيد، وآمن، وأما أن يكون الولد قد مات، بعد موت أمه!.

ضاع الأمل أكثر بعدما توفي والد "مسعودة"، وتغير الحال، وقد مضى علي أكثر من خمس عشرة سنة، وأنا بعيد عن أهلي. بعد أن رحل اغلبهم عن "قادش" الى "إسرائيل"، وصرت خائفاً بعد ان هجرت أهلي وديني، وربما يكشف سري فيحل بيّ ما حلّ بمثلي. فلم تعد تأتي النقود إليّ، كما كانت تأتي..

ثم رحيل "يهوده، وحسقيال، وسناء" في ليلة غير معلنة تاركين بيتهم بما فيه للنهب. ضاع مني الأمل نهائياً بمعرفة أين استقرت قدم "مكابيوس"..

صرت عاشقاً للعرق، لا يشغلني أمر سوى التقرب من معشوقي. بعد ان تجاوزت سنين الخامسة والخمسين سنه، ولم تَعِدْ لي القابلية على العمل.. حيث لا مكان استقر به، من حر الصيف القائظ. أو برد الشتاء القارص. لا مكان اذهب إليه، وصرت حائراً تائهاً، أنام هنا وهناك. وأحياناً يأتي إليّ الأكل كل مرة من اي بيت، كالصدقة..

***** ***** *****

طلب مني أن أبدل ملابسي بأحسن ما عندي، لم يقل لي أين سنذهب، لم أجد شجاعة لأساله. ولا يحق لي، كما كان يحب منه أبوه رحمه الله.. يريدني أن افعل ما يريد، وحسب. كان يمشي بصحبتي صامتاً..

- "درس الرياضيات الذي تشكو فيه عدم فهم بعض المحاضرات.. أليس كذلك"؟.

- نعم يا "أبي"!.

سكت ولم يقل لي شيئاً آخراً.. بقيت أمشي معه حيث أخذني إلى بيت في الضفة الثانية من نهر "خريسان".. طرق الباب، وبعد لحظات ظهر لنا رجل اسمر البشرة، في عمره، لكنه لم يكن غزير الشعر مثل "ابي". رحب بنا كثيراً، وكان الرجل في غاية الهدوء، ويرتدي بنطالاً وقميصاً ويحمل في يده كتاباً، فسألني الرجل مبتسماً، اعلم بانك اول مرة تصل بيتنا ايها الشاب النظيف، وراح يسألني عن جدتي، وعمتي، وختمها بسؤال عن" أمي"، وطلب ان أوصل لهم سلامه. بعد قليل فتحت الباب الداخلية، فإذا بـ"عزيز شلومو" يدخل علينا.. كمن صحا من النوم قبل قليل، وكان نظيفاً كعادته، وكأنه قد ارتدى أحلى ملابسه.

سلم على "أبي" بودّ دلَّ على معرفته من قبل، وردّ عليه مبتسماً يمازحه:

- " كيف حالك يا إبن سليمان"؟

طالما أثار فضولي، وكيف يعيش، وكيف يكونون أهله. بقيت مدهوشاً وأنا أُنقّل نظراتي في ارجاء الغرفة التي جمعتنا، فلم تكن اية صورة على جدارها، ولا شيء سوى كراس، ومنضدة خشبية، بدون مقاعد. وكانت ستارة بيضاء غطت النافذة. ولم يضيع الولد الوقت.. سحب مجموعة أوراق، وباشر يشرح لي المحاضرات التي لم افهمها. تركنا أبوانا وجلسا في الحديقة الخارجية. وبقيت أصغي إلى "عزيز" يعيد عليّ المحاضرات، بتسلسلٍ ودربة حتى نهاية الكتاب.

قبل ان نودعهم، اخرج "عزيز" كاميرا قديمة، وقال ما رأيكم أن نلتقط بعض الصور، لم يمانع "ابي"، وبقي "عزيز" يلتقط صورة لي مع "ابي"، واخرى ثلاثتنا، بعدها ناولني الكاميرا لالتقط لهم ثلاثتهم سوياً.. تصافح الاباء، وتصافحت لاول مرة معه، ثم خرجنا.. كنتُ أكنّ إليه احتراما، وإعجاباً، ولم أعرف كيف اشكره..

١٢

قالت "أمي" احضر "أبوك" حزمة "شيتات [٣٧]" من السينما، وطلب أن نغطي بها جدران غرفتك، مؤقتاً، فالطلاء لا ينفع معها. لأن حيطانها مبنية من الطابوق الأحمر..فشرعت بالعمل دون أن اطلب مساعدتها. بعد أن أتعبها الحَمِلْ، وصارت بالكاد تجرّ خطواتها، ولكنها لم تتكاسل لحظة عن مهام البيت، من طبخ، وغسيل ملابس، ولم تكن ترضى بأن أساعدها في اغلب شؤون البيت، بدت سعيدة بالاستقلال في بيتها، وبحملها أيضاً!!.

حملتُ الحزمة الثقيلة التي كانت اغلبها مطبوعة على ورق كبير فيه نسبة كبيرة من النايلون، لتقاوم الأحوال الجوية وأشعة الشمس، وجلست على أرضية الغرفة الفارغة، إلا من كرسي قديم كان متروكاً في البيت قبل الانتقال إليه، حشوت مقعده بوسادة قطنية، واستخدمته بعد ان اشترت لي "أمي" منضدة من الخشب، قد وعدتني بها، ووجدتها تصلح لان أضع عليها آلتي الكاتبة، والمذياع، وبجانبهما ملزمة الأوراق، كنت قد شكلت مجموعة أوراق مكتوبٌ فيها المعلومات

---

[٣٧] * الشيت: مصطلح يطلقه العاملين في السينما على منشور الدعاية الخاص بكل فيلم، وغالبا ما يظهر معلومات عن اسم الشركة المنتجة للفيلم واسم المخرج، وابرز الممثلين المشتركين فيه، وكذلك لقطة مختارة معبرة مأخوذة منه.

التي تخصّ "مكابيوس"، ولم تكن سهلة القراءة من قبل غيري. كنت مطمئناً عليها، لأنها لن تبدو سوى حزمة أوراق فارغة.

افترشت الـ"شيتات" على ارض الغرفة، ثم أحضرت المطرقة، والمقص، والمسامير، وقطعة من الكارتون القوي بعد ان قسمتها إلى مربعات صغيرة، لتوسع من قاعدة المسمار، فيحصر المنشور، ولا يدعه ينفلت لان الـ"شيت" ثقيل.. غالباً ما يكون مصنوعاً من ورق خاص فيه نسبة عالية من ألياف النايلون، فهذا ما كنت أراه يفعله المرحوم "ناجي الأعرج" عندما يعلق منشورات دعاية الأفلام على واجهة السينما.. كان في نهاية كل يوم جمعة، يبدل "شيت[٣٨]" الفيلم القديم، بالفليم الجديد.

لم يفتني أي فلم كانت تعرضه السينما، خاصة يوم الجمعة دور العاشرة صباحاً وينتهي في الثانية عشرة ظهراً. كنت اذهب بصحبة "عمي" الذي أكمل خدمته العسكرية الإلزامية، وبقي يعمل فيها بصفة بواب لدور الـ"ستين" قاعة الدرجة الثانية، وعمي "جاسم" لم يترك مهامه عند بوابة الـ"تسعين" قاعة الدرجة الأولى. فاغلب الأحوال قد تغيرت، وتبدل معظم الكادر العامل فيها. خاصة بعد أن ترك "ابي" العمل فيها، وعمل في مطعمه الصغير، ثم توسعت المقهى من حوله، وصارت تحيطه من ثلاث جهات، وتكبره بثلاثة أضعاف. فلم يعد جمهور السينما كما كان في السابق حريصاً على متابعة ما تعرضه، وبعد غياب العائلات عن عروضها. مهما بلغت الأفلام من حشمة او حوت وعظاً اجتماعياً. اغلب زبائنها انتبذوها إلى المقاهي من بعد أن حضرت فيها أجهزة التلفاز الملونة، وصاروا يفضلون المقاهي، لما

---

[٣٨] * مانشيت

فيها من ترفيه والعاب الطاولة. وبقي "أبي" مبتعداً عن مواكبة التغيرات في المحطة التي استجدت فيها مطاعم عديدة، وبقي مطعمه صغيراً كما كان، قياساً بحجم المقهى التي اتسعت واجهتها، وأثاثها. اذ بقيّ بجانبها مثلما بدأ..

نظمت "شيتات" الأفلام، وعلقتها على جدران الغرفة حسب الأحجام، والموضوعات. تحسباً لدخول "أبي" إلى الغرفة، فالواجهة تصدرت بها "افلام" الكاوبوي، والمسدسات، أما خلف الباب، فجعلتها تزخر بأفلام الغرام، والقبل، وقد غطيت معظم السيقان العارية والصدور المكشوفة التي ظهرت بصور لأفلام فوقها، وصارت الغرفة مليئة بالألوان، والوجوه، والخطوط، وكأنني أحفظ لأغلب الأفلام موسيقاها التصويرية، اذ كانت اشهرها تهدر في ذهني، فتجعلني احلّق في عوالم بعيدة عن كل توتر. كنت اعمل باستمتاع، موازناً بين هذا الفلم الذي أحبه، وذلك الفلم الذي اجهله، أو الذي لم أره. أكملت تغطية الحيطان، ولم استطع ان أغلق الفتحة العالية التي كان يأتي منها الضوء، فغلفتها بخشبة مربعة قابلة للحركة استخدمها ساعة أريد لتبديل الهواء او لدخول الضوء..

ثم أنزلت من السقف سلكاً كهربائيا، وعلقت فيه مصباحاً، جعل الغرفة مضاءة ليلاً، وأخذت الأشياء في الغرفة تتخذ طابع الخصوصية، فلم يدخل الغرفة "أبي" لأي سبب كان، وبقي كعهدي به لا يكلمني إلا بشان هام. كأن الهوة التي بيننا تتسع، فكلما أريد ان اسأل، واريد ان اذهب الى مكان اتوقع منه عدم الموافقة على اي عمل أقوم به، فهو لا يكلفني بالتسوق، يتسوق حاجيات البيت، بنفسه. ويرسلها مع أيّ حوذي يعرفه، بعد أن يعطيه أجرته كاملة، فتعودنا كل صباح. أن يطرق بابنا- ويسلمنا احدهم ما أرسله "أبي" من السوق. ولكني كنت أكثر حرصاً

على المواظبة بالذهاب إلى المكتبة العامة، إذ كنت أشعر بان هذا الحق سأحرم منه، في أية لحظة. كما حرمت من اللقاء بـ"صفاء"، وغيتاره. لكني حرصت على الذهاب بوقت محدد، لا يتجاوز الساعتين، وسرعان ما أعود إلى البيت حاملاً ما استعرته منها، ثم أعيده في المرة التالية، بعد الانتهاء منه.. كنت أعود إلى البيت سريعاً، مخافة حرماني من الكتب الكثيرة التي تنتظرني قراءتها. بعد أن صار في داخلي رفض غير معلن لمحيطي كلما أحسست ببؤس اهتمامات زملائي، وأولاد جيرتي.. أتحسس من اهتمامهم بالحمام الداجن المبالغ فيه، فلم أجد أحداً منهم يهتم بالقراءة كهواية أو بالشطرنج، أو بالموسيقى، وبدأت صداقتي تقتصر على عدد محدود.. بقيت اقرأ باستمتاع، والعالم من حولي يغصّ بالألوان، والصور الجامدة..

***** ***** *****

وصلني صوت آلة الكمان في أول الصباح، هادئاً مسترسلاً، عازفاً باقتدار أغنية فيروز "نسم علينا الهوى". أصختُ السمع راغباً في تتبع الصوت.. صرتُ راغباً في معرفة مصدر هذا السحر، كانت النغمة تريد أن تأخذني حيث ما تشاء. لكني سمعت معها صوت "أبي" يسعل في الغرفة التي اختارتها "أمي" لتكون مطبخاً. لحظت من شباكها الذي لا يحوي على زجاج، قد وضع إبريق الشاي على الموقد، واخذ يستعد للخروج إلى مشوار يهمه.. بقيت انتظر بلهفة، خروجه ليمكنني تتبع النغمة التي أخذت طريقها إلى كل حواسي، وصارت تفور في داخلي. وبقيت مثل فأرة يقودها "الناي السحري" موقنا بأنه يريدني وأنا المتلهف تجذبني.

لم يبق "ابي" طويلاً ثم خرج بعد أن سأل "أمي" ما تريده من السوق، إذ تعود كل يوم أن يسألها عما تريد طبخه. بعد ذلك عادت إلى

/

النوم، وصار الفضاء أمامي مفتوحاً لمواصلة إشباع فضولي في متابعة الصوت.

لم يكن بيتنا الجديد جديداً، بل كان بيتا قديماً، ولكن نزولنا فيه جعل منه جديداً علينا، كانت اغلب الدرجات المؤدية إلى سطح الدار متداعية، وينزل منها التراب، ولكني استطعت أن أوسع خطواتي عليه، فعبرت كل اثنتين بخطوة واحدة.

الشجرة التي توسطت باحة البيت تجعل البيت مغطىً بأغصانها، فكانت الشمس تعكس على شجرة أرواق التوت، فتعطيها اخضراراً نضراً..

وجدت الصوت يأتي من بيت "ميخائيل"، فظننت بان "ماجد" يتمرن مثل كل مرة في باحة حديقتهم الخلفية التي تجاورنا.

كان الجدار الذي يفصل بيننا وبينهم، لا يتجاوز ارتفاعه المتر، تقدمت خطوتين منه، وصرت استطلع بدون أي جهد. فرأيت فتاتين احدهما "كرستين" شقيقة ماجد والأخرى بشعر أشقر تتناوب معها على العزف. كانتا تتلاقفان آلة الكمان بسرعة فائقة ويظهر لسامعه بان المقطوعة يعزفها عازف واحد، كان درساً متقدماً من دروس تقنية الكمان، لا يقدر على مجاراته إلا العازفون الماهرون. كانتا تتضاحكان، وكان ضحكتيهما، ما ينقص اللحن العظيم من عذوبة، ومن كمال، وإبداع. كنت موقناً بان "كريستين" ان نظرت صوبي فانها لن تراني، لأنها تعاني من مشكلة في نظرها، وقد وضعت على عينيها نظارة سميكة بين الحين والحين تنزلق بثقلها على انفها فتنزل ثم ترفعها بعجالة.

/

أما الفتاة الثانية التي معها جعلتني التفت إليها. بقيت أمام "كرستين" وكلي ثقة بأنها لن تراني من وراء نظارتها التي أوقعتها في مأزق عدم الرؤية البعيدة والقريبة أحياناً.. فبقيت انظر دون توارِ خلف الحائط، اسمع وارى الضحكات الرقراقة، وهي تتصاعد كموسيقى مكملة لما تعزفان، وتتحديان به بعضيهما..

تمنيت ان تلتفت صوبي لارى وجهها. كأن لمعان شعرها يومض ليعطي الصباح ألقاً طيباً متناغماً مع جملة موسيقى "الرحباني" البديعة. ولكن ماذا عساني أن التفتت نحوي ورأتني، هل سأسحب نفسي، أو أغوص في مكاني. بقيت افتعل انشغالي بالنظر إلى النخلة العالية، وبدت ضحكتهن تتصاعد، وتتجاذب بين نغمة وأخرى.

بقيت مندهشاً لا اعرف كيف ابقي نفسي وارى الوجه، فلأول مرة أتعطش لرؤية وجه امرأة.. ولم أكن اعلم بأن وجهها الجميل، سيأسرني. فلما التفتت، قد أيقظت فيّ إحساس العصفور الذي يكتشف بأنه يمتلك جناحين ولابد أن يطير بهما.. بقيت أحدق في قسماتها، وكأني لأول مرة أشعر بان هناك عالما آخر من الليونة الطيّب، لم اكتشفه بعد، بقيت واقفا ارنو إلى طلّة محياها، وكأنها اقرب اليّ من كل هذه المسافات..

(امرأة لا تشبهُ إلا بعضها من طين ورخام جُبِلَتْ.. سُئلَ ناحتها بأيِّ براعةٍ مَحَوْتَ عني زوائدي، فأنهضتني إليك من الرخام، صقيلة، ممشوقة، آسرة، مضيئة؛ انكِ وحدي، وإني وحدكِ.. حرفي، هو حرفك)..

قسماتُ وجه حلوّ، كأنه لمعة ماء رقراق تنساب عذوبة، تشرقُ، تحييّ. وجهٌ جاذبٌ أنساني كل خفري، وحيائي. جعلني ارتجف كما الوتر الذي ينزلق عليه قوس الكمان، فيقول:

- "الله ما أجملك"!..

كأنها استقبلت مني ما بثثته نحوها، فالتفتت صوبي تاركة آلة الكمان، في حضن صاحبتها، بعد ان تدفقت انغاماً منسابة، تتبادلها عيوننا. لم تستسلم لخفر حواء وحيائها، ولم تحوّل نظرها عني، أشرق وجهها بابتسامة مديدة، طيبة. وبقيت ملتفتة صوبي، كأنها قالت "هذا الرجل يناسبني". لاحظت "كرستين" ذلك المدّ من الانجذاب، فاختصرت لها هامسة.

- انتبهي جارنا مسلم ... اسمه "محمد"!!..

ثم توارتا خلف الشجرة..

***** ***** *****

قالت صديقة "أمي":

- (أنت لا تذكر عندما كنت في الثانية من عمرك، أيام كنا نسكن سوياً في بيت الحاجة "خجّه"، كان البيت كبيرا، ويحوي على أكثر من عشر غرف في الطابق الأرضي، وأربع غرف كبيرة في الطابق العلوي، كل واحدة بحمام مستقل، وكانت أحداها لكم، وكان عندكم فيها تلفاز صغير بالأبيض والأسود، مصري الصنع ماركته نصر، وقتها كان حاجة ثمينة جداً، ولا يقدر أي من الناس على شرائه. كانت "أمك".. كل يوم مساءً تمدّ الهوائي، وتشغله لنا إلى أن يعود "أبوك" من عمله، فتطفئه، وترجعه إلى مكانه في دولاب الملابس. فنعود إلى غرفنا في

الطابق الأرضي، وننام.. مازلت أتذكر لعبتنا أنا وإياك، لعبة البلورة المسحورة، كانت مسلسلة مصرية تحمل هذا الاسم، وكنت آخذك من أمك، حتى تكمل هي أشغال بيتها في النهار، من تنظيف لغرفتها، وإعداد الطعام. كنت اقضي اغلب نهاري معها فهي لم تكن تكبرني كثيراً، وغالباً ما كنت اجلب لها ما تحتاجه من السوق القريب، سوق "الصدرية "، كانت صديقتي، واحترمها كثيرا، كانت تساعدني في دروسي، وعلمتني الخياطة، على "الباترون[٣٩]"، لولاها لما كنت خياطة ماهرة، كنا سوياً نلعب ثلاثتنا، ما شاء الله أصبحت رجلاً)!..

***** ***** *****

(قال "هيرودتس" في أحدى هوامش كتابه التي كنت اقرأها في أحلامي، فغالباً ما يتكرر مشهد صف طويل من الكتب المتراصة، وكل مرة اسحب واحدا منها، واقرأ فيه. سطوراً تترى خلف السطور، وغالباً ما تأخذني حيث متون بلغات أخرى، أجد باني أفهمها جيداً. سطور تسرد أوصافاً لحدائق غناء، وقصور منيفة، نساء فاتنات.. سطور تكشف المكنون، وتظهر المستور؛

- "ربي كلما قرأت نجوت من نفسي التي ما عادت لي نفس سواك").

***** ***** *****

---

[٣٩] * الباترون: منشور يباع مع مجلة متخصصة بتفصيل وخياطة الملابس وهو مطبوع على ورق خاص كدليل لكيفية قطع القماش وكيفية إلصاق أجزاء قطعة الملابس.

بقيت "هي" مع "كرستين" تستطلع من فتحة الهواء، التي تطلّ على حديقتهم. لم تكن أشعة الشمس مباشرة، في الظهيرة تحت شجرتيّ زيتون كبيرتين، ومتشابكتين. كذلك ظلّ النخلات الستة الموزعات على حافة الحديقة، كان مستوى حديقة بيت "ميخائيل" أعلى من مستوى بيتنا القديم، المبني قبل بيت "ناجي يعقوب" بعشرين عاماً، فكانت الفتحة الهوائية تصل الى مستوى كتفيهما. كانت البنتان بطول واحد تقريباً، انسحبت "كرستين" قليلاً الى الوراء، وتقدمت من الفتحة "هي" صاحبة الوجه الذي أحدق فيه دون أن احمرّ خجلاً.

كانت تسألني عمّا يعجبني في موسيقى "جايكوفسكي"، و"بيتهوفن"، و"موزارت"، "فيفالدي"، "سلكبرت"، وكلما ذكرت اسماً كنت اذكر لها اسمه الكامل ((Pyotr Ilyich Tchaikovsky، (Ludwig van Beethoven)، (Wolfgang Amadeus Mozart)، (Antonio Vivaldi)، (Franz Schubert)).. قرأت عنهم كثيراً، ولم استمع لنماذج من مقطوعاتهم الشهيرة، فتضحك، وبصوتها الرخيم، المتباهي، تُعيد عليّ ما تحفظ من موسيقاهم، كانت أشبه بمغنية "أوبرا"، واثقة تمامّ الثقة بصوتها، وهي تتلاعب بأوتار حنجرتها، بحلاوة لن تصلها أية آلة موسيقية..

نبرت "كرستين":

- "درسنا الموسيقى في دير واحد.. منذ سن الخامسة وأنا منذ سن العاشرة"!..

وضعت سبابتها على فم "كرستين".. كأنها أرادتها أن تتمهل في كلامها.. كانت تمدّ برأسها فيدخل إليّ عطرها الذي جعلني لا اعرف كيف أتصرف من ضيف كملاك. فيها حلاوة عينين لامعتين بإشراق

/

عذب، وشفتين كرزيتين متلألئتين كأنهما جلّ ما يشتهى، وحاجبين تناسقا كمفتاح موسيقي خطه رب النغم بيديه، مع انف دقيق كأنه لملكة جمال من "هوليود". كأني في حلم سيتبدد عاجلاً، وفعلا كانت ضيفة بوجهها الدائري الصافي البشرة، الهادئ الأسارير، الضاحك كما نبع ماء يجري على عشب اخضر، زاه. عندما أتحدث إليهما و كأنهما في أعلى الغرفة..

("غرفتك الصغيرة متميزة".. "لن أخبرك اسمي، لكونه مكتوباً أمامك على إحدى الصور".. "سررت كثيراً بالتعرف إليك".. "قضينا ظهيرة ممتعة معاً وقد حان وقت عودتنا إلى بغداد")..

ابتعدت "كرستين" عنها، ولكنها مدّت كفها الي، وتلامست أصابعنا، قبل ان تتصافح الراح بالراح، كأنما تيار قد سرى من يديها الى كل جسدي. ولم تطل المصافحة، كانت لأول مرة تلمس أصابعي أصابع فتاة.. عندما أفلتتها من باطن كفي كأنها سلّتْ من كليّ..

أردتُ أن اخبرها أوشكت أن أنجزَّ مسودة رواية بوليسية، وسأعيد كتابتها لأظهرها بطلة فيها، فلم يسعفني الوقت، رايتها كما فراشة تطير بألوان مبهجة، وتتخطى بعيداً عن نافذتي.. شيئاً فشيئاً ابتعدت عني الأسماء، وراح ذهني ينشغل بصورتها، بحثاً عن اسمها في الصور، ولكني لم أجد اسماً ينطبق على جمالها، فكأنها لم تكن إلا هي بذاتها المشرقة من نافذة الهواء.

***** ***** *****

ابنة "حسنة الخبازة" تعرفت إلى شاب في كليتها، وقد زوّجه أهله من غيرها، ومرت بظرف قاس جداً، وقد نصحتها إحدى صديقاتها بان تلعب هذه اللعبة، وبما أنها قد درست في أكاديمية الفنون الجميلة

قسم المسرح. أرادت أن تعوض خسارتها النفسية.. بلعبة لم تكن قد خبرتها جيداً، وبقيت تحاول أن تلعب دور المرأة التي تلبستها روح احد الرجال المتصوفة، ووعدت الناس بما لم تكن تعرف، فلم تأت معجزاتها مثلما أرادت، ولكن ذلك كان كافياً إن عرفت نفسها لرجال يهمهم أمر ما تعرضه، وحكت إليهم قصتها المختلقة، حتى طلبها أحدهم للزواج، وفي اليوم الثاني تزوجت، ورحلت مع زوجها، ولم يعدّ يعرف احد من المحلة مكان سكنها الجديد..

***** ***** *****

كأنها تخفى خلف القناع جسداً بلون النبيذ الفاتن، ويرسم للوجه سيفاً صبوحاً بألف مفتاح.. فيجنّ بنشوتها ليل، يأتلق خلاله مسار البنان فوق رقائق السفوح اللذيذة، انحدارات طرية، في مكان، وقاسية في مكان..

لمسات لارتفاعات شهية، تولد منها شهقات تعبر المدينة بأسرها، ويفيض النهر، إذ تتأرجح الغصون.. إذ يتدفق ماء قلبه كما يغلي دورق الشاي، فيخرج ما زاد مبللاً ما يحيط؟.. ربما؟.. طعم ذكريات. بطلها مهزوم من وطئ العزم، ومأزوم في ليلها الداج، هارباً نحو سمائها الصاعدة... إلى علوّ بلا أبراج.. سفينته تائهة وسط أمواج البحر المتصارع الأمواج، وبلا قائد... ربما؟.

***** ***** *****

لم كان تحت يدي المال الكافي، لكنت قد اشتريت الدار الذي جاور داري من الخلف. مخافة أن يشتريه احد ما، ويكون علي وبالاً، ونقمة.

لكن من حسن الحظ اشتراه "إبراهيم دندي"، فالرجل هو ابن المحلة اباً عن جد، واعرف سيرته منذ كان في الخامسة من عمره، ويلعب مع أبناء "ناجي يعقوب" صديق والده. في الحادية عشرة من عمره، عندما أنقذ العائلة برمتها من الغرق، أيامها كان بيتهم في الضفة الثانية من نهر "خريسان"، واغلب الناس، أيامها، كانت تنام في السراديب، لبرودتها، وفي ظهيرة أيام شهر تموز، كانت العائلة في قيلولة الظهيرة، وتفاجأوا بنزول ماء جارف، عليهم. وكان القدر قد غلق عليهم الباب وحصرهم في السرداب الذي انحشرت خلف بابه خشبة جاءت مع الماء، فاضطر "الأب" و"الأم" إلى الصراخ، بعد أن أصابهم مع أطفالهم الهلع والخوف، ولكن الماء كان قد صعد إلى فوق أحزمتهم. فأيقنوا بأن ملك الموت صار على مقربة منهم، موشكا أن يقبض على أرواح خمسة أشخاص، ولكن ما من مجيب. الزوج والزوجة والولدان "يهوده" عمره أربع عشرة سنة، و"حسقيال" عمره إحدى عشرة سنة، وابنتهم "سناء" تجاوزت العام. فنزع الأب الصغيرة من أمها وسلمها إلى ابنه البكر، وطلب منه أن يرفعها إلى أعلى ثم رفعه الاثنان إلى أعلى، وطلب من الأم أن ترفع الابن الآخر، مثلما هو يفعل. ولكن الماء كان يتدفق إلى داخل السرداب المغلق بابه. وبدأ يصل إلى مستوى رقبة المرأة، ويتصاعد شيئاً فشيئا، وكادت رائحة الموت أن تقترب من الأم، ولم يكن بوسعهما سوى انتظار الموت المحقق. فصارت ترفع ولدها "حسقيال" إلى أعلى. وكانت في كل مرة تنظر إلى عيون أبنائها الهلعة، وتحاول أن تتمالك نفسها، في تلك اللحظات العصيبة، فلم يكن الدمع إلا ممزوجا مع الماء. كان السرداب محصناً بالطابوق الصخري، الذي لا يفقد برودته بسهولة، وكان بعمق حوالي ثماني درجات نزولا، وله أربع فتحات للهواء كل فتحتين متقابلتين، فيمر تيار الهواء بارداً، وثمة بابان تنفتحان إلى الخارج، الأولى مشبكه صغيرة ذات فتحات كبيرة، عند

صعود الدرج، والثانية ذات فتحات صغيرة تحسباً لنزول زواحف قد تكون مؤذية، بعد نزول الدرج..

كان الماء ينزل من الباب والفتحات الأربع حتى امتلأ السرداب بالماء، لم يسمع "إبراهيم دندي" بصراخ الاستغاثة، ولكنه أيقن تمام اليقين بأنهم عالقون في الداخل. بعد ان تجول بحثاً عنهم ولم يجد أحدا منهم يجيبه، فتمكن من الغوص في الماء حتى أزاح الخشبة من أمام الباب التي كان من المستحيل فتحها من الداخل، وبعد ذلك لقف الام التي انهارت، وكادت ان تختنق بعد ان ابتلعت الكثير من الماء، وسحبها تحت الماء حتى وصل بها الى الخارج، ثم اخذ الصغيرة من يد "يهوده" بدون ان يقول له شيئا، خطفها خطفا، وصعد بها إلى أعلى، بعد ذلك أوصى الأب ابنيه أن يتمسكا به جيدا، وان يمشيا معه نحو الباب التي فتحها "إبراهيم دندي"، ولكن "حسقيال" بقي هلعاً فلم يستطع ان يتحمل ان يحبس نفسه، ويجتاز الباب الى الخارج، فصار عالقاً، بينما استطاع الأب ان يسحب معه "يهوده" الذي كان أكثر صبرا، وهدوءاً. استطاع ان يخرج معه. بينما بقي الثاني معرضا للموت، وبقي يصيح مهتاجاً، وتقلب في الماء دون ان يتمكن من الوقوف على رجليه، لأنه لم يكن يجيد السباحة. بدا يفقد توازنه، محاولا الإمساك بأي شيء، يجده أمامه طائفاً. وفي لحظة يأس وجد "إبراهيم دندي" يتلقفه، ويسحبه إلى جهة الباب، وما أن وصل الباب، فامسك بكل قوته بالباب الداخلية بيمينه، وصار من الصعوبة عليه أن ينتزعه، وكاد الاثنان ان يعلقا، ويموتا سوياً. بعد أن امسك بتلابيبه، بيده الشمال، وكاد أن يخنقه تحت الماء، فما كان منه سوى أن يوجه إليه لكمة قوية إلى وجهه، وأخرى برأسه، فافقده وعيه، وتم سحبه بسهولة إلى سطح الماء.

فرحت كثيرا عندما أصبح جاري، وهو لم يكن من المُدعين بالورَعِ الإسلامي، ولا من روّاد البار، ولكنه بقيَ يفرض احترامه على الصغير، والكبير. لكنه لم يطق الصبر في عملّ، ويتخصص فيه، بالرغم من انه أجاد إدارة السينما لمدة أربعة أعوام، وتركها بعد مقتل "موشيه" اليهودي، وعمل في مطعمه الذي كان ناجحا فيه، ولكنه بقي يهمله. كان "ابراهيم دندي" صديقاً حميماً لنا جميعاً، أيامها كنا لا نسال هذا أو ذاك عن الدين أو المذهب.. أيامها كان "يهوده" يقول مازحاً:

- "واذا اختلفت الأرباب فذلك شانهم أما نحن علام نختلف"!!..

***** ***** *****

ابنةُ جارنا الذي يقابل باب بيتهم بيتنا، ومجاورا لبيت "العمة أمينة"، كانت اكبر مني بعام، وطلبت مني أن أكون صديقها، ولكني لم افهم مقصدها، عندما طلبت من ان اكون صديقاً لها. فأخبرت "صفاء" بالذي قالته لي.. ضحك كثيراً، وبقي كأنه غير مصدق لما أخبرته به، فاخبر صديقا له اسمه "إياد" وهو ابن جارنا، حكاية الفتاة معي.. كنت حائراً في ذلك الشأن الذي تسميه بالصداقة، ولكن الثاني شرح لي الأمر بإشارة نابية.

لم أحاول أن التقي بالفتاة، خجلا منها، ولم اعرف كيف أتصرف معها.

لكني بعد عدة أسابيع رأيت "إياد" يقف معها، وهزتني وقاحته عندما دنا منها وقبلها بكل جرأة في تلك الظهيرة، وقرب باب بيتها. بعدها شاعت في المحلة عنهما آلاف القصص...

- "إياد، ميساء"..

لم اهتم كثيراً بأخبارهما.. ثم سمعت بان "العمة أمينة" طردتهما سوياً من بيتها بعد ان ضبطتهما في أمرّ لم يسرّها.

***** ***** *****

بقيت بعيداً، واحلم بتلك البهية عاشقة الموسيقى. حاولت أن التقي بـ"كرستين"، ولم افلح لأجل أن اعرف منها اسم تلك الفتاة، ولكنها، صارت تتهرب مني، ولم استطع أن اكلمها إلا ذات مرة كنت في سطح دارنا، وكانت هي تبكي في سطح دارهم.. ولم أجد حينها الفرصة الملائمة لذلك السؤال.. بعد ان خففت عنها، وحاولت أشغالها بعدة أسئلة الا إني لم اسألها اسم ضيفتهم، وخصوصا بعد أن مضى على ذلك بضعة شهور..

أخذت بعدها "كرستين"، تعتقد باني اهتم بها، وعندما سألتها عن صديقتها. احمر وجهها، وقالت :

- "أرجوك نحن لا نصلح لبعض"!!.

لم افهم منها شيئا، ولكنها في اليوم التالي اخبر ت "أمي" باني قد عاكستها..

وجعلتني احرج كثيراً معها عندما سألتني عن أصل الحكاية، ولما ترددت في ايجاد اجابة مقنعة، لامتني كثيراً، واعادت علي بانها ابنة جار، وعلينا حقوق الجار علينا بان نحفظها كما هم يحفظون حقوقنا.. جعلتني ابرر لها ولكنها لم تقنع باي تبرير..

١٣

ما أن جاءت نتائج الامتحان بالنجاح، حَلَّتْ عليّ العطلة الصيفية، وكأنها شارة بدئها، كنت قد وضعت جدولاً فيه مساحة كبيرة لكتب نويت قراءتها من المكتبة العامة. ومن بعد نجاح ساحق في دروس الرياضيات ، بفضل مساعدة "عزيز شلومو"، قطعت شوطاً كبيراً في مادة "الجبر" التي كنت لم افهم منها بعض محاضراتها، على عكس مادة "الهندسة" التي كانت تروقني، فجاء نجاحي بدرجة كاملة.

بحثت عنه لتأكيد شكري وامتناني إليه، ولكنه لم يأت بنفسه إلى المدرسة، لأخذ قائمة الدرجات. بعد أن نال الدرجات الكاملة في جميع المواد.

عدتُ فرحاً إلى البيت، ونويت أن استأذن "أبي" لزيارة "عزيز شلومو"، في اقرب فرصة، قبل أن يرحلوا، حسبما ذكر لي، ذلك، في مرة سابقة، ولم أنسها. لما وصلت البيت. وجدت "عمتي" تطلب مني أن اذهب إلى بيت جدي، وانتظر هناك إلى أن تأتي بعدي، لم افهم، وأردت أن اعرف السبب، فغضبت مني، وقالت "عيب.. اذهب وستعرف فيما بعد". رأيت مجموعة من النساء في باحة بيتنا، وكان صوت "أمي" مرتجفاً، وخائفاً بينهن.

قالت امرأة جارنا تطمئنني:

- "لا تخف حان موعد ولادتها"!!.

***** ***** *****

مَنْ يصل بيَّ إليكِ؟..

درب الضباب، أم الخطوة العاثرة؟..

***** ***** *****

بعد أن ولدت "أمي" شقيقي "خليل"، لم أعد إلى سابق عهدي اذهب إلى المكتبة، وأعود منها بكتاب، ولم اشغل "الراديو". اختلت موازيني مؤقتاً، بالرغم من النجاح، الذي كنت أعوّل عليه، وأتحول إلى مرحلة الإعدادية. بقيت منطوياً لا اكلم احداً، ولا ارغب في الأكل، وعندما تأتي إلينا صديقات "أمي" زائرات، يُهنّئنها بسلامتها.. كنتُ اختبئ خجلاً من فضولهنّ، ونظراتَهّنَ المستغربة، وأسئلتهُنّ المُحرجة، بعضهُنّ أوعزنّ سبب الانطواء الذي داهمني هو أمر طبيعي لكلّ ولد تلد أمه بعده، مولوداً، و"مهما بلغ عمره"، "خمس عشرة سنة"، وأخرى نطقتها بكل وقاحة، "الغيرة لا تعرف البلوغ". طاب لـ"أمي" كلّ ذلك، فأخبرت به "أبي"، وسرعان ما طلب مني أن اذهب إلى بيت العم "فرمان" مع "صفاء البيروتي"، لنتعلم منه الموسيقى، وقد اسعد "صفاء" الأمر كثيراً، فحمل غيتاره، وانطلق معي، يردد أغنية أحببناها كثيراً، "ضيّ القناديل لعبد الحليم حافظ"، وبقيّ بعدها يحدثني عن حبيبته، التي التحقت إلى دير في الموصل، "وانه لم يقل لها كلمة واحدة، وبقي يحلم بها، أكثر من سنتين"، ولما وجدني لا أتفاعل مع قصته الخائبة.. أحبّ أن يغيظني، فسألني:

- "المفروض أن يسموك خليل"!..

- "إعادة استخدام أهلنا للأسماء المكررة.. فهم ما زالوا يعدونه واجباً دينياً"!..

- "عسى أن يكون مثل سميه عندما يعيد التاريخ نفسه"!!.

- "ماذا كنت تتمنى من الأسماء.. لو لم يسمِّك الأهل "صفاء"؟..

صمت مفكرا، وكأن سؤالي أوقعه في حيرة. بعدها طلبت منه أن يعرف لي اسم "حبيبتي"، فضحك ساخراً "لن تعجب بمثلك إلا "كرستين العمياء"!!.

فاضطررت إلى أخباره بما جرى بيننا. فتواصلت ضحكته الساخرة، وراح يحاول أن يغير كلمات الأغنية، ويقحم فيها اسم "كرستين" عنوة، ولم يستطع. لكنه تذكر أنه سمع من إحدى عماته الثلاث بان شقيق "ميخائيل" جاء ليشتري البيت الذي اشتريناه، ولم يعجبه حينها، وبقيت زوجته، وابنتاها "إليزابيث"، واسم الثانية لم يتذكره، في ضيافتهم لمدة أسبوعين، في بيت عمهم "ميخائيل". وسبق لهما أن زارتا عمته بصحبة إبنة "ميخائيل" لغرض الخياطة، ولم يكن متواجداً ساعتها. فرحت بما سمعت منه، لأني سأتحقق من كل الأسماء المكتوبة على "شيتات" الأفلام التي علقتها على الجدار في غرفتي الصغيرة المواجهة لفتحة الشباك التي أطلّت منها عليّ. وبقيت همساتنا الضاحكة تميد بنا الأرض، والفضاء نحو الأحلام، بكل براءة.

كان صفاء متوسط القامة، ويكبرني بعام واحد، ولكني زدت عليه في الطول بعض الشيء، كان يخبئ تحت أصابع يده الشمال سيكارة، مشتعلة. وغالباً ما يجددها بأخرى، وكان يلّح عليّ بان أجرب معه سجائر "بور سعيد" المغطسة بمادة الـ"ميثول" الباردة، كأنها بنكهة بطعم النعناع، فارفض، وأحيانا اقبل، وكان يقول بأن من له أب مدخن

في البيت لن يفتضح أمر رائحة سجائره. كانت ابتسامته تجعله لطيف الوجه، ويبدو اكبر من سنه، نامي العضلات، دقيق النظر في عيون من حوله، تبدو نظرته حازمة، ولم يبدُ خجولا، على عكس حقيقته..

لم يبعد بيت "العم فرمان" عن البيت الذي يسكنه "صفاء" مع عماته الثلاث، سوى مسافة قريبة جداً، ولكننا كنا فرحين لأننا التقينا، بعد ان كان لقاؤنا محذوراً من قبل "أبي". كان البيت خلف بناية "السينما" من الجهة الثانية، لكننا أخذنا ندور في الأزقة المجاورة، غايتنا إطالة مشوارنا في المشي.

وجدنا الرجل ينتظرنا مع ابنه "خلدون"، وكأن للموضوع أهمية خاصة، فدخلنا إلى غرفة كانت فيها سبورة صغيرة قابلة للحمل، وعدة مقاعد، وعلى الأرض آلتا "كمان" وعلبة جديدة المظهر فيها آلة "الاوكرديون"، وجهاز "الاورغ" كهربائي مغطى بالغبار، منزوعة منه توصيلاته، ومكومة فوقه، بلا اهتمام. ركن "صفاء" آلته بجانبه إلى الحائط، وراح يمسح بأصابعه على مفاتيح الجهاز، واخذ يعزف نغمة يتخيلها، بدون أن يصدر صوتها. لأنه لم يوصل بالكهرباء. ابتسم العم "فرمان" وقال لابنه "لاحظ بني كيف تلتقي أصابع المُحبّ حبيبّه"، وانطلقت ضحكة هادرة صافية من خلدون، وشاركتهم مكتفياً بالابتسام، بعد أن أحسست بـ"ألفة" بين الأب وابنه "ما افتقده مع أبي". فالعم "فرمان" صديقه المقرب، كان يلتقي معه في حبه لسباق الخيل، والاهتمام بجَمع نوع خاص من الحمام الزاجل، وأيضاً عملاهما في مهنة متشابهة، فمطعمه يفتتحه في الصباح الباكر، ولا يتجاوز عمله

به، سوى ثلاث ساعات، قبل التقاء عمال البناء، وبعد مغادرتهم إلى أعمالهم، انطلاقاً منها، وعودتهم إليها تسمى بـ"دورة العنافصة[٤٠]".

اشتهر بين فناني "بعقوبة" كعازف عود قدير، بالرغم من انه لم يدرس الموسيقى في أية مدرسة، حيث بالكاد تعلم القراءة والكتابة، ولكنه طوّر تعلمه، بنفسه، ثم تلقى معظم الدروس الأولية في قراءة وكتابة النوطة الموسيقية من "يهوده"، أيامها، والذي كان عازفاً ماهراً على آلة القانون، وشكلوا مع مجموعة من الشباب فرقة موسيقية متواضعة، تكونت من أربعة أو خمسة عازفين، كان بينهم دارسون، وثلاثة غير دارسين، فاستطاعوا تقديم العديد من الألحان، ولكنها لم تسجل في الإذاعة، لان ذلك المشوار يتطلب حضوراً مواظباً بمبنى الإذاعة والتلفيزيون في "بغداد".

لكنه بقي يؤكد السبب، حسب ظنه، بانه لم يكن بين الفرقة مطرب أو مطربة، يقدم الألحان بصوته، فالجمهور لا يرغب بالأغنيات المؤداة بصوت المجموعة. واستطاعوا أن يقدموا عدة وصلات غنائية على مسرح صالة السينما في نهار بعض الأعياد، وبعض المناسبات، ولم تؤثر على مسيرة عرض الأفلام. وكان جمهور تلك الحفلات لا يستهان به، أيضاً.. يحضرها القاصي والداني من المدينة. وكلها كانت من الحان "يهوده".

قرر "العم فرمان" أن يلقي محاضراته علينا نحن الثلاثة، ما بين ساعات الظهيرة (٣-٥) طوال أيام الأسبوع، باستثناء الجمعة، واخرج من الدولاب، مطبوعاً سميك الغلاف من الحجم الكبير، وعليه

---

[٤٠] * دورة "العنافصة" من الأمكنة القديمة الشعبية، الشهيرة، تعجّ بالناس طوال الليل والنهار.

صورة "محمد عبد الوهاب" مكتوب عليها "موسيقار الأجيال"!. وناولني إياه أتصفحه مع "صفاء".. وكانت في كل صفحتين متقابلتين نوتة لأشهر أغانيه، وقال:

- "في ظرف شهر.. سوف تتعلمان قراءة النوطة وتكتبانها مثل خلدون"!!.

وأضاف ضاحكاً بدون توقف:

- "سنتخذ منه منهاجاً"..

وطلب منا ان يسمعه كل منا ما يقدر عليه من العزف.. بدأ "صفاء" مقطوعة تُغنيها الفنانة "ليلى مراد"، وكنا نصغي إليه، بكل استمتاع، وتركيز.

فقال "العم فرمان" بعد ان أبدى إعجابه بمقدرته على آلة الغيتار: كان كلّ منا مفتون بـالفنانة "ليلى مراد"، وكل منا يحفظ سيرتها وأخبارها عن ظهر قلب (ولدت في الإسكندرية لأسرة يهودية الأصل والدها هو المغني والملحن الحلبي "إبراهيم زكي موردخاي" الذي قام بأداء أوبريت العشرة الطيبة الذي لحنه الموسيقار "سيد درويش"، وأمها "جميلة سالومون" يهودية من القاهرة. درست الموسيقى في مدرسة راهبات. بدأت مشوارها مع الغناء في سن الرابعة عشر عامًا، حيث تعلمت على يد والدها الموسيقار الشهير بـ"زكي مراد"، كذلك على يَد الموسيقار المعروف "داود حسني")..

لأكثر من عشر سنوات بقي "يهوده" هو الذي يدير السينما بنفسه، بكل ذكاء، ويعاونه في إدارتها جدك المرحوم "علوان"، والذي أيضاً كان صديق المرحوم والد "يهوده" المقرب، إذ كانا ملازمين لبعضهما

البعض في أحلك الظروف، ولم تتعرض صداقتهما إلى أية شائبة، أيضا. ففي سنيها الأولى كان "أبوك"، مساعدهما المتنفذ الأول.. كان الدخول إلى السينما يعني لأي شخص يدخلها، حدثاً مهما في حياته، إذ بات غاية، متطلبة، ومن أهم غايات الرجال والنساء. بعضهم كان يأتي من أماكن نائية، ويبيت لدى أقربائه، لأجل أن يحقق حلمه الكبير بالدخول إلى دور من أدوارها. فيزدحم الناس على شراء التذاكر، ويكاد أن يكون من الصعب الحصول على مقعد فارغ في كلتي الدرجتين الأولى والثانية، بسهولة. ابتكر "يهوده" طريقة لتنظيم الداخلين إلى الصالة، فجعلهم يثبتون رقم المقعد على ظهر بطاقة الدخول، وكل مقعد مرقم، بتسلسل يبتدئ من بداية أول صف حتى نهايته، وعينَّ في داخل كل صالة، موظفين أدلاء، الأول لجهة الشمال، ويساعده الثاني لجهة اليمين. مثلهما في صالة الدرجة الثانية.. لتنظيم الجلوس، وكذلك يقومان بوظيفة حفظ الأمن، كل منهما مسؤول عن قاطعه.

فأول عرض على صالتها ١٩٤٦م. كان فيلم "ليلى بنت الفقراء"، بقينا لمدة ثلاثة أيام، نعرض مجاناً، كنت معهم أساعدهم، لأنهم يرسلون في طلبي كلما انقطعت عنهم، لقرب بيتنا، فلم نكن يومها نتوقع بان اغلب أهل "بعقوبة" انبهروا بقصة "فتاة فقيرة تعيش في حي السيدة "زينب" دعتها إحدى السيدات إلى قصرها، وقدمتها لخطيبها الضابط على أنها ابنة الباشا "درويش باشا"، بطولة وإخراج "أنور وجدي" إنتاج سنة ١٩٤٥م، ثم توالت السينما في عرض بقية أفلامها)..

تحمّل "أبوك" مسؤولية إدارتها لوحده.. بعد ما سافر "يهوده" للدراسة إلى ايطاليا، برغبة العم "ناجي يعقوب"، إذ كان يرى بان الدراسة تُعطي قيمة حقيقية للإنسان.. الإنسان غير المتعلم أشبه بقشة تتلاعب بها الريح، وكلما يستفيد الإنسان من فرص التعلم، اشتدّ عوده،

وتَعَمَّقَت رؤيته، وستريان بعد أن تتمكنوا من هذه الدروس الموسيقية، ستجدون بها حرية اكبر، وتتمكنون من عزف أية مقطوعة موسيقية، مهما صعبت تقنياتها، سيكسبكم التعليم مرونة، وسهولة الوصول إلى غاياتكم، الفنية. فالتعليم هو اكتساب معرفة متراكمة من ناس خبيرة، متخصصة بالموسيقى، وتراكمت معرفتهم العملية. نتعلم من السابقين لنا كيف مرت أصابعهم على الأوتار، وأخرجت النغم المستعصي. النغم الساحر، فالعازف الماهر، المجيد هو تراكم خبرات الآخرين في رأس واحدة، تعطي لكل أصبع ايعازاً، فتاتي النتائج العصية، وكأنها طبيعية، سلسة، فتستمتع بها الأذن المتذوقة. كان "يهوده" يعتقد بان الموسيقى هي التسلسل الحقيقي لحركة التاريخ، لأنها ملكوت الأسرار، وكلما برع العازف في توصيل نغمة، اقترب من كشف الأسرار الكونية، الحقيقية، والعصية على الإنسان الاعتيادي.. عندما تبدأون الدرس ستجدون أنفسكم قد دعمت بقوى غيبية، تجعلكم تعيشون حياتكم، وانتم عارفون لأغلب أسرارها.

***** ***** *****

- (دوارٌ، وربما غثيان؛ كلما أحاول فتح ما استعصي عليّ، مما لم افهمه. كأنما اكتب غيماتي علّها تمطر، وتسقي ما جدبت به المعرفة الغائبة. فأرى في غيابها تحقق كتابة، لن تكون حقّة)..

(أكتب اليوم، لأفتح للغدّ طريق بوحي، كيف استند اليوم السابق، وتعشق باليوم، الحاضر. هل الأيام تلد بعضها، أم كل يوم، منها، يولد لوحده.. كل يوم باسمه، وشكله، أم بحدثه. ونحن – تدويناً- من يلصقها. يوما بيوم، ويمتلئ التقويم، فتأتي عليه الإشارات، شطباً. في هذه المدينة التي تعجّ بما تعجّ أية مدينة معرفية ناهضة. أقف على

حافتها، وحيداً، مجرداً من الدليل والمفتاح. خبرة الأكبر منا، مفاتيحنا لفك شفراتها الملغزة).

(وجعي، حيرتي الغائمة بالضياع!!. بالرغم من إني ابنُ رحم هذه المدينة، ابنها من أب، وجد، وأجيال. أراها اليوم طُمِسَ تاريخها، وغاب أهلها الحقيقيين. تبّا لهذا التيه بعد ان فقد الدليل، ومفاتيحه).

(أكتب مواجهة لكل قفل استعصى عليّ فتحه.. تلك الدائمة الحضور التي صارت الجزء الأكبر من اهتمامي. لا سبيل لي سوى أن استمر في هذا المدى ضائعا، بلا اتجاه أو بوصلة، وكلما فتحت قفلا، أصبحت أمام بوابة أخرى تعجّ بالألغاز. تستهلك عمري، واعزّ خلاياي)..

(بعد كل زاوية، رؤية، أجدني، قد تغيرت من حولي مسميات الأشياء، والمعارف. كأنها لم تكن تلك التي اكتسبتها، وغالباً ما ترسخ معارف منطقية، أخرى، أكثر قناعة، بنتائج براهينها الملموسة)

(معارف الماضي صغيرة، وقاصرة أمام معارف الحاضر الكبيرة، والعظيمة)!!.

***** ***** *****

قال العم "فرمان" لم يكن "يهودا" يعود من دراسته إلا مرة لمدة شهرين من كل عام. لما سافر "أبوك" إلى ايطاليا، وراءه، اعتقدنا أنه سيعود بعد إكمال عمل كلفه به "يهوده"، لن يتجاوز أسبوعاً أو أكثر، بعد ذلك كنا نقول مع أنفسنا، بعد كل أسبوع بأنه سيعود قريباً، كان مصطحبا معه "أمك"، لقضاء إجازة، وربما إجراء بعض الفحوصات الطبية النسائية، كانوا بحاجة إليها.

لم نعرف أسباب القرار المفاجئ. فالعم "ناجي يعقوب" لم يكن مقتنعا بسفر أولاده، ومعهم "إبراهيم"، ولكن صديقه "علوان دندي" هو الذي أقنعه، فقبل بشرط عدم التأخير. وما ان تحققت الرحلة. ثم عاد "حسقيال" بعد ثلاثة أسابيع، ليخبرنا بأنهم سيعودون قريباً بعد أن يكملوا تعاقداتهم، مع بعض شركات بيع الأفلام السينمائية، وفعلا كان "إبراهيم" يرسل كل شهر تقريبا فيلماً، وتبين لنا فيما بعد بأنه مترجمٌ من شركة "أنيس وعبيد" اللبنانية، كانت تلك الأفلام التي تصلنا اغلبها مشتراة من شركات عربية، ومحلية. ربما كان "حسقيال"، وراء إثارة تلك الشكوك. بعد أن أثار تأخيرهم في "ميلان"، بعض التساؤلات.

فتيقنا بان "الرحلة" لم تكن بغرض العمل من اجل "السينما"، كما أخبرونا؛ بل كانت لشيء آخر، حتى اني صارحت "حسقيال" بعدم قناعتي. فأسرني بان "طليلة" حامل، وتحتاج إلى رعاية طبية دقيقة، ولم يكن بوسعهم العودة بها حتى تستقر حالتها، وكانت فرحتنا كبيرة، بذلك الخبر، فالرجل تزوج ولم ينجب، ويحلم بان ينجب من زوجته، بعد أن ضاقت به السبل.

وأغلب أقراننا الذين تزوجوا بعده سبقوه بالإنجاب، وهذا ابني "خلدون"، بعد بنتين.

كان "حسقيال" المصدر الوحيد الذي يدعمنا بأخبار الغائبين. نصدق كل ما نسمعه منه، بعد أن تأخروا، وطال اشتياقنا "لإبراهيم دندي".

بعد ان خلف فراغاً كبيراً بيننا، بالرغم من إن عمل السينما لم يتأخر، ولم يتلكأ يوما ساعة واحدة، إلا إن أي إنسان، مهما كان لا يقدر ان يعوض عنه أي إنسان آخر.

أيامها ازدادت الأعذار، التي كان يتحجج بها "حسقيال"، فقال له مرة "علوان دندي"، سائلاً إياه مباشرة إن كان هناك أمر مخفي في الموضوع، فعليه أن يخبره به، وتعهد بأنه لم يخبر به "ناجي يعقوب"، وكان يدرك بأنه لن يستطيع ان يحقق وعده، ويخفي عن "أبيه" شيئا، فأصر على أن تأخيرهم كان لإجراءات طبية معينة.

استمرت إدارة السينما تقدم الأفلام، في غياب "إبراهيم دندي" كما كانت في أحسن أحوالها، وقد عرضت أجمل الأفلام العربية والعالمية، ويقاس نجاح أي عرض حسب بيع شباك التذاكر. ولم تكن السينما الثانية في الولاية "سينما النصر" تنافسنا، كثيراً، كانت متخصصة بالأفلام الهندية، وبعض الأفلام العربية، وعندما عرضت فيلم "أم الهند" حجزت لعائلتي "لوج بأربعة مقاعد"، وشاهدته، هناك، بعد ذلك أكثر من أربع مرات..

***** ***** *****

اشترى لي "أبي" جهازاً جديدا "راديو ومسجلاً مدمجاً في جهاز واحد". وسلمه لـ"أمي"، فأعطتني إياه هدية نجاحي، فرحت به كثيراً، ووضعته على مكتبي الخشبي، مجاوراً للآلة الكاتبة، ثم رحت اقلب فيه مكتشفاً مميزاته، وكل كلمة كانت مكتوبة عليه باللغة الانكليزية ساعدني القاموس على فهمها.

ورحت أبحر وراء النغمات من جديد، محاولاً استعادة اللحظات التي قضيتها في صحبة "إليزابيث[41]"، بعد أن تأكد لي اسمها، فصورتها التي في ذهني حلت فوق صورة "شيت" فيلم "كليوباترا"، فمحت صورة "إليزابيث تايلور"، وصارت محل صورة "اليزابيث" التي زارني وجهها من فتحة شباكي. بقيت أتهجى الاسم، وأتلفظه بأحلى الحروف..

*****   *****   *****

ظهرت نقطة خلاف "ابراهيم دندي" مع "حسقيال" عندما دارت شائعات بان مدير شرطة "بعقوبة" كان شريكهما الخفي في إيراد السينما المالي، في الباطن، ولما علم بذلك الاتفاق الذي كان سرياً، قرر ترك السينما بعد مقتل "موشيه"، وتوجه إلى عمله الحرّ. كنت أرى فيه نقطة غير المفهومة، عدم قبوله أن يسجل "ناجي يعقوب" أو أولاده أي مشروع باسمه، بالرغم من الثقة الكاملة، والصلاحية المطلقة. رأيناه مبدئياً في تعامله مع الآخرين، فلو باع فيلماً يملك نسخته لإحد مدراء السينمات التي يتعامل معها بسعر ما، مجرد الكلام، وقبل ان يستلم المبلغ، ومهما تأخر الدفع، فهو سيلزم نفسه بالسعر المقطوع مهما ارتفعت اسعار الافلام او انخفظت، حتى وان ارتفع سعره إلى أضعاف. على عكس وكيله بائع التذاكر "بوجي"، الذي كان مبدأه كل يوم فلم بسعره، وسلم نقودك حتى تستلم مني.

---

[41] * اسمها "إليزابيث تايلور" بطلة فليم سينمائي "كليوباترا" أنتاج عام ١٩٦٣م، وحائز على جائزة الأوسكار في عام ١٩٦٤م.

لم يتوقف عرض الأفلام فيها يوم واحد.. بالرغم من كل ذلك بقيّ "حسقيال" متفرغاً لإدارة شركة نقل "النفط"، كذلك إدارة أول "بانزين خانه" في ولاية "بعقوبة"، والتي لم تبعد عن بيتهم العالي سوى عبور الشارع العام في ضفة محطة السكة الحديدية التي بناها الانكليز.

***** ***** *****

سألتُ "العم فرمان" عن الرقعة الحجرية المحفور عليها المكتوبة بالخط الكوفي "سينما ديالى تأسست سنة ١٩٤٨م"، وأكد بأن السينما تأسست في عام ١٩٤٦م، ولكن في تلك السنة تغير اسمها من سينما "يهوده" إلى سينما "ديالى"، لان الإجازة الرسمية لافتتاح السينما لم توافق عليها السلطات باسم "يهوده"، فاضطر إلى تغيير اسمها إلى سينما "ديالى". كنت معه اعرف أين ستصل به أسئلتي، فأصغي جيداً، لمواصلة ما كنت قد عزمت عليه.. فاخرج دفترا صغيرا، وقرأ فيه بصوت عال:

- الرفاق يوسف سلمان "فهد" وزكي بسيم "حازم" وحسين محمد الشبيبي "صارم"، أعدمتهم سلطات العهد الملكي في ١٤ شباط من العام ١٩٤٩، بعد ان انتزعتهم من سجن "الكوت"، حيث كانوا يقضون محكومياتهم، وبعد محاكمة سرية صورية أمام المجلس العرفي العسكري.

- عام ١٩٥٧م ، سافر "يهوده" إلى ايطاليا لغرض الدراسة..

- عام ١٩٥٨م، زواجي تم في "خانقين" وبعد يوم واحد عدت الى "بعقوبة".

- عام ١٩٥٩م، قررت قيادة الحزب للأحتفال بالمناسبة في المقبرة، وأصدرت قيادة منظمة "بغداد"، وكنت في قوامها، وكان سكرتيرها عضو اللجنة المركزية، يوم ذاك، الرفيق "صالح مهدي دكلة"، تعليمات تقضي المساهمة في الاحتفال قبل ظهر يوم المناسبة، وأوعزت بأن يذهب الرفاق المحتشدون إلى المقبرة دون أن تتسبب في قطع المرور في الشوارع، والاكتفاء بتنظيم المواكب في بداية الشارع الذي تقع فيه المقبرة.

- عام ١٩٦٠م، سافر "إبراهيم دندي" ملتحقاً مع "يهوده"..

- عام ١٩٦١م، عاد "يهوده" الى ادارة السينما، ولم يعدْ "إبراهيم دندي" الى بعقوبة وبقاؤه ساكنا "بغداد"..

- عام ١٩٦٢م، عاد إبراهيم "دندي" من بغداد الى "بعقوبة" ليساعد "يهوده" في ادارة السينما..

- عام ١٩٦٣م، توفي "ناجي يعقوب"، وصادف معه بنفس اليوم وفاة "علوان دندي". عام ١٩٦٧م، رحيل عائلة "يهوده" من "بعقوبة" إلى مكان في "بغداد"، ثم بعدها رحل مع شقيقته "سناء" إلى "إسرائيل"، وبقاء "حسقيال" في بغداد.

/

١٤

ثَمَّةُ ريحٍ خفيّةٍ، تَسَلَّلَتْ لتُنْفِضَ أشجارُ الخريفَ.

- "ذات مرة سمعتها تعترف بأنها تلاعبت في وثيقة ميلادي، وغيرتها من ١٤/ شهر كانون الأول ١٩٦١م، إلى عام ١٩٦٢م. والتي تحسب زيادة على عمري بسبب بضعة أيام"...

هل كان ذلك عيباً، وما الدافع الذي يجعل "أمي" تنكر عليّ كل تلك القصّة، وكأنها لم تحدث أبداً. وتعود في اغلب الأحيان، لتقارن ما بين الحياة الغربية، والحياة الشرقية. طريقة عيشهم وطريقة عيشنا. كأنها لا تريد النسيان. غالباً ما تقارن الذكريات، والمفارقات، بعد ان تحولت إلى غيمة زائلة. فعادة ما تثرثر الذكريات، وتطفو فوق كل حوار، بمناسبة، او بدونها. فالعقل يرفض نسيانها، يودّ تلوين الحاضر بألوان الماضي. في اغلب المرات أراها نادمة على مضي الزمن الطويل. اسمعها تقارن مع كل زائرة لها، التفاصيل الصغيرة، ساردة اياها بملل سقيم. بعد ان سمعت منها، حتى مللت. وكأنها تعيد حكاياتها كل مرة بحماس اكبر. كأن أحداث سفرتها مع "أبي" قد جرت قبل أسابيع، ولم تكن قبل خمسة عشر عاماً. دائماً ما يكون وصفاً للأمكنة، والتجوال، والباخرة. ودائماً كلما تذكر ايطاليا في التلفيزيون، تستفزّ حواسها وكأن ايطاليا بما فيها تعنيها وحدها، فلم تنس صديقتها "ام جيوفاني" المصرية

الأصل، وإنها تعلمت منها طريقة إعداد بعض صنوف الطعام كـ"الباستا " مثلاً التي لم تكن معروفه في محيطها، وغالباً ما تشرح بتعالٍ إلى جارتنا الطريقة المثلى لإعداد العجين الايطالي، والتفنن في إعداد بعض الحلويات، التي لم تكن مألوفة في زمانها ومكانها. بالرغم من ان مطبخها كان يفتقر إلى ابسط المعدات. لكني كلما سألتها سؤالاً مباشراً. تتوقف عن ذلك التواصل، وتصرّ على نكران ذلك. كان الأمر يفرض علي بعدم السؤال، وكأنني ذلك الطفل الذي يسال عن محرم أخلاقي. ما الغاية من نكران ذلك. وتصر بقوة ولي أكثر من دليل على دحض ما يريدان فرضه. أولاهما الصورة التي شاهدتها مخبأة تحت صورة "ادم وحواء" في غرفة "عمتي"..

إلى متى يستمر الإصرار على ذلك؟. ففي كل مرة اكتشف من زلّة اللسان التي تؤكد سكننا في "بغداد" بعد عودتنا من "ايطاليا" مباشرة، بقينا فيها عامين، ومن ثم العودة إلى "بعقوبة"، بعد موت جدي، مباشرة:

- "ايطاليا.. بغداد.. بعقوبة"!!؟...

التطرف الفردي، والانعزال، والتمرد على التمازج مع العالم الخارجي، جعل في أعماقي سمَة رغبة التحرر، فرسخت عندي أنانية مرضية، جعلتني كمخلوق شائه، انظر بترفع لما حولي مما موجود على سطح الأرض، من شخوص، ومكونات.

نقلتُ لامي، باني اودّ بان ادرس في معهد الفنون الجميلة، ولا ارغب في إكمال الإعدادية، فنقلت ذلك إلى "أبي"، ولم يوافق، إذ كان متحججاً ببعد المكان، وان شهادة الإعدادية أهم من أية شهادة. كنت اعرف بأنه كان يسال أصدقاءه، ويعيد عليّ الجواب..

/

كان ذلك الرأي، ذاته، للعم "فرمان"، وهكذا صار علي ان ابقي مثلما أرادوه لي. أما "صفاء" فانه استشار محيطه، وشجعوه للانطلاق إلى ما يريده..

- "نصّاصُ يا مدونَّ الأوهام. اكتب، فالتاريخ سفينةُ مِزق رقنٍّ طافية فوق الأمواج التي طمست البوح. بعد أن جال بها ليل، فاح من سيرٍ مزورة. اكتب عما يصطفُّ خلف رفوف الكتب العالية"...

***** ***** *****

كان "ماجد" قد اختفى مؤقتاً عن الحارة. وكلما سألت عنه، يأتني جوابٌ مبهمٌ من أهله. وتبين فيما بعد بأنه سافر إلى الموصل، لفترة غير محددة، خوفاً من اعتقال مباغت. تأكد لي ذلك، بعد أن ترك لدي صندوقاً كبيراً، كأمانة، يحوي على كتب اغلب كتابها من الروس، مترجمة للعربية. طبعات مجلدة، وجديدة، وانيقة. بعد أن أكدّ لي انه سيستعيدها مني في اقرب فرصة. لأنه كان يتوقع مداهمة من قبل الأمن لبيته، وكان قد ناولني محتواه من فتحة الهواء والضوء التي بيننا وبينهم. فلم يسع مكتبي الصغير لها مكاناً، فأخذت في عزلها، حسب مضامينها، وحسب الحجم، بعدها، فرشت الكتب التي لم ارغب في قراءتها، فوق سرير نومي، وأعدت فرش فراشي فوقها. ومضيت في قراءة اغلب مقدماتها، ثم دونت في ورقة جدولاً، فيما قررت قراءته من بقية الكتب التي رصفت بجانب الآلة الكتابة.

مضيتُ مبتدئاً برواية كبيرة الحجم من مجلدين الأول يزيد على "٧٠٠" صفحة، والثاني كذلك على "٩٠٠" صفحة. اسمها "الإخوة

/

كارامازوف[٤٢] "، وأخذت تنقلني من عالم القراءة المُسلية، إلى عالم القراءة الحقّة. محورها يدور حول جريمة قتل "الأب" الذي يكرهه أولاده الأربعة. وجدتُ فيها الجريمة "التي تتهم العالم، اجمع"، رواية نقاش الأديان بعيدا عن المقدس المهيب، تناقش وجهات نظر الطوائف، والملل، حول ماهيته، وأشكال رؤيته المتعددة. اختلافاتهم المذهبية، وكل فئة تقدس فيه صورتها، مبتعدة عن كأله مطلق يتسع لكل الأكوان، ما دام خالقها. وجدتها تحرضني كأني لم اقرأها، بالطريقة الحقّة. فلم استطع أن اقرأ بعد أن انتهيت من قراءتها، كأنني وصلت إلى بدايتها، ومازلت أرغب الغوص فيها.. تساءلت هل هي رواية حقاً فيها كل هذه الشخصيات المتصارعة، المتقاتلة، الشرهة، وجدتني امسك بها جيداً. فلا أنام حتى أضم أصابعي عليها جيداً، حتى الصباح. جعلتني أسال نفسي؛ كنت داخلاً في هكذا غابة، شائكة. أكان كاتبها انساناً، قد خلق كلّ هذا العالم المتشابك، الذي جعلني أعيد النظر في كل شيء؟.

بقيت احمل المجلدين معي، حيثما اذهب في البيت، أو في الشارع.

شعرتُ باضطراب كاسح قد ألمَّ بيّ، بعد قراءتها. كأني اقرأ لأول مرة في حياتي. لم اقرأ شيئاً قد جعلني أضيق بما حولي.

هل كنت اقرأ لأول مرة، سؤال سألته نفسي أكثر من مرة، وأنا احتضن المجلدين، وارتجف دهشة، مما مكتوب فيهما.

كلما حدثت "صفاء" عن الرواية، يسخر مني. لكنه نصحني محذراً من حمل أي كتاب مطبوع في "الاتحاد السوفيتي".. فاغلبها كتب

---

[٤٢] * صادرة عن دار "رادوغا"- "موسكو". ترجمة د. "سامي الدروبي"، ومراجعة د. "أبو بكر يوسف".

"شيوعية"، وتكاد أن تكون محظورة، ينبغي علي إخفاؤها. لكنها مكتوبة قبل "الشيوعية". فعدت إلى البيت، واعدت جمع بقية الكتب في صندوق كبير، ثم غلفته، بمجموعة "شيتات"، فبدا وكأنه منضدة، ثم وضعت عليها القاموس وبعض المجلات، وزحفته إلى ركن الغرفة، كأنني أخفيته عن الأنظار، أما مُجَلَدا الرواية، فأبقيتهما تحت الوسادة، معاودا القراءة فيهما بين الفينة والاخرى.

***** ***** *****

كان طيفها يختبيء وراء رغبتي. فانا لم أرها إلا بذلك اليوم، فعزمت أن اسأل عنها "ماجد"، حال لقائي به، ومهما ستكون النتائج المحرجة. كما قال "فرجيل لدانتي" بان الوصول إلى الحبيبة يجب أن يمرّ بالجحيم، لأجل أن يتطهر الإنسان. إذ غابت عن ساحة الحضور، ولم اسمع كمانها، مرة اخرى. فكلما انظر أمامي نحو "كيليوبترا" السابعة.. أتذكر "اليزابيث". كما تهبط "بياتريس دانتي" في الفردوس الأرضي، بموكبها الذي تحيط بها جوقة من الملائكة، وحولها الحوريات الأربع "شجاعة، عفّة، عدالة، وحكمة" والعذارى الثلاث "الإيمان، الرجاء، المحبة.. صاحبةُ الصوت الرخيم لم يعد أمرها إلا وكأنه حلم من الأحلام، النافقة..

***** ***** *****

وجدتني ابحث عن "عباس زرزور" بعد أن سمعتُ بأنه مريض جداً، فأردت أن أراه، عسى أن أقدم له ما استطيع تقديمه. لم أجده في مكانه المعتاد عليه في الحديقة التي غطتها أشجار "يوكالبتوس"، أشجار السروّ العملاقة.

كنتُ احمل له كيساً فيه بعض الطعام، وبضعة سجائر. توقعت أن يكون في داخل "بار" العم "ميخائيل"، فتجرأت الدخول إليه، كان ذلك صباحاً.

واجهتني صالة معتمة فيها عدة مناضد موزعة بانتظام، مفروشة بشراشف حمر، ومجموعة أقداح نظيفة، وحول كل واحدة أربعة مقاعد أنيقة. كان قد انتهى من إلقام جهاز التسجيل أغنية الأطلال لأم كلثوم، فبدأ الشريط بصوت المذيع الذي يقدم وصفاً للحفلة قبل أن تبدأ الفرقة الموسيقية بالعزف.

رأيت مجموعة رفوف مليئة بزجاجات أنيقة غير متساوية الأحجام لمختلف أنواع المشروبات. ولم تكن اية صورة معلقة على الجدار. بقيت التفت في وسط المكان. فلما راني الرجل تقدم مني، يسألني عن حاجتي.. كان يضع على عينيه نظارة طبية زجاجها نظيف، وذات إطار اسود.

عيناه ثاقبتا النظرة، شديد الإصغاء، ترك عندي انطباعاً بأنه بقي مستغرباً دخولي إلى مكان لا يتوقع مني دخوله. بعد أن سألته عن غايتي، ولم يكن يعرف أن يكون، جاوبني قائلا: - "لم يُشَرِّفْ لحدّ الآن"..

***** ***** *****

صادفني جارنا "إياد" عند خروجي، وقال ضاحكاً بدون مقدمات:

- "إن شربته ستفوح منك رائحة العرق"؟..

- "هذا كيس فيه طعام... انا لم اشتر شيئا من محل العم ميخائيل"!!.

وفتحت له الكيس حتى اثبت له صدق ادعائي..

- "هو طيب اليس كذلك"؟

- "لم أذقه لحدّ الآن"..

واصل الضحك قائلاً:

- "ظننتك دخلت لتشتري قارورة"..

- "كنت اسأل عن عباس زرزور"..

- "وما الذي تريده منه"؟

لم أجب، فأردف:

- "لمحته يخرج من خربة بيت "يهوده" قبل قليل وذهب باتجاه مدرسة "النجاة".

فتذكرت بيت "عزيز شلومو" الذي يجاورها.

ثم أردف مرة أخرى، محاولاً التودد، ولكني رحت أكمل طريقي:

- "صفية يزي[٤٣]".. أعلنت مسؤوليتها عن قتل زوجها "جمال قطف".. مدير السينما الجديد.. لأنها ضبطته يعتدي على ابنتها "افتخار" من الزوج الأول.. وستحكم لها المحكمة "البراءة" بعد أن أوكلت المحامي "سامح نوني"...

[٤٣] شاهد احد الاطفال العائدين من المدرسة كفّ بشري كان عائماً في النهر، واخبر بما رآه الشرطة، وبعد التحقيق بالموضوع تم اكتشاف الفاعل.

***** ***** *****

لم أكن قد شاهدت بنفسي ذلك، ولكن اغلب الأولاد الذين شاهدوا حدثوني بما شاهدوه. قالوا بان الرجل توضأ من صنبور الماء الذي في حديقة داره، وأمام الناس، ثم بدأ الصلاة على عتبة داره، وأمام جيرته كلهم، كأنه تعمّد أداءها، وقف بدون ان ينتعل شيئاً في رجليه، سوى جوارب بيضاء. وراح يقرأ تلاوته باللغة العبرية. بعدها ينزل إلى الأرض، وثم تضرّع ورأسه مرفوعة إلى السماء، فيكمل ويضع يديه علي وجهه، بعدها ينحني مرة أخرى إلي الأرض، بدون أن تلمس رأسه الأرض، و أخيراً ينبطح بجسده كله، ويفرد يديه، ورجليه على الأرض!.. ثم تعصف به موجة من البكاء، كانت تهزه هزاً عنيفاً..

كان ولداه وزوجه يقفون في الشباك الموارب على الباب، يتابعان بخشوع، وبكاء ما يفعله الأب.. بعد ذلك انحنى، قبل عتبة بيتهم أكثر من مرة وكان يجهش بالبكاء. كانت عينا "شلومو" منتفخة من جراء البكاء المتواصل، بعد ذلك اشار لزوجته، وابنيه بالخروج، وجاءت سيارة تاكسي الى باب البيت. ولم ياخذوا معهم الا حقيبة ملابس كبيرة، ثم قفل باب بيته بنفسه، وطلب من ابنه ان يلتقط له بجانب الباب لقطة او لقطتين بكاميراته، ثم سلم جاره مفاتيح البيت، وانطلقت به السيارة. واخذ يلوح لما كان يتابعه. حيث كان بينهم "عباس زرزور".. يتابع، ويجهش بالبكاء...

***** ***** *****

قال العم فرمان:

- "كأنك تطلب مني سرد سيرة حياتي، أيضا، فهي مشتركة مع حياة الذين نشأنا معهم، فسيرتنا الحقيقية، تاريخنا الذي لا يقبل التحريف"..

فأنا أبن "رضا" أبن "كاظم الوندي[٤٤]".. من عشائر منحدرة من قضاء "قصر شيرين" في محافظة "كرمنشاه" الإيرانية في شمال غرب جمهورية "إيران"، مدينة غالب أهلها من الأكراد، شهد الموقع معاهدة انهاء الحرب بين "الدولة العثمانية والدولة الصفوية" سميت باسم "شيرين" عام (١٦٣٩م) وتم رسم الحدود بين الدولتين. وقطنوا "خانقين" الحدودية، فصار لهم فيها البيوت، والبساتين الصغيرة..

- (هو أبن "ناجي" بن حاخام "يعقوب" بن "ناجي باشا" بن "شلومو" بن "داود". ينتمي إلى أسرة "شلومو داود" وهي من الأسر الغنية المعروفة، العاملة بالتجارة، أسس "ناجي باشا" شركة صغيرة اسمها "شمس الشرق"، وكبرت، صار لها شركات تجارية صغيرة في كل من "فنيسيا"، و"قبرص"، و"بومبي"، نشطت بقوة لأكثر من عشر سنين، ولكنها بدأت تخسر، وتضمحل بعدما هبّت على شخوصها عواصف التهجير الديني في عام "١٩٤٨م)..
- (جدهُ الحاخام "يعقوب" من العلماء الروحانيين البارزين بـ"بعقوبة". حيث تلقى تعليمه الديني لدى الحاخام "سومخ باب الله". المؤسس الأول الذي وضع أول نقطة مدنية وتكون منها فيما بعد مركز مدينة "بعقوبة"، سميت بـ"المنجرة"، لان أول بؤرة لسوق الخضروات تكونت

---

[٤٤] نسبة الى نهر الوند الذي يمر في مدينة خانقين العراقية.

بقرب ورشة لعمل الأبواب والشبابيك الخشبية.. بعدها مجموعة من المحال. بعدها سكن في تلك البيوت ابرز العاملين من مختلف الأعمال. اغلبها بيوت صغيرة جاورت "كنيس المغفرة". ورث أرضها عن جده. وكان من بينها بيت "المرحوم موشيه"، وبضع من أقاربه)..

- (تزوج حاخام "يعقوب" من "عطاء بنت حسقيال" (١٨٨٠)، فرزق منها ثلاثة أبناء هم: "شام"، "يعقوب" وابنتان هما "توبة"، و"راشيل").. (تزوج "يعقوب" من "حسيبة" فأنجبت له أربعة الأول اسمه "عزرا" الذي غرق في نهر "خريسان"، وبعده "يهوده" الذي يصغرني بعام واحد، أو أكثر، و"حسقيال" بعمر "إبراهيم دندي"، و"سناء الصغيرة" أم جدايل، ربما تصغرهما بعشرة أعوام)..

(بداية السبعينيات حدث حراك سياسي و اجتماعي و ثقافي شامل انطلق مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وشهد ذروته مع الحركات الثورية الطلابية في العالم. فلم يكن "يهوده" يحبُّ الشيوعية، ولا الشيوعيين. ولم يكن متديناً يحب الدين، على عكس شقيقه "حسقيال". أنموذجان لشقيقين لا يلتقيان في أية صفة. لكنهما يتفانيان من اجل بعض، كشقيقين حميمين، وكأن "أبوك" ثالثهما، يشاركهما بيت واحد، ولا يسكن مع أشقائه في بيت "علوان دندي" الذي لم يكن يبتعد سوى خطوة واحدة)..

(يهوى الموسيقى والقراءة في كتب التاريخ، ويهوى الرُقُم والنقوش المحفورة على الألواح الطينية والصخرية، كان يؤمن بان أسرار الإنسان في كل حرف مدوَّن. يؤكد دائماً بان الدين حالة يختارها الإنسان، أو يرثها، وليست لها علاقة بالعرق، أو القومية. فالـ"عرب،

أكراد، تركمان" هويتهم مكانية، أما ديانتهم مختلفة، لأنها موروث ثقافي. وكل دين له معتقداته الخاصة، التي من الممكن أن يبدلها بأخرى، وليس من الصعب بأن يتحول اليهودي إلى دين آخر، ولكن من المستحيل ان يغير العربي قوميته إلى كردية، أو تركية. يغالطون بالمسميات فيمررون علينا أيدلوجيات فتاكة، اشدّ فتكاً من القنابل الحارقة. يخلطون الأوراق بالمسميات، ليضعوا العتلة في عجلة التفكير الإنساني. فالدين انتخاب أخلاقي، أما القومية هي أصل خلايا الإنسان).

(كان يؤمن بان اغلب كتب التاريخ تغالط عندما تتعامل مع التسميات. تشابكت النوايا. فالمنتصرون الذين كتبوا التاريخ يوم انتصارهم، استولوا على الحقائق كما يستولون على الغنائم، وهذا لم يدركه الدارس الشرقي للتاريخ. بقيت القوة تفرض عليه، وتحرم عليه، كانها تكتب ما تريد، وتفسر على وفق ما تريد. يدرك جيداً بان التاريخ له وجهة خاصة، كلها تصب لإقناع الآخر بان ما جرى وما دون حقيقي، بغض النظر، إن كانت للدارس وجهة نظر، ورؤية، وعمق، وثقافة موضوعية).

- (مثلما نتعلم لغتنا البشرية بالإصغاء، كذلك الموسيقى كلغة كونية نتعلمها بالأصغاء.. كما كان يقولها أستاذي "ارميناك" الذي مكنني من تعلم الاصغاء الى موسيقى الكون)..

***** ***** *****

"العم فرمان" يعاود الحديث عن "يهوده"، قائلاً:

لم يكن "يهوده" إلا صديقاً، جميل الطلعة، مرهف الحس، شفاف القلب، ساحر الكلام، وكأنه يمسك بمحدثه كما يمسك الموسيقى بمفاتيح

الآلة التي يعزف عليها، تظنه يشدها بقوة، ولكنه دوماً يشدها برفق، ولا يقطع أوتاره.

الموسيقيُّ يُنَغِمْ، يُدَوْزِنْ، يُقيسْ، فلا يقطع وتره، وان انقطع وتره، هذا يعني انه تحول جزءاً من النغم، وصار النغم لا يخرج من التِه وحدها، بل تخرج من كل جسده وكيانه وروحه. الموسيقى وجه الروح، او لنقل هي صوت الروح. النغمة السحرية هي التي تجعلنا نرقص، النغمة تجعل النبيل لا يبالي بمن حوله..

- "ستبقى أكبر وأخطر كذبة في التاريخ البشري اسمها الدين"..

(أصبحت مؤمناً بقول "يهوده" ولكن بعد فوات الأوان:

- "تمكن الحاكم المتسلط من تسليح نفسه بمصطلحات جاهزة، في حقيقة الأمر هو لا يؤمن سوى بنتائجها علينا". حجزنا في أساطير وقوالب هم أساطينها، ثم تركونا في الوحل)..

***** ***** *****

لم يعرف احد بمكانه، فطفرت السور، حتى وجدته في داخل الخربة.. عساهُ يعاود الحديث عن "مكابيوس".. لكنه ممتليء حماساً فبدأ حديثه عن "شلومو"..

("شلومو" بن حاخام "ساسون" بن شلومو "سليمان" بن "عزرا" بن "شلومو" بن "داود". ينتمي إلى أسرة "شلومو داود" وهي من الأسر اليهودية الغنية المعروفة، ولاسيما في ميدان التجارة فقد كانت تسمى بـ"روتشيلد الشرق"، وكان لهم بيوتات تجارية في كل من "باريس"، و"مانشستر"، و"بومبي"، وكان والده الحاخام "حسقيل" من علماء اليهود الروحانيين البارزين ب"بغداد". حيث تلقى تعليمه

/

لدى الحاخام "عبد الله سوميخ". تزوج حاخام "حسقيل" من "رحمة بنت عبد الله شلومو" (١٩١٠)، فرزق منها أربعة أبناء هم: "شاؤول"، "شلومو"، "سحاق" و"حاييم"، وأربع بنات "صباح"، "سمعة"، "توبة"، و"راشيل". في عام (١٨٧٣) سافر حاخام "ساسون" الى الـ"هند"، ومكث فيها سنوات عدة وحين عودته أسس "كنيس الحاخام حسقيل" عام (١٩٠٩)، وقد توفي في العام نفسه)

***** ***** *****

عندما تتشظى الأبنية المجتمعية، يفقد الإنسان وحدته مع ذاته، فلابد من الجنوح نحو جماليات التفكك، والتبعثر، والتناثر. حيث الذات الواحدة لم تعد ذاتاً، واحدة. بل تحولت إلى ذوات، وهذا يعني هامشيتها. تلك وسيلة تعبير، وتصوير، وشاهد على ما جرى من تفكك، واضطراب واهتزاز للثوابت، والأيدلوجيات، والأبنية الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية..

صرت اذهب إلى بيت خالتي، وأحاول أن اكسب ودّ زوج خالتي، وجدته متعلماً، ودقيقاً في حكمه على الآخرين، ولكنه كان لا يحب عائلتنا.

- "بأنهما لم يقضيا عشرة اشهر في ايطاليا.. بل عدة أسابيع، ما أن وصلا "بغداد" حتى استأجر لها غرفة في بيت تسكنه مجموعة من العائلات، حوالي سنتين"..

كنت ادون معلومات عن كل سكنة "شارعنا".. بعض التفاصيل التي قد تساعدني بكتابة معلومات اضافية وان أضيف جديداً إلى دفتري عن يهوده وتاريخه..

كان زوج خالتي يعمل موظفاً في محطة سكة الحديد التي كانت بجانبها مجموعة دور يسكنها العاملون في المحطة. كانت تلك تزدهر، يمرّ بها جنود وناس يأتون إليها من كل مكان..

******* ****** ******

في كل مرة كنت اذهب إلى بيت "جدي"، وأريد أن اعرف من عمتي "صبيحة" سرّ تلك الصورة التي كانت مخبأة تحت صورة "ادم وحواء" في غرفة عمتي والتي تهشم إطارها بنعل "أمي".

******* ****** ******

الاحداثُ القاسية التي ألمَّتْ بالطائفة اليهودية.. كانت اغرب من الخيال، تلك القصص الحقيقية المريبة المتفاقمة سراً، وعلناً.. المتسارعة يوماً بعد يوم، جعلت منهم غير قادرين على ان يستمروا في متابعة ضرورات حياتهم، فضاع عليهم التواصل ببعض. بقي الفرد منهم يخاف التحرك خارج بيته، الا للضرورات القصوى، اذ بقى الخارج من بيته مفقوداً حتى يعود، والعائد الى بيته مولود..

******* ****** ******

قال "ابي":

- " المرأة الاخرى التي دخلت الى حياته، اسمها "هيفاء" ابنة حيدر العطار، امرأة لمحتها مرة واحدة معه"..

ولم يخف عني قصتها. فحكى حكايتها.. كيف اختارته، واستطاعت ان تدخله الى احضانها.. لم يزرها في بيتها، ولم تزره في بيته. فمن المستحيل ان يكون ذلك الامر، فالمدينة ضيقه، سرعان ما

ينتشر خبر كهذا، ولذلك لم يسمع احد بالقصة.. التقيا في "بغداد" عدة مرات.

كانت هي الاخرى مثله حريصة على نفسها، وحذرة، فلم ترتكب اي خطأ فاضح.

بقيت اقول ربما لم تكن تلك القصة حقيقية، فالرجال عندنا يغالون كثيرا في حكي قصصهم مع النساء. خاصة الذين يمرون بازمات عاطفية خطيرة، يحاولون متابعة المدّ بخيالهم امام من يجدوه يستمع اليهم... على الرغم من ثقتي الكاملة بكل كلمة اعترف لي بها.. حكي لي كيف استطاعت ان تباغته عبر الهاتف صباحاً، بصوتها الهامس الجميل.. بعدها راقت له كثيراً، واستحوذت على فراغه العاطفي.. كانت تحفظ العديد من روائع الاغاني، واسمعته ما تحفظ باداءها المتميز، ثمة حناجر وهبها الله المران ولم تدرس الموسيقى، هكذا استدرجته بصوتها الذي تخلل الاسلاك، فاوقعته في فخّ عذوبته..

كانت طويلة القدّ، وخصر أهيف ذات عينين واسعتين، بيضاء البشرة، تزوجت ثلاث مرات، الاول كان تاجراً من مدينة الكاظمية، تطلقت منه بسبب معاملته الرديئة، وشراهته الجنسية التي لا تطاق، هربت منه عدة مرات، وفضحته في المحاكم، وقالت للقاضي بالحرف الواحد، يطلب مني الخروج عن الشرع، ولم يكن امام الرجل الا ان طلقها بلا رجعة، ولم تبق في بيت ابيها، سوى ايام عدتها.. حتى تزوجت من رجل اطفاء اسمه "فرهاد خانقيني"، وايضاً لم تدم في بيت زوجيتها سوى سنتين، ومات عنها في حادث حريق كان يروم اطفاءه. واكملت عدتها الثانية لتتزوج من الحاج "نهار" احد تجار التبغ.. مطلق عادت له زوجته الاولى بعد عرسه منها بايام، وبقيت "هيفاء" وحيدة تحت

/

رحمة زوج لم يباشرها سوى مرة واحدة.. ارادت الطلاق منه، ولم تفلح بالخلاص من قفصها..

- "قلتُ لصاحبة العينين الدافئتين، محاولاً شرح مهمتي. عيناها تجولان في خاطري كأنهما ترومان المزيد من المعلومات، تحركت صوبي وكأنها تترجاني أن أزيد شرحي، رغم حيرتي من أين ابدأ كلامي عن مهمتي. عن إشكالية تورط الإنسان في عشق الموسيقى، عن الموسيقى المندلعة كرذاذ يبلّ عشب ماء يابس، ويعيد إليه الحياة".

***** ***** *****

الصدمة التي جعلت منه إنسانا آخراً، بقيّ متواصلا مع اهله، يتصل بهم كل أسبوع، وصار كل شهر. اغرق نفسه في مواصلة التأليف الموسيقى، واغرق نفسه في تواصل مع "الويسكي"، فكتب الكثير من المعزوفات بدون ان يستخدم اية الة، بقي يعمل بصمت، ولم يسمع صوته احد، خصوصاً في الايام الاخيرة، بقي يكتب الموسيقى من الخيال، يستحضرها في ذهنه، ويدوّنها على الورق، وفيما بعد كان يجري عليها تعديلاته..

***** ***** *****

عندما يبقى الضحك متواصلاً في غرفة الضيوف، هذا يعني بان "ابي" و"يهوده" قد استبقيا المطرب "فاضل نايله"، ولن يتركانه يعود الى بيته حتى يفرغ ما عنده من نكات جديدة، فهما لا يحبان منه الغناء، على الاطلاق. لانه "صاحب صوت نشاز لن يقتنع به يهوده"، ولكنه يتمتع بروح النكتة والسخرية اللاذعة، وهو رجل اسمر طويل،

يشبهونه بحبل الاركيلة، لطوله الفارع، ونحافته. دائماً يحمل في عليقته، طبلة ايقاعية يستخدمها للغناء عليها، ويجول بها على المقاهي، واماكن السمر.. مغنياً المربعات، وبعض الاغاني المصرية التي يحفظها من بعض الافلام الرديئة.

يدعوانه ليستذكر ما يحلو لهما من ما تعود ان ينقله كاخبار وطرائف الشيخين الضريرين، "مجودي" و"حسون". اللذين كانا يوقعان ببعضيهما المكائد بفطنة ودهاء. نوادرهما تستهوي الناس، فتتناقل كل ما يدور بينهما من اقوال وافعال ببعض.. كل منهما يطعن في كيفية فهم صاحبه للدين، وايضا يصوغان من الخيال قصصاً مضحكة لاجل الايقاع كل بصاحبه، والتنزيل من قيمته، والتنكيل بشخصه. غايتهما اضحاك الاخرين، لكسبهم لصفه، ويكون هو صاحب الجمهور الاكثر، لكنهما غالبا ما يفتيان بامر قد تناوله الاخر، بطريقة ما تجعل الاثنين عرضة لما يستهزء به الناس.

كلّ منهما كان يبيت في مقهى. الاول لدى الحاج "ناظم زعيله" الكائن مقهاه قرب محطة القطار التي تقع جنوب المدينة، اما الثاني فكان يبيت في مقهى "تموز" لصاحبها "بسام كنو" التي تقع في شمال المدينة. لكنهما دائما يلتقيان بمكان واحد، لكون حدود بلدية بعقوبة كلها لا يتجاوز قطرها ميلا واحداً. فهما يلتقيان لا محالة، ويعلنان كرههما لبعضهما. دون ان يتقصدا اللقاء، فمناسبات الناس هي التي تجمعهما سوياً، سواء في الافراح أو الاتراح.. اذ يكون لقاؤهما بالناس مرغوبا فيه، وان كانا لا يرغبان بلقاء بعضهيما البعض. فاذ حضر احدهما لمكان ما، ووجد غريمه قد سبقه اليه فلا يسلمون من عتابه الشديد، وربما تقريعه.

فكانت تجري بينهما حرب خفيه، صار "نايله" متخصصا في حفظها كما يحلو له تقليد صوتيهما، وطريقة كل منهما في الكلام، واحياناً تلفيق ما يجري بينهما من حوداث مضحكة..

- "مرة خلط "حسون" زجاجة حبر صيني مع عطر اجنبي، واستطاع، ان يرسله الى غريمه، وعندما تعطر بالعطر سخم وجهه الحبر الصيني، وجعله عرضة للهزأة والتندر يوماً كاملا".
- ردها عليه "مجودي" بمزيل شعر فاسقط له شعر حواجبه..
- "يقال ان "حسون" ركب فرسه مغادراً اهله وفي الطريق طلبت الفحل فلقحها، وظل يتنقل بين اقاربه حتى ولدت فرسه في الطريق، وحين رأى معالم قريته، صفق يداً بيد قائلاً.. رجعنا (لمهجومنا) البارحة غادرنا الديرة... ناسياً ان فترة حمل الفرس حتى ولادتها لا تقل عن اثني عشر شهراً وهي مدة قصيرة برأيه فهو لم يتعود ان يأكل في بيته"!.
- "يعيشان على ما يجودان لهما الناس"..

عادة تبقى هكذا سهرة بعد العرض المسائي الاخير المنتهي بعد الثانية عشرة ليلاً. كان "ابي" من يطلب له وجبة عشاء، مع الشاي، ومبلغاً من المال، يجعله حاضرا، وملتزماً بما يامرونه.

- مرة طلب من "يهوده" ان يعلمه بعض ضربات الايقاع الشرقية ولم يتوان عن تعليمه ذلك..

اذ اطلق "فاضل نايله" عقيرته بالغناء لن يسكته احد. الا بتذكيره بـ"سعلوة السينما" التي قد تنزعج من الغناء على الطبلة.

***** ***** *****

قال "حسقيال":

- "كلما ذهبا "ابراهيم دندي"، و"يهوده" سويا الى مكان او عادا منه، فان احدهما في ورطة، وغالباً ما كانا يتخلصان منها".

حيث لم يلاحظ احد اي خلاف ظاهر او باطن، ومهما قلّ شانه. كصديقين.. تعودا منذ الصغر ان ينزويان سوياً في مكان ما، أو يذهبان بعيداً الى اماكن مفتوحة، وكانهما يتجولان، ثم يناقشان بحرية كل ما يخصّهما..

اذ نما احترام متبادل بينهما لم يكن قد شوهته شائبة ما. احداهما يرضخ لطلب الاخر، يحرصان بان يظهرا للاخرين كل منهما بانه صاحب قرار مستقل عن الاخر، ولم يعرف احد عن خلافاتهما، فلم يكن لها اي وجود..

عندما اراد "يهوده" ان يفاتحه بامر "مسعودة"، اختارا لكل منهما دراجة هوائية، وتوجها معاً الى جهة بساتين السوامرة، بقيا يتناقشان، بحرية، وبحرص شديد ان لا يسمعهما احد من المتطفلين.. هناك استطاعا تقريب كل وجهات نظرهما حول الموضوع.. اتفق الاثنان على ان يسلما بما حدث، وكانا على يقين، بان اتفاقهما المكلف جداً، هو من اجل سلامة "ناجي يعقوب" الاب الذي تغلى على رغبته اية رغبة!، وان يبقيا كلمته مسموعة الى حين. فالرجل قال كلمته، وارادها ان تفرض بكل ما عنده من فرض، وغير قابلة للتغير، ولم يكن

الرجل معافى حتى يتحمل وضعه الصحي اخباره، واقناعه بان ابنه قد تورط، بقضاء من الله، اذ حملت "مسعودة"، وصار على ابنه ان يتزوجها، وان ينقذها من الفضيحة.

- "الكنيسة هناك تبارك اي زواج بين اثنين جهراً مرضاة لله"
- "ابوك سيقبل اولا واخراً.. لكن لنصبر عليه الى ان يتماثل للشفاء.. سوف يغير رايه حتماً ان علم بقدوم حفيده"..
- "الله وحده العالم بحالي فانا لا اريد مخالفته له ولا خسارتها"..
- "يقبل.. لكن ليس الان"..

من كان يراهما يعرف بانهما يتشاوران.

***** ***** *****

سمعتهُ يمضى شارحا مهمة ال"مايسترو" الى احد ضيوفه، في غرفة الإدارة. كنت بصحبة "ابي" الذي اخذني اليه، وتاركاً اياي معه لبضعة دقائق، لم يقطع كلامه، ومدّ لي يمينه مصافحاً، وهو يكمل: -

"هناك "أروكسترات" تعزف بدون وجود "مايسترو"، في حالة العمل، "أوركسترا وتري"، أو "أوركسترا" مضافا له بعض آلات النفخ، وقد ينوب عنه عازف الكمان الأول، والذي يسمى "كونسيرتماستر" اي (قائد الأوركسترا)، الذي يعطي الإيعاز بالبدء والنهاية، وتوازن السرعة، وشدة الصوت، أوخفوته. يدير الحركات بواسطة كمانه، وأثناء العزف (او عازف "بيانو"، أو الـ"هاربسيكورد" هو من ينوب عن الـ"مايسترو".. حيث يقود الـ"أوركسترا" بيديه حينما

تكون لديه سكتة، أو بإيماءة). أو احياناً يتولى أحد عازفي الـ"سولو" قيادة العمل. لا يحدث ذلك في أعمال موسيقية كبيرة ومعقدة. وجه الـ"مايسترو" هو ايضاً يعبر عن تواصل الموسيقى، ويعطي الإيحاء للعازفين عند نغمة هذه او تلك بحزن أو فرح"..

كانت عيناه لا تفارقاني، وانا اجلس امامه على الاريكة العريضة التي كانت في غرفة ادارة السينما، وراح يكمل:

- "لو افترضنا أن الـ"مايسترو" قاد عملا ما محافظا سرعتها ولم يجر أي تغيير في السرعة وفق ما تقتضيه مهارة كادره، لأصبح العمل مملاً، وباهتاً"..

ثم اضاف ضاحكاً كانه يسهل الامر، على مستعمه الذي كان يصغي بتركيز، واعجاب:

- "الـ"مايسترو" هو من يدير دفة الـ"أوركسترا"، وممكن تشبيهه بمخرج فيلم عظيم من أفلام هوليود، الكل لا يرى المخرج الذي بمثابة العقل الرئيس في مجمل الفيلم، فأغلب المتفرجين لا يعرفون مدى أهمية الـ"مايسترو"، ولا يعرفون بأن على كل عازف في الـ"أوركسترا" أن لا يغيب الـ"مايسترو" عن نظره حتى ولو لثانية ولو حصل وأن لم ينتبه أحد في جزء من الثانية للقائد وحركاته، فيرتكب خطأ جسيماً، ويسمعه كل من في الصالة"..

ثم اضاف:

- "اما عن "المترونوم" هو جهاز يعطي ضربات إيقاعية منتظمة. يقترن عمله بعمل الساعة، يعطي ضربات متساوية تماما مثل الساعة"..

يومها كنت ارتدي طقم ملابس جديد، مكون من سترة رصاصية وبنطلونها، وقد البستني "امي" معه ربطة عنق ملونة، موشاة بخيط لامع استقرت على قميص ابيض، وقد وضعت منديلا في يدي مثلما يفعل الكبار، ورحت انظر الى العم "يهوده" الى طقمه الانيق، وقميصه، وربطة عنقه التي بدت اجمل من ربطة عنقي، بالوانها المتدرجة. بقيتُ انظر الى طقم ملابسه الانيق، وكيف يضع يده وهو يتكلم بثقه، وكيف يطلق ضحكته القصيرة، الكيّسة.

- "للعالم نغمة ضاحكة،
المتباكون لا يسمعونها الا باكية"..

عندما عدنا ليلا من السينما الى البيت، قلت لـ"امي" اني لا اريد ان ابدل ملابسي هذه، مالم اضع قلما في جيبي، والبس ساعة "ابي" في يدي، ولكنها استطاعت ان تقنعني واعدل عن رغبتي.. عندما وعدتني بانها في المرة القادمة سوف تعلمني على قراءة اوقات الساعة، وستسمح لي بان اضع قلما في جيبي يوم دخولي المدرسة".

- " الموسيقى فلسفة تنظم العالم، وتجعلهُ مقبولاً"..

******* ****** ******

قال العم "حسقيال":

- " اي رجل يعشق امرأة ما، قد يرقيه عشقه، او يضنيه، ويذله".

هكذا الحال، فثمة كيمياء بين البشر، قد يفسدها العشق، وتضطرم فيها النار لتتحول الى مادة اخرى، شخصية اخرى. فالرجل

الذي دخل الى غرام قد تخلى عن انظمة كثيرة، صار ملتحما في حالة جديدة.

كان الرجل في السابق قد التزم الدقة والعقلانية.. كان موهوباً بالموسيقى، ودرس التاريخ في واحدة من اشهر جامعات العالم..

رجل عرف الانظمة التفاعلية في مصير الانسان. وبات بنضجه يعرف ماذا على الانسان عندما يريد اعادة النظر في امر ما..

عجبي عليه لأنه لم يرد التقدم بتجارته الى امام. لقد اهمل ادارة الاموال، وانزوى في غرفته، وراح مستكيناً لا يفعل شيئاً سوى الشرب في السرّ، ومتفرغاً لموسيقاه. ولا يشفع له انه استطاع انجاز عدة اعمال موسيقية، ولكنها، بدون اي عائد مادي، الاعمال التي لا تدر المال، اعمال باطلة، وعبثية. حرام ثم حرام التفريط بالمال، و بالوقت الذي نجني فيه مالاً حلالاً...

- "ذلك هو اصل الخلاف الحقيقي الذي ترك بصماته على اغلب الامور، بيني وبين "ابراهيم دندي"..

***** ***** *****

عندما كان "ابراهيم دندي" هو المسؤول المالي عن ايراد السينما. كان لا يعطي "حسقيال" اي مال الا بعلم الابوين. مرة طلب مبلغ من المال من اجل ان يدينه الى احد معارفه بالفائدة. ولم يعطه درهما واحدا.

منذ أول يوم سافر "ابراهيم دندي" الى "ايطاليا". تسلم "حسقيال" حسابات العائلة كلها بالتمام والكمال، اضافة الى مسؤوليته لمحطة البنزين. واثناء ذلك ادخل شريكاً خفياً في ادارة السينما، هو

/

"مدير شرطة اللواء"[٤٥].. مباشرة بعد حادثة "اللاصق".. كسروا فيها الكراسي وصار في السينما وحدث هرج عظيم.

(نفدت لدى ادارة السينما مادة "الاسيتون" التي تلصق شريط الفيلم المقطوع ببعضه، ولم تستطع الماكينة مواصلة عرضه. تسبب في قطع العرض واضاءة النور عشرات المرات مما دفع الناس الى رمي الكراسي، وتكسير المصابيح، وتطور الامر الى احتجاز، رواد الطابق العلوي، ولم يترك احد منهم ينزل الى الطابق الارضي من اجل الخروج، وصارت الناس المحتجزة ترمي الكراسي من فوق، واشعلوا ناراً وصاروا يرمونها الى الشارع، فتم استدعاء الشرطة لاعادة الامن الى صالة العرض. وبالرغم من ذلك تمّ افتتاح السينما، في اليوم التالي، بعد تنظيفها صباحاً وتعويض الكراسي المكسورة من غرفة المواد الاحتياط، وكان الدخول مجاناً الى فليم اسمه الـ"سندباد البحري" عوضاً عن ذلك الفيلم الذي ما استطاعت الماكينة عرضه)، وهو من الافلام التي تملكها ادارة السينما، واغلب الرواد تذكروا بان هذا الفلم لم يكن عرضه بجديد، اذ سبق عرضه بمناسبة تتويج "فيصل" ملكاً على العراق.

كانت في نية "ابراهيم دندي" معالجة وتجديد ارضية القاعة الارضية، بعد ان تصاعدت الرطوبة فيها، بسبب تدنيها عن عمق نهر "خريسان"، خصوصاً بعد اكتمال مشروع مده بخط مستقيم من قنطرة "خليل باشا" حتى قنطرة "مقبرة اليهود" اذ باتت ارضية الصالات الثلاث (صالة الشتوي الارضي، والصالتين الصيفيتين) اقل بكثير من مستوى الشارع، بعد ان وصل الى قناعة بان الناس في الشتاء داخل القاعة الارضية كانت تعاني من الرطوبة العالية المنبعثة من الارض.

---

[٤٥] ذكر عمي جاسم ان تلك الحادثة كانت مدبرة لإجباره بقبول الشراكة..

التي تزيد من برد الشتاء، فلم يكن للصالة نظام تدفئة، واغلبهم كان لا يصبر البقاء في مكانه، فاما ان يغير مكانه، واما ان يخرج من الصالة، وكان ذلك يؤثر على سمعتها، واخذوا يلتمسون ذلك عند الرواد. حتى تطور الامر فصارت ارض القاعة تنضح ماءاً، وأخذت تصير برك صغيرة، خاصة في المساحة التي تحت شاشة العرض، وقد خلفت دوائر بيض بسبب الملح. وتزداد البرودة شديدة، ولم يعد احد يستطيع من شدتها ان يصمد لنصف ساعة. اضافة الى ان الماء سوف يكثر بتسربه ثم تتفاقم المشكلة. فقرر ان يعالج الامر، قبل الموسم الشتوي الجديد، بان يعيد ترتيبها من جديد. ان يقلع البلاطات الحجرية من الارض، ويرفع من مستوى سطح الارض بالمزيد من الحصى والرمل، ولن تكون متأثرة بذلك المستجد القاهر، ثم يعيدها كمدرج كما كانت مصممة في الاصل. حتى رصد لها من الايراد المبلغ الكامل لتغطية نفقات التعمير، ثم استحصل موافقة الابوين، ليشرع في اصلاح ما تلف. وجاء سفره مباغتاً وتأجل الموضوع حتى يعود..

لكن "حسقيال" بعد ان تسلم الادارة بعده، لم ينفذ من ذلك الامر شيئاً، وبقي يؤجله من مرة لأخرى، حتى بعد موسمين بقيَ يماطل في التأجيل والتسويف.

ولما عاد "ابراهيم دندي" من مهمته اراد ان يجدد الشروع بالموضوع ومعالجته فكشف "حسقيال" عن الامر المستجد:

- "شريكهم لا يرضى في الوقت الحاضر".

كان ذلك السبب المباشر الذي جعل "ابراهيم دندي" يترك العمل في ادارة السينما.

اخذ ماء النهر يتواصل في التسرب الى جميع اركان بناية حتى امتلأت ايضا ارضية الصالة الشتوية بالماء. كما اغلق الصيفي نهائيا بعد ان صارت القاعتان الصيفيتان مثل حوضي ضفادع، يصل نقيقها الى اخر الشارع العام.

***** ***** *****

الوالد "يعقوب الناجي" قد اوصى بنسبة كبيرة من الثروة الى اولاده بعد ان يتزوجوا، وكان يرغب لو احدهم تواصل في الدين وصار حاخاماً (او الرَبّانيّ، يسمى الحبر- زعيم ديني. يعني بالعبرية القديمة "سيد" أو "معلم" والكلمة النظيرة بالعربية بمعنى سيد)..

سعى "حسقيال" كثيرا لتحقيق رغبة المرحوم والده، وجاهد لتعظيم تلك الثروة.

******* ****** ******

(ففي احدى ليالي الصيف وكان العرض مساءً هاجمت العرض عاصفة ترابية حيث حجبت عرض الفلم على الشاشة الصيفية وكان فيلما عراقيا هو (علية وعصام) حيث توقف العرض تأجل العرض الى اليوم التالي، وتكررت العاصفة في التالي، فما كان من الادارة سوى ارجاع ثمن التذاكر، وعرضه مجاناً، خوفاً من حدوث هرج جديد، خصوصاً بعد ان تقاعد الشريك المالك من جهاز الشرطة".

١٥

اقترح والد "إياد" علينا ضرورة التعجيل بإدخاله إلى المستشفى، قبل فوات الأوان. حملناه الى السيارة وكان "فؤاد" معنا، وشاركني مع "اياد" بحمله، إلى داخلها. لم يكن الرجل خفيفاً كما توقعنا، صاحب الجسد الهزيل، النحيف. كانت تعصف به نوبة تشنج، تجعل من عوده ثقيلاً، وصُلباً. كانت درجة حرارته مرتفعة إلى درجة الهذيان، ويتلوى من شدة الألم في بطنه.

طلبت منا بطاقة هويته الشخصية؛ لإدخاله إلى المستشفى، فلم نجد في جيبه أي شيء. فوقعنا في حيرة، حتى ظنّ "فؤاد" الأمر سهلاً. فقال بكل عفوية "هذه بطاقتي".

فرد "إياد" عليه ضاحكاً:

- "وان مات لا سامح الله ستقول المستشفى بان "فؤاد" هو الذي مات".

لم تدم حيرتنا طويلا. فمن حسن الحظ، التقينا بـ"عماد" شقيق "أياد" الذي يعمل في نفس المستشفى. وتمّ تسجيله باسم شهرته "عباس زرزور"، وبدون البطاقة.

بقيّ مستمراً في هذيّانه:

- ("حلت عليّ لعنة الغباء وجعلت مني كائناً اخرق، لا أرى أبعد من انفي. غمامة حاطت بي، جعلتني لا اكتشف الحقائق إلا بعد فوات أوانها. عديم الفائدة، عديم البصيرة، خسرت أهلي، أحبتي، وكل شيء.. كنت كمن يبحث عن نظارته، وهي معلقة على رأسه.. كم أنا غبي")!!..

- ("تظنون باني أحتضر")، ("صرت اعرف السر بعد فوات الأوان"). ("تصورت أمري لم يكشفه أي إنسان من هذه المعمورة، لكن من سوء عاقبة الأمور باني قد عشتُ كذبتي وحيداً. كشفت قصتي، وكنت أظنها السرّ الدفين الذي لن يكشفه أحد")..

ساعدنا "عماد" كثيراً في تسهيل حجز سرير، وبقية الأمور الأخرى. ثم حقن بمهدئ، حينما يراه الطبيب المختص، حاولنا ان نبقى معه حتى يستفيق، ولكن نظام المستشفى لم يسمح لنا، بالبقاء معه. فتركناه حتى اليوم التالي، وفي طريق العودة، تشاغلنا بالضحك على افتراض بان "فؤاد" مات بالوثائق الرسمية، حتى وصلنا.

كان والد "إياد" ينتظر منا الجواب عن أحوال الرجل المريض، وكان من أكثر المتعاطفين معه، وأخبره بأن "عماد" بقي معه، وسنعود إليه، حتماً في صباح الغد.

***** ***** *****

في كلّ مرة كنت اذهب إلى بيت "جدي"، وأرغب في معرفة قصة تلك الصورة التي كانت مخبأة تحت صورة "ادم وحواء".. التي تهشم إطارها بنعل "أمي". لكن "عمتي" بدأت مشغولة تعدّ لزواج شقيقها "علي"، وأراها منهمكة، مع بعض نسوة من المحلة. فلم يكن هناك أي وقت لأجل سؤالها. بعدها أعود إلى البيت، مؤملاً نفسي بأملٍ آخر.

/

***** ***** *****

في صباح اليوم التالي بدا "عباس زرزور" في حال أفضل مما كان عليه، فما أن شاهدني حتى رسم ابتسامة قائلا بصوت متحشرج، هزه المرض: "السلام عليهم"، وأكملها بسعال متواصل.. بقيت معه لساعات طوال، وبقيت بجانبه، ولم يعترض على وجودي معه احد من العاملين في المستشفى..

بقيت اسمع منه، وكان يشعر براحة، وكل مرة يأخذ نفسه بعمق:

("القصة تعود إلى قبل أكثر من اثنتي عشرة عاما، أيام كنت اعمل في مراب السيارات. قبل وفاة والد "يهوده" بعام، يومها لم انتبه لامرأة عابرة، في ذلك الزمن، قد حضرت مرة من "بغداد" إلى "بعقوبة"، تعرفت علي، وكشفت أمري، ولم اعرف بذلك أبداً. تدعى "هانية"، سبق لها أن تعاملت معي عندما كنت اعمل في الكنيس في مدينة "قادش"، يومها، كانت بحاجة إلى دواء فتوسطت لها، لدى أحد أطباء بلدتنا، بعد ان ترجتني بانها قادمة من "بغداد"، بقصد وصفة طبية لم تكن تجدها إلا عندنا، وكنت سببا في شفائها من طفح جلدي مريب. فلم تنسني، وأخبرتهم باني شبيه رجل سبق أن رأته في "قادش"، بحسن نية.

بعدها صارت ورقتي مكشوفة، فضعت. مؤكداً بأنهم بعدها، اتخذوا الاحتياطات اللازمة، بعد أن عرفوا بأمري. فأفشلوا الأمر برمته منذ البداية. ولما علم "شلومو" بالأمر، اخبر صديقه المقرب "حسقيال"، فتصرفوا بدهاء، حتى ابقوا الأمر كما هو عليه، كأنهم لم

يعرفوا بي. بقيت لا اعرف حتى اخبرني به "شلومو" قبل أيام من رحيله، وهكذا قد ابتعدت كثيراً عن سرّ "مكابيوس"، ابن "مسعوده".

صدقني يوم رويت لك عن أيام موت "ناجي يعقوب"، كنت صادقاً معك ليومها كنت أظن باني لم أكن مكشوفاً لدى "يهوده" وأهله. بينما على العكس كنت مكشوفاً، وكانت كل تحركاتي تحت بصرهم")..

("بعد فوات الأوان، وبعد ان لفتني دوامة الضياع.. تمكنت من الاقتراب من معرفة السرّ، يوم عودة "حسقيال"، ليأخذ "شوفار" أبيه.. تخيل بعد كل تلك السنوات العديدة، وبعد ان فاتني ما فات بالتالي صرت اعرف.. والان اظنك ستسألني من يكون صاحب السر؟ كان قريبا جداً مني، وأحد سماري، بات اقرب أصدقائي، ولن أبوح بسره، مهما سيحصل لي، لان من أرسلني إلى هذه المدينة، خيبت لهُ ظنّه، وأملي، ومتّهماً إياي، بالتواطؤ مع فريق أبيه "يهوده" أبن "ناجي أبن يعقوب"، وهكذا اقتلعت كشجرة من جذورها، علمت برحيلهم الجماعي إلى إسرائيل، وبقيت أنا حبيس اسمي الجديد، ومكاني، وقنينة عرق يكرمني بها يوميا "ميخائيل"، بقيت معلقاً احتاج الى مال كثير، حتى التحق بالركب الذي فاتني ظناً بخيانتي لهم")..

انهمرت دموعه على خديه الخاسفين، فأحببت أن اظهر له عدم اهتمامي بالموضوع، ومخففا عنه. فسألته عن الشوفار، فقال برغم ثقل لسانه:

("عبارة عن قرن حيوان طاهر طبقاً للشريعة اليهودية كالغزال، والشاة، والعنز، ولا يجوز استخدام قرن البقرة أو الثور لعلاقته بالعجل الذهبي الذي صنعه بنو إسرائيل، وعبدوه أثناء غياب النبي موسى عنهم. وهناك شروط خاصة بالبوق، وبالشخص الذي ينفخ

فيه. فالبوق يجب أن يكون مقوساً ولا يجوز أن يحاط طرفه عند الفم بالذهب أو غيره.

أما النافخ فيجب أن يغتسل وأن يتوجه إلى جهة الشرق عند النفخ ويجب أن يمسك البوق باليد اليمنى، وان يرفع نهاية البوق إلى الأعلى، ويلبس لباساً أبيض. كلمة "شوفار" تعني بالعربية (صُفارة)، لأنها تصدر صوتاً كالصفير. لن يجيده الا من تمكن منه. يستخدم في المناسبات الدينية، كيوم الغفران، وفي عيد رأس السنة، داخل المعابد والكُنس").

("يبدو لي بان "حسقيال" يومها قد صُدم بما جرى للبيت، وعندما فتح المكان السري في حائط المكتبة، فاته أن يستخرج جميع محتوياته.. دخلت بعدكم، وتفحصت المكان، وحصلت على كومة أوراق، مرقونة على الآلة الكاتبة. بقيت مستقرة في أسفل قاع المكان السري").

***** ***** *****

كانت "أمي" دائماً ترسلني لشراء الحليب من إحدى جارات شقيقتها، وهناك دائماً التقي بزوجها الذي يعمل موظفاً في محطة سكة الحديد التي كانت بجانبها مجموعة دور يسكنها كل العاملين في المحطة.

كانت تزدهر، كمنطقة.. حيث يمرّ بها مسافرون، من جنود، وموظفين، وكسبة. يأتون إليها من كل مكان، ومنها ينطلقون إلى "بغداد" العاصمة، ثم ينطلقون حيث ما يريدون.

/

كان غالباً ما يحدثني عن الانكليز الذين بنوا المحطة، ويتذكرهم ببعض الطرف "مرة تحرش بامرأة انكليزية، رجل يدعى "عسيران"، وكان هذا مفتول العضلات، يقدر على حمل بقرة، ولما أخبرت زوجها بأمره، ذهب إليه، وبدلاً من توبيخه، أعطاه عشرة فلوس، فرح بها كثيراً، وتصور بأنه كلما تحرش بامرأة أجنبية، سوف يحصل على مبلغ مثله، وهكذا وقع في الفخ الذي نصبه له الانكليزي، إذ كررها مع ضابطة تفتيش، فأشارت إلى جنودها، وحملوه عنوة إلى أحدى عربات الحمل الفارغة، ولم يسمح له بالنزول حتى بعد أن انطلق بهم القطار، وجعلتهم يضربونه، حتى فقد الوعي، وقذفوا به، من القطار بينما كان يمشي بسرعته، بعد مسيرة أميال، وعاد إلينا بعدها، تائباً، لا يجرؤ على النظر حتى على رجل"

وجدته متعلماً، ويجيد القراءة، والكتابة. كنت اعرف بأنه لا يلتقي بـ"أبي"، ويقول عنه:

- "ليته يعرف الصلاة والصوم "!..

وكان أيضاً يجهر أيضا "بأنه لا يحب "أمي".. "اختلفت معها لأنها كذبت عليّ عندما أصرّت بمواصلة الكذب"؟!!.. "الكذب حرام"...

كان يحفظ الكثير من الآيات القرآنية، وغالباً ما يشرح منها، لأولاده. بمناسبة أو بدونها، ويتكلم كثيراً عن عذاب الكاذب يوم القيامة...

- "أنهما لم يقضيا عشرة أشهر في ايطاليا.. بل عدة أسابيع، ما أن وصلا "بغداد" حتى استأجر لها غرفة في بيت بقيت تسكنه مجموعة من العائلات، حوالي سنتين".

وعندما سألته عن "يهوده"، قال بأنه يعرفهم.. بكل تأكيد لأنهم أبناء جيله، وكان له صديق اسمه "مير" كان صديقاً مقرباً لـ"يهوده"، و"علو شامي"، و كذلك "ميخائيل المسيحي"، واغلب شخصيات الولاية.. يؤكد "يعرفه بأنه لا يكذب وأفضل من الكثيرين يدعون الأمانة وهم أول الخائنين"

***** ***** *****

كلّ حكاية هي تاريخ، تحكي بطريقتها الخاصة، وبمنطقها الخاص المختلف الجوانب، كل حكاية هي محاولة للكشف عن زمن ماضٍ، صار من المستحيل القبض عليه، وجعله حاضراً.

في ظهيرة حافلة بالأحلام، طرق أحدهم الباب، يسال عن "أبي"، بعد ان أكد له الجيران باني ابنه، طلب مني أن أوقع على وصل استلام الفيلم المرسل إلى "أبي" من "بغداد"، قال بأنه مدفوع ثمنه، ولم يستطع تسليمه إلى مديرها الحالي، وطلب مني مساعدته في إنزال الحافظة من صندوق السيارة، ووضعها في البيت. لحين مجيئه. كانت متكونة من ست عُلب دائرية لها غطاء مصنوع من الألمنيوم، كل علبة تحوي على شريط، ومرصوفة في صندوق خشبي لونه اخضر غامق، فُرشت تحته خمسة "شيتات" مختلفة الأحجام، و علبة صغيرة من الخشب بداخلها مجموعة صور فوتغرافية مأخوذة من الفيلم كلقطات متباعدة من الفيلم..

وفي المساء عاد "ابي" فشاهد نسخة الفيلم بحاويته الخشبية، مركونا داخل البيت.. فقال "فعلا كان ضائعا هذا الفيلم، احد الأفلام التي اشتريناها من ايطاليا". أرسلناها إلى مؤسسة "خوري وعبيد" اللبنانية، لغرض طبع الترجمة عليها، وضاعت النسخة ما بين الوسطاء. وبعد كل تلك السنوات يعيدونها لنا لأننا ما زلنا أصحابها..

/

لم يجدوا أبي في السينما، ولم يسلموهم، لان الرجل لم يتعرف على مديرها الجديد، واسم المرسل كان مكتوباً بالخط الواضح العريض "إبراهيم دندي"، وهو صاحبه الشرعي، لذلك. طلبوا أن يستلمه شخصياً، ولأول مرة وقعت إيصالا من نسختين نيابة عنه. وقد فرح كثيراً بذلك التصرف..

قرأت ما مكتوب على حافظته الخشبية (رائعة الأديب الروسي العظيم "تولستوي" من أخراج (Sergei.Bondarchuk). (مدة عرضه ٣٩٠ دقيقة).

بعدها بأيام اسعدتنا سينما ديالى بعرض فيلم "الحرب والسلام" (١٩٦٨م)، فاتفقنا على مشاهدته بصحبة "العم فرمان". سرّ الرجل بدعوتنا، وحضرناه مساءً بعد أن استأذنت "أمي"، وقلت لها بصحبة "من"، ولم تعترض.

وجدته فيلماً عظيماً عن رواية عظيمة، لم يختلف كثيراً عن الرواية التي قرأتها، كان إنتاجه مشتركاً مع شركة "ايطالية".. تمّ العمل فيه قبل أن ينتج؛ سبع سنوات، وبكلفة ١٠٠ مليون دولار. فيه مشاهد المعركة متقنة جداً. فيه كادر بشري كبير، عرض لوحات، وأثاث اقترضت من المتاحف الروسية لإبراز معالم دقيقة عن الفترة التي حدثت فيها الأحداث. فاز هذا الفيلم بجائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي في عام ١٩٦٨. كل تلك المعلومات اخبرني بها العم "فرمان"، بعد ان شاهدناه معه..

***** ***** *****

تلك الدروس التي جعلت منه يطير فوق الأنغام، وكأنه لا يعزفها على آلة العود... بالضرب على أوتارها، بل يستخرجها من

أعماقه بدلاً من استخراجها من تلك الغرفة الخشبية الصغيرة، برقبتها وأوتارها.

كلما يسمعنا كل تلك النغمات، كانما كان يذوب كما يذوب الصوفي في خشوعه. كان يؤكد: أن أردنا تعلم لغتنا فعلينا بالإصغاء، كذلك الموسيقى نتعلمها بالإصغاء. فنصغي إليه، بكل جوارحنا.

في كل مرة كان يستخرج لنا شيئا، تارة نوطة بخط يد "يهوده"، يحتفظ بها اعتزازاً بما تركه المعلم من جمال، وتارة صورا، مع أعضاء الفرقة الموسيقية التي اشتركوا فيها، وبضمنها صوراً أخرى مع "جدي"، وصديقه والد "يهوده".. ظهر فيها "أبي" انيقاً، وبدون سدارة.. كذلك صوراً لوالد "نديم البيروتي"، وهو يحمل على كتفه طائر "العقاب"..

بقينا نتعلم دروس العزف، ويتخللها شجون الحديث..

وفي الوقت نفسه، كنتُ أدون بالآلة الكاتبة التي بقيت من دون شريط محبر، ينزل بصورة الحرف على الورق، كنت أتعمّد ترك أوراقي المكتوبة بالحفر على الورق، وفيها معظم ما اسمعه شفوياً، مطبوعاً على ورق لا يقرأ بسهولة.. صرت اكتب أشياء أخرى اختلقها من الخيال، مثلما كان يفعل "دستويفسكي"، ظناً مني بان إعادة كتابة الأحلام، ومزجها بالواقع، تجعلني أحقق انتصارا على عزلتي، فكتبت قصة خيالية، لم تتجاوز بضعة أوراق. كانت تتضمن مشاعري تجاه "اليزابيث" وأسميت بطلتي باسم "كليوبترا"، ورحت استسلم للانثيال، فأطبع مباشرة بواسطة الآلة الكاتبة بعد أن وضعت ورق "كاربون" أمام الورقة، فظهر ما اكتبه جلياً واضحاً، على وجه الورقة الأخرى. فكأنني أنجزت مع نفسي شيئاً جعلني اشعر بالفخر، ولا يفوق شعوري

/

بالارتياح عندما أتمكن من معزوفة، أحببتها. تجرأتُ في اليوم التالي وعرضتها على "العم فرمان"، فأعجب بها، ثم اقترح علي تعديل بعض الكلمات، فصارت حسب ذوقه، بأنها محاولة كتابية موفقة جداً..

***** ***** *****

بقيَ عمي "صبحي" محافظاً على عادته، حتى بعد أن تقاعد من العمل في وزارة النفط، يومياً بعد الساعة الثانية ظهراً، بعد النهوض من قيلولة الظهيرة التي لا تتجاوز الساعة من كل يوم، فانه يدخل إلى غرفة عمله، التي تحوي على مجمدة كهربائية كبيرة، يضع فيها ما يشتريه من اللحم . يبدأ بتقطيعه، ونزع العظم من اللحم. ثم يوزعه، في ثلاث حاويات الأولى تخص لحم الشواء، والثانية تخص لحم "الكباب" الذي يفرمه بواسطة فرامه كبيرة، بعد أن يزج معه القليل من شحم البقر، وبعض الخبز الجاف، ويدفعه إليها وينزل في حاوية أخرى، تستقر أسفل الفرّامة. ليتماسك تعمل أيضا على الكهرباء، أما الحاوية الثالثة، فهي تخص العظم المقشطة عنها اللحم، وبعد أن ينتهي من عمله، يقسمه في أكياس صغيرة، وكل يوم يأخذ منه جزءا ليوزعه على بعض العائلات التي لم يكن باستطاعتها شراء اللحم، وطبخه.. كان يعمل لوحده، ولم يكن أحدٌ من أبنائه يساعده في عمله.. كانت دقته في العمل، وحرصه يجعلني انظر إليه، ولا اكلمه، كنت أريد أن ابحث عن نقطة انطلق بالحوار معه، إلا انه كان يعمل بصمت..

***** ***** *****

هل يكون "فؤاد"؟ هو "مكابيوس".. مثلما لمَّح لي "عباس زرزور"؟.

فتعمدت أن اكتشفه مباشرة بعد عودتي إلى البيت، كنت أحفظ ملامح "يهوده"، بعد أن وصفته كثيرا في أوراقي، فجعلت انظر إليه، ولم أجد أيّ شبه لا في اتساع العينين، ولا في بياض بشرته، وبدت ملامح "عمي صبحي" منطبقة عليه كذلك ملامح "أمه"، وليس به أي تقارب أو تشابه، ولا يختلف في مطلع جبهته العريضة عن شقيقة "سعيد"...

ضحكت كثيراً من "فؤاد" الذي بدا لي مسكيناً، و"كلما تقدم في عمره يزداد بلادة" كما يقول عنه "صفاء" دائماً..

***** ***** *****

قال "عباس زرزور":

- سبحان الله.. أنت أيضا ستصبح كاتباً. فعليك ان تصغي جيداً للناس، تصغي لحكاياتهم، ربما من حرف عابر يفتح عندك رغبة بوح، تحملني اولا، ودعني احكي لك حكاية امرأة من مدينة "قادش"، حتماً ستصادفك يوماً، وأنت تتصفح أطلس الجغرافية.. مدينة بعيدة، فيها عرف اجتماعي صارم، مدينة عريقة، فيها كنائس، ومشهورة بمعجزاتها الطبية. تلك المرأة اسمها "مسعودة"، هي بنت اصايل، وبنت أبيها. زوجها ابوها من ابن عمها، ولم تدم فرحة أهلها بذاك الزواج أكثر من ساعة، وترملت بعد ان سقط زوجها مضرجا بدمائه بين يديها، فكان قدرها. وبعد سنة او اكثر، شجعها أبوها على السفر والدراسة، فسافرت إلى البعيد، وهناك، ابتسم لها القدر مجددا، ودخلت في قصة حب توجت بزواجها، من رجل متعلم، ولما جاء أبوه، الى مدينتها ليخطبها من أبيها، تفاجأ بأنها كانت متزوجة من رجل آخر، فلم يقبل بالأمر، وتطور الأمر الى قصة أخرى، قصة عداء بين الأبوين. ولكن

الرجل تحدى كل الأعراف، وتزوجها هناك. فأنجبت له ولداً، لكن فرحتهما لم تدم طويلاً. فالقدر كان يلاحقهما، فنزع الأم عن ابنها وزوجها في غربتهما. ولم يكن احد الجدين عالماً بكل شيء، أما جد الولد للام فقد عرف بذلك الزواج وقد باركه، قبل الولادة، وبعدها. ولكن القدر هو من يحسم، وهو من يحكم..

بقيت مصغياً إليه، ولكن السعال راح يهزّه هزّاً عنيفاً، وصار يأخذه كلما أراد أن يواصل كلامه، اخذ وجهه يحتقن أكثر، ويصير بلون غامق، يتوقف قليلا عن الكلام، ولكنه كان يواصل بإصرار...

***** ***** *****

كناّ دائماً نصغي الى عزف بعضنا البعض، ولكن "صفاء" كان متمرناً صلباً عنيداً، ولابد من ان يأتي بالنغمة المستعصية.. بقيت استمع له، اذ لم يكن لدينا آلة أخرى في بيته. فطرقت الباب، ولم يفتحها احد، وتبين فيما بعد بان عماته الثلاث، كل منهما في مشوار، وبقي البيت فارغاً، الا منا نحن الاثنين. وترك الغيتار وراح يجيب الطارق. فبقيت اعزف لوحدي في الغرفة، كمن يتمنى على صاحبه أن يتأخر، فصرت مستغرقاً، ومنتشياً مع نغمة كدت من إتقانها. تاخر "صفاء" عني، كثيراً، ولكني كنت لا أريد منه الا ان يبقى في شاغله، وبعد ذلك سمعت طرقا عنيفاً على الباب الخارجي.

صديقة "أياد" تزوجت من ابن عمها.

صفاء يستغل خلو بيت عماته، ويستقدم عاهرة، بصحبة "إياد".. فتفتضح. وكانت تلك المشكلة تسببت في منعي من اللقاء ب"صفاء"، وأيضاً عدم إكمال دروس الموسيقى..

***** ***** *****

لقد تمّ خداعنا بواسطة القضايا المصيريّة. اذ تلاعبوا بالمسميات، وشوهوا المفاهيم..

الحقيقة الواعية تدرك بوصفها شبكة من خبرات متداخلة، تمزقت نُظم معارفنا بكلّ هذا الكمّ المنظم من التشويه، فلم نعد نفهم مما نسمع.

بقينا كثور الساقية، ندور في مكان واحد، والماء منقول لشاربه. مرروا علينا شبكة متداخلة تعزز ترابطاً لدعم بعضهما البعض.

- "جموعنا لا تصغي إلى الخطابات العقلية إلا إذا كان فيها وعدٌ بأكل الحشيش"..

- "الأنبياء بدأوها معنا ان الله من أرسلهم"..

- "لو أخبرك احدهم وقال بأنه ليس مسلماً، أو مسيحياً، أو يهودياً.. كيف ستعرف بان الديانة لا تغير في شكل الإنسان، أو جوهره"..

- "الدين زحف استراتيجي لاحتلال البشر من الداخل.. بالتالي بات زحفاً استراتيجياً لاحتلال الأماكن على الخرائط كما في رقعة الشطرنج".

- "المادية التاريخية ترفض مفهوم التدخل الإلهي، ترجحها لعوامل اقتصادية، ولا غيرها".

***** ***** *****

كان عباس مؤمناً بان النفخ في الشوفار يحقق معجزات، وأكد لي بان "الحازان" صفر به، أمامه، وكسر بصوته قدح زجاج. الشوفار بيد العازف المقتدر عليه يأتي بنتائج عظيمة..

كأنما الموسيقى أمر الهي مثلما شرارة الكهرباء التي توحد بين ذرات الأوكسجين والهيدروجين، وتحوله إلى ماء.

كان حديثه معي عن ماضيه، يجعله يحتقن، وتتضاعف حالته.. فتدخل "فؤاد" قائلاً لي:

- "أتركه فأنت تقتله بأسئلتك"!!

- "لا يُخيف البشر إلا البشر، وأنا لا اخاف البشر".

١٦

قال شلومو بان "علوان دندي" واحدٌ من خمسة رجال، الـ"جرخجية"، وظيفتهم هي حراسة كلّ ولاية "بعقوبة" ليلاً، بكل شوارعها، وأفرعها، وحتى بساتينها الداخلية التي كانت جزءا من أحيائها. أيامها كانت أشبه بطبق مكشوف لمن يريد أن يجولها على دراجة هوائية؛ بأقل من نصف ساعة، ولم تكن تزيد عن خمس محلات لها أسماؤها ضمن (التكية، والسراي)؛ "المنجرة"، "أم النوة" "العنافصة"، "السكك"، "السوامرة"، "الفايزية"، "الكنث".

وبقيَ في وظيفتهِ الحكومية حتى عام ١٩٤٥م، عندما شيّد "ناجي يعقوب" بناية في ذات العام وكتب رقعتها بالخط الكوفي "سينما يهوده"، ونظمت بطابوق مصنوع من مادة "الآهين" وطليت باللون الرصاصي لتبرز. وتمّ افتتاحها عام ١٩٤٦م، فعهد إليه إدارتها، لكونه كان يجيد الانكليزية قراءة وكتابة، لأنه قد أجادها أثناء اختلاطه بهم، وقد جعل من "يهوده" وابنه "إبراهيم" مساعديه. وكان الرجل متجهماً صارماً، وكأنه لا يعرف الضحك على الإطلاق. دائماً يحمل تحت إبطه الشمال، عصا انكليزية الصنع، من خشب صلب ومنقوشة بنحاس بارز قليلا على سطحها، جعل وزنها يزيد على كيلو غرام، وطولها أكثر من نصف المتر، وكان يجيد استخدامها، إجادة تامة، ولم يستطع احد حتى موته ان ينتزعها من قبضته عليها، وهي تحت إبطه.. كان الناس يهابونه، وكان يستطيع بعصاه ان ينظم أي تدافع على شباك التذاكر.

/

***** ***** *****

قال "شلومو":

- "استدعيته أكثر من مرة، إلى البيت، وحملته على ان يغتسل، ويتطهر عندي"..

وكلما وضعت في جيبه نقوداً، تركها قرب الكرسي الذي كان يجلس عليه، من دون أن أراه.

كان يظنُّ باني لا اعرف اسمه الحقيقي، ولا اعرف قصته الحقيقية. ولم يكن يعلم بان الله قد كشفه لنا منذ أول أيام قدومه من "قادش"، ليستقر بيننا في "بعقوبة"، بعد أن تعرفت إليه "أم هاني"، تلك المرأة التي وهبها سبحانه، حفظ الوجوه، ولم تنس من تعاملت معه. وقبل أن تنفرط قصة خطوبة "يهوده"، وتتعقد.

لم انس ذلك اليوم الماطر، عندما حضرت مع زوجها شقيق زوجتي، فتذكرته ساعتها، عندما شاهدته في مراب السيارات، ينظم لسائقي سيارات الأجرة تسلسلهم بالذهاب. وأخبرتني من دون أن تعلم أنها جاءت لتصب بتفرعات قضية "يهوده"، وتداخلاتها.

يومها أعلمت "حسقيال"، فطلب أن لا تكشف له ذلك، وهكذا تيسرت الأمور بمشيئة الله.

فصار علينا، كلنا، شداً أضافياً، إذ حدس "حسقيال" بما في الأمر من خطورة، وراح يحسب الأمر جيداً، حتى اتخذ الاحتياطات اللازمة، فمن الأرجح بان يتظاهروا بعدم إظهار معرفتهم بأمر "عزرا" القادم من طيبة، وان يتعاملوا معه بأنه "عباس زرزور" كما يُعرف بنفسه. حتى يتبين أمره، و"لا داعي لأي قلق بشأنه"، "ما دام الطفل

"مكابيوس" في مأمن بعيد"، وبين زوجين يرعيانه كأبوين، ويحرصان عليه، فالطفل بعد أن توفيت أمه بعد ولادته، صار يحتاج إلى رعاية خاصة من "أم" أكثر من رعاية "أب"، مؤقتاً، حتى يأتي يوم، ويقنع "ناجي يعقوب"، ويفيق من عناده، ويحيد عن قراره الصارم..

الرجل عصف به المرض، وأفقده أكثر من نصف وزنه، من بعد أن كان طويلا عريض الكتفين. ضخماً وسميناً، ووجهه كان يشع حلاوة ونظارة. وصار حجيز السرير، ذاوياً، ضامراً، فالمرض جعله كسيراً، لا يقوى حتى على سهولة الكلام.

كلما يفتح احد منهم الموضوع يحتقن، ويكاد الموت أن يأخذه أكثر من مرة، إلى درجة فكان على "حسقيال" التهدئة، والتأجيل إلى حين مناسب.

كنت أراه مصيباً، بالرغم من انّي لم أقحم نفسي بالموضوع.

كذلك صار حال "يهوده" متأزماً بسبب والده الذي كان صعب المراس، لا يتراجع عن أي قرار اتخذه، وبقي مصراً على عدم زواج ابنه من "مسعودة"، لأنه يعدّ ذلك كفراً، كا يلحق الشؤم، واللعنة بكل العائلة.

لكنه تحدى إرادة أبيه سراّ، وأخفى الأمر، عنه مؤقتاً، وسيبلغه بعد حين.. فالأب لم يكن يعلم بابنه الذي تورط في أمر لا يمكن التراجع فيه، وبدأ حمل زوجته "مسعودة"، يشخص كأمر مصيري، ولو لا محبته لأبيه، ومحبة أبيه له، لكان قد قرر البقاء نهائياً مع زوجته في ايطالياً. كان يعرف بان هكذا قرار، سوف يكون قاتلاً لأبيه.

تعاطف معه شقيقاه من داخل البيت، وآزره من خارجه "إبراهيم دندي"، و"مير أبو الورد"، وحاولا أقناعي بالأمر، ولكني آثرت

الصمت، وبقيت أتابع وحسب. لا أروم التورط بتلك القصة، ولا أقوى على المشاركة المباشرة في دعمهم.

بقيَ كل شيء طيّ الكتمان..

من بعد أن اضطرا لعقد قرانهما في كنيس، هناك، كانا يترددان عليه دائما في معظم شؤونهما الدينية.. لكن اللعنة التي كان يخافها الأب، لم تدعهما ينعمان بسعادة زوجية كباقي أهل الأرض. حطّت عليهما كما يحطّ طائر الموت الأسود، وخطف منه الأم ساعة ولادتها، ولم يخطفه كزوج من امرأة مشوؤمة، فبقي لا يعرف بأي اتجاه يسير بصحبة طفل خديج..

بكل ذلك أخبرته، وقبل وداعي عتبة باب داري من "بعقوبة" بيوم واحد..

*****   *****   *****

في الصباح وصلتُ مع "فؤاد" على دراجتي الهوائية، ووجدنا "عماداً" بباب المستشفى ينتظرنا ليخبرنا:

- "عباس زرزور" مات!!..

إذ كان يحتاج لمن يرسله في طلب أبيه، ليأتي ويتصرف بالأمر، فبادر "فؤاد" إلى ذلك. بقيت صامتاً، ولم اقل أية كلمة، حيال الأمر.

ذُهلت ماذا يفترض بيَ أن افعل؟.. ماذا يمكنني قوله، كأن موسيقى حِداد قد هَدرت في ذهني، موسيقى بالغة الحزن، ولا ادري كيف أخذت تتناوب، وتموج!..

بقيت اتبع "عماد" أينما يذهب في أروقة إدارة المستشفى.

وبعد مجموعة من الإجراءات الروتينية، التي قام بها لاستلام الجثة من الثلاجة الكبيرة، التي بدت وكأنها اكبر من غرفة. قال الرجل الموظف المسؤول:

- "تغسلوه هنا"؟.

فقال "عماد" بعجالة، حائراً

- "نعم"!.

كانت هناك دكّة خاصة لغسل الموتى في غرفة معزولة، داخل سور البناية.. ثم حملناها، ووضعناها على الدكة لغسلها، ثم اخذ الرجل يرتدي قفازات مطاطية بيض، ثم قال الرجل:

- "أولى الناس بغسل الميت وصيُه، أي الذي أوصى له الميت أن يقوم بغسله. ثم أبوه لأنه أشد شفقة وأعلم من الابن ، ثم الأقرب فالأقرب"!!..

نظرت إلى "عماد"، فوجدته متردداً، لا يقوى أن يتخذ قراراً، فاعتقدت بأنه يخاف من هكذا أمر، فتقدمت خطوة، ثم أغلق الباب، وبقي "عماد" في الخارج لا يعرف ماذا يقول، وبدأ الرجل بتجريد الجثة من ثيابها، فبدا هيكلاً عظمياً مغطى بطبقة من الجلد.

ولم يبدأ الغاسل إلا بعد أن تأكد، وقال "الحمد لله.. مختون"!!.

ترى ما الذي حدث؟. وأنا انظر ساهماً إلى الرجل بعد أن وضع عليه شرشفاً ابيض على منطقة وسطه، ثم رفعه من جهة الرأس بيمنه، إلى وضع الجلوس، وراح يعصر بطنه برفق، ثم اخذ القليل من القطن،

وادخله إلى مخرجه بواسطة ملقط خشبي، دون أن يرى عورته، واخذ يوضؤه كوضوء الصلاة، لكن لم يُدخل الماء إلى أنفه أو فمه، بل اخذ يُدخل الغاسل أصبعيه بهما ملفوفاً بخرقة مبلولة، ثم مررهما بين شفتي الميت، ومسح أسنانه، ومنخريه، ونظّفهما، ثم غسل شعره، ولحيته برغوة صابون.. ثم مسح صدره من جهة الأمام، ومن جهة الخلف، وأداره بجانبه الشمال، واليمين. كررها ثلاث مرات..

بعدها اخرج مقصاً صغيرا، وراح يقص له شاربه وتقليم أظافره، بعدها نشفه بواسطة منشفه نظيفة، كانت معلقة بجانبه. أما "عباس زرزور" بقيّ كأنه نائمٌ هادئ الأسارير، وغير مصدق باني أراه للمرة الأخيرة..

***** ***** *****

- "لقد اجمعنا على أسوأ الحسابات ظناً. من بعد ارتياب شديد، فأصبحنا على افتراض انه جاء بغرض التجسس، وربما قد يشتمل التدبير لاختطاف بن "يهوده"، وذلك بتحريض من والد "مسعودة" الذي كان يتابعه أولاً بأول، وبتمويله منه ايضاً.

فقصة "الشاب يدعي بان أهله ضربهم مرض فتاك، وانه من أصل أفغاني، وبقيّ يسرد على البسطاء من الناس أوهاماً حتى صدقوه، لما كان في شخصه، خفّة الظل، دائم الابتسام، والمرح، كما يحفظ الكثير من الطرائف"، لم تكن بالقصة العابرة علينا، كما أراد لها ان تمرّ عليهم. والذي "استطاع أن يثبت مكانه، ويحظى باحترام من حوله، ولم يكن دوره سهلا، فأجاده كمنادٍ ومسجل أرقام السيارات الغادية والقادمة لبغداد، وبقي يعمل في مرآب السيارات،

وسكن مع "سعدون دلال" في غرفة ضمن البناية. التي كانت مجاورة لبيت "ناجي يعقوب".

بقينا نتعامل مع الموضوع بكتمان شديد، فكان "يهوده" عندما يذهب إلى "بغداد" ليزور عائلة صديقه التي ائتمنها على ابنه، بقيَ يحرص على العودة بنفس اليوم، ويحذر أي تعقب مفترض. اقتضت آراؤنا أن يبقى "مكابيوس" بعيداً عن "بعقوبة"، وان يراعى التكتم الشديد، بعد ان استجدت تحدّيات ملموسة..

***** ***** *****

فكل عائلة لها لقب، ولا تتعامل معها الناس بغيره، لقب المهنة، بعضهم لا يسمون باسم الأب ولكن بأسماء أمهاتهم، لكثرة تطابق أسماء الآباء أيضا، حيث خيال الناس محدود، ولا يمكن لأحد منهم أن يجرب اسماً جديدا، ما لم يكن احد من المحلة قد سبقه.

***** ***** *****

بعد ان تشاجر "صفاء" مع "إياد".. كشف لي بانهما كانا يرسلان ما اكتبه من رسائل الى بعض صبايا المحلة، واني متورط معهما في مشكلة جديدة حتماً؛ تلك الرسائل التي طلبها مني كتابتها "صفاء" بحجة ارسالها الى حبيبته في الموصل..

***** ***** *****

- "بعد أن شكل لنا قدوم "عزرا" حافزاً لان نحتاط، وان أمرَه تطلب الحذر الشديد، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة يضمرها البشر، وجعله يضيع في متاهة الخمر المتواصل لا يصحو من سكره إلا ليسكر من جديد".

/

لم أفكر به طوال تلك السنوات ولم استدعهِ إلا بعد أن عزمت على ترك هذه المدينة التي ولت فيها كما ولد فيها "ابي"، وكذلك ولدي، وبعد أن اتصل "يهوده" من "بلغاريا"، وطلب مني مساعدته، أن استطعت، وكان له ما أراد، وطلب مني ان التقط صوراً قدر ما استطيع، ولكن الأمر في أيامنا الأخيرة تطلب الحذر، واقتصر على اقرب الناس، واقرب المعارف..

وجدت "عزرا" رجلاً متعلماً، ومثقفاً، يعرف جيداً سيرة الساسة، والسياسيين، ويدرك نواياهم. اذ قال لي بصدد الرحيل :

- "اختصرها ذات مرة "حسقيل قوجمان" بجملة واحدة "إن هجرة اليهود من العراق كانت مؤامرة مدبرة ومحبوكة، أسهمت فيها قوى هائلة أجنبية وصهيونية وعراقية ". بدليل أنّ "نوري السعيد [٤٦]" اعترف أمام الإعلام ذات مرة قائلا: "سأبعث للدولة الصهيونية بمائة وخمسين ألف يهودي، وبذلك ستتقوض دولتهم دون حروب"..

كنت قد أكدت له بأنني سوف أؤمن له مبلغ سفره، ولكنه رجاني ان اعدل عن الأمر، وهو لن يستطيع المقاومة أكثر، فالمرض لن يدعه يكمل مشواره في الحياة..

كان يائساً إلى ابعد حدّ، ومريضاً إلى ابعد حدّ.. وكنت اطلب منه أن يأتي إلي، وقتما يشاء، ولكنه كان كريم النفس، لا يأكل إلا القليل، لكنه كان يحب أن يلعب مع الأطفال، كثيرا، وهذا ما جعلهم عندما يكبرون يكونون أصدقاءه، وكان لا يتجرأ أن يسألني أي سؤال، إلا في

---

[٤٦] ص ١١٠ رشيد الخيون- الأديان والمذاهب بالعراق

المرة الأخيرة، مررت عليه، وكان في الحديقة، يشرب الخمرة التي ضيعته، وتاه عن أهله..

***** ***** *****

وضعوا الجثة في تابوت، ورفع على سيارة، بعد لف التابوت الخشبي ببطانية خضراء. ثم ذهبوا به إلى الجامع، وصلّى عليه أبناء المحلة. بعدها مشى خلفه مجموعة من رجال المحلة بضمنهم "أبي"، وكنت معه بصحبة "صفاء"، "فؤاد"، "أياد"، والعديد من الشباب الآخرين الذين كانوا يحبونه، وأخذوه لدفنه في المقبرة القريبة "أبو إدريس"، بعد أن اتفق الآباء فيما بينهم عليها لقربها، حيث لا تبعد سوى كيلومتر واحد.

ثم انطلق الجميع، وكان أشبه بموكب مهيب من سيارات، وعربات ودراجات خلف السيارة الأولى التي تحمل تابوت "عباس زرزور"، ويرددون بصوت عال "لا اله إلا الله محمدٌ رسول الله"، وما أن وصلنا المقبرة حتى أزداد الجمع، وما أن اختاروا مكاناً حتى بدأوا بحفر القبر.

بعد قليل صار القبر جاهزاً، لان معظمهم أحبوا المشاركة فيه، كنت أقف قريباً من "أبي" الذي لم يبتعد كثيراً عن القبر، فشاهدت كيفية فتح التابوت، وإنزاله في الحفرة التي حفرت في عمقها حفرة جانبية إلى جهة اليمين، وتم إدخاله فيها ورأسه باتجاه القبلة. بعد أن غلقت عليه بعدة سعفات اقتطعوها من بستان النخيل القريب من المقبرة، ثم هالوا التراب فوقه.

وكان اغلب الكبار يأخذون التراب ويرمونه بأيديهم، كذلك فعل مثلهم بقية الشباب، حتى ارتفع تراب القبر فوق الأرض، وقرأوا سورة الفاتحة، وقبل أن ينفض الجمع سمعت احد الرجال يقول "وأنا عليّ ثمن

الطابوق"، وآخر قال "سابني القبر بنفسي"، أما "أبي"، فقال "عليّ ثمن الشاهدة"، وضحك والد "أياد":

- "ومن منا يعرف أهله"؟.

- "كلنا أهله"!!.

ثم ورجعنا بعدها إلى البيت. وأنا أفكر في كيفية موت "عباس زرزور" في المستشفى، بعد أربعة أيام من دخولها، الذي لم يستطع المقاومة أكثر من ذلك. بقيت ورقة شهادة الوفاة، عندي، ومكتوب فيها أسباب الوفاة "تشمع الكبد، وتيبس الرئتين"..

***** ***** *****

كنا نظن بأن "ناجي يعقوب" توفي، وهو لا يعلم بزواج ابنه من "مسعودة". كان يأتي إليه، كل يوم، يجلس بجانبه على كرسي، ويقشر له تفاحة، إلى قطع صغيرة، ويشاركه أكلها، يتسامران ويضحكان.

"حسقيال" هو من اخبر "علوان دندي" بعد ان اجبره على الإجابة.. عن سبب تأخر ولده في سفره إلى "ايطاليا"، فاشترط عليه قبل أن يخبره بالحقيقة، أن لا يخبر صديقه الأعز "ناجي يعقوب"، فقبل بالشرط، وأتمّ وعده.

لكنه تجاهل بان الرجلين يتقاسمان أدق الأسرار، ولم يصبر على كسر وعده إلا يوماً واحداً أو يومين، وفي اليوم الثالث لم يصبر على ذلك فاخبره، كعادته بدون مقدمات، سكت قليلاً، ثم طلب منه أن يعيد عليه ما قاله، ولما تأكد من الذي قاله، اهتزّ صدره كما عصفور عنيد أراد أن يفلت من قفصه.

تنهد بعمق، ونزل كمن ارتفع عن سريره، وسقط مغشياً، ولم يُجبْ. ما رآه "علوان دندي"، فأيقن بان الرجل قد ودعه إلى الأبد، دون ان يقول له كلمة واحدة.. كان سيفا بتاراً قد شطره إلى نصفين، فأختضّ كسعفة ضربت أوراقها ريح سريعة أخذت تتصاعد، فأراد أن يقول كلمة واحدة، ولم يستطع قولها، وترك صحنه فيه نصف تفاحة مشطورة إلى ربعين متساويين، ومات.

***** ***** *****

صعبت عليّ مهمة العثور على الأوراق التي اخبرني بها "عباس زرزور"، التي وجدها يوم عودة "حسقيال" متنكراً إلى "بعقوبة"، تشوقت لمعرفة تلك المعلومات التي جعلته يعرف من هو "مكابيوس"..

***** ***** *****

لم أضع "عزيز شلومو" في خانة الشك، لكني لم اسمع ان أباه قد ذكره بأمر ما، باستثناء سماعي اسمه يرد خلال هذيان "عباس زرزور"، ولم اسمع على الإطلاق به، سوى من ابنه زميل مدرستي. أن "أبي" كان يعرفه، وهذا بحكم أنهما أبناء جيل واحد. ولم يرد ذكره بلسان احد ما. لكني تذكرتُ بان لون عيني "عزيز" بلون عيني أبيه "سليمان"، بالرغم من انتباهي لذلك في وقت متأخر، بعد أن رحلوا من "بعقوبة"، إلا أن ملاحظة لون العين تشفع لي ولا تجعلني اندم...

***** ***** *****

/

انشغلتُ بفكرة كيفية أن أصل إلى "حسقيال"، ولكني اجهل مكان إقامته في "بغداد"، وهكذا رحلة مجازفة تتطلب إذناً من "أبي"، فالرجل لن يسكت ان زرته، حالما يزوره "أبي"..

١٧

أخذ "أبي" يصعد سلماً محفوراً في الجدار، وراح يَفك الشاشة البيضاء المصنوعة من قماش الكتان الأبيض السميك، بمهارة العارف، مبتدئاً بها من أعلى. يفتح واحدة، ويُفلتها ليتسنى له أن ينزل درجة أخرى، كان ارتفاعها سبعة أمتار، وعرضها اثنتي عشرة متراً. تتوسط مساحة عرضها عشرون متراً، وارتفاعه عشرة أمتار. كانت الشاشة مُدعمة بحلقات نحاسية، على حدود إطارها، يمرّ بها حبلٌ قويٌّ، هو الآخر كان مربوطا إلى حلقات نحاسية مثلها، مثبتة على امتداد الجدار، والسقف. ما بين الواحدة، والأخرى مسافة لم تزد على نصف متر، قال:

- "كنا نغسلها كل ثلاثة شهور"..

راحت الحبال تنزل إلى الأرض، ثمّ انتقل إلى الجهة الثانية، وأفلتها بنفس الطريقة. لكن شاشة العرض ظلت مشدودة من الأعلى، ومتطوّحة، بعد ذلك خرج من باب الصالة، متوجهاً إلى الطابق الثاني، ومنه إلى سطحها العالي، وفتح باب "الجملون"، ودخل بين السقف الرئيس وبين الثانوي، حيث مكبرات الصوت الأربع الكبيرة، المخفية، والعشرات من المصابيح، وثماني فتحات للتهوية، امامها رقائق من الألمنيوم، مرتبة بشكل مائل، لتسمح بالهواء، وتحجب أشعة الشمس.

سمعنا صوت صرير الخشب تحت قدميه، متخطياً فوقنا دون ان نراه، من بداية الصالة حتى وصل فوق العمود الذي تشد اليه شاشة العرض. بعدها، تبين بان هناك فتحة صغيرة مغطاة بقطعة خشبية

متحركة، مطلية بلون السقف، كان يعرفها جيداً. فنزل منها مباشرة، وأصبح فوق العمود الحديدي المغلف بالخشب، الممتدّ فوق ستارة المسرح، والتي كانت مربوطة إليه، تلك الحلقات معدنية، التي كانت تشدها إلى أعلى لتضمن استواء سطح الشاشة، وبعد أن افلت آخر حلقة هبطت قطعة القماش إلى الأرض، وهي تعجّ بغبار سنوات الإهمال، تحول لونها إلى رمادي بعد أن كان لونها ابيضَاً ناصعاً.

انكشفت وراءها رحبة عرض باهرة، وستارة مسرح كبيرة، بالرغم من الغبار الذي كان راكداً على قماشها الأحمر القاتم، فتصاعد منها غبارٌ كثيفٌ، كالذي يسبق الحمم من بركان تصاعد غباره القاتم.. كما في فيلم سوف يهدأ في اللقطة التالية..

بقيتُ انظر بتمعن إلى تلك النقشات الجميلة المحفورة، على أطار "خشبةُ العرض المسرحي كما يسميها "ابسن"، كان له من العمق، يزيد على العشرة أمتار، فيوحي لامتداده بأنه مسرح كبير، إلى حدّ الدهشة، "الصالة شهدت العديد من عروض رقص الفرق الأجنبية".

بعد أن فُتحت الأبواب الجانبية، والشبابيك العالية وركود الغبار، غمرت أشعة الشمس الكاشفة كل الحافات، التي تحتوي صوراً منحوتة من الخشب فاتح اللون، ومثبتة على خلفية من خشب "الجاون" القاتم، وكأنها صورة واحدة، بانورما، لحضارة الإنسان الذي عاش على ارض الرافدين العظيمة، عشرات من العربات المتشابهة كأنها تتبع الأخرى، متجهة شمالاً، وكل واحدة تحمل رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً، وأزواجا من الحيوانات الداجنة، ولا تتماثل بما تحمل، وتجرّها ازواج من الأحصنة والبغال، والحمير. كأن ناحتها العبقري جعل منها قطعة فنية عالمية.

كنت مبهوراً بها، ومأخوذاً بكل لم يسبق لي رؤيته. مُندهشاً بتلك الإجادة المتقنة.

لحظ "أبي" وقوفي الطويل مدققا النظر في تلك النقوش. وكأنه أراد أن يضع حداً لدهشتي، فقال لي، بعد نزوله:

- نقوش المرحوم "موشيه"!.

كأني كنت قد سمعت أحداً كان يقول لي (لا مكان للقوة، حيثُ الحاجة للمهارة)، متذكراً وصفهم لقوة "موشيه" البدنية، بعدما تمكن منه شخصٌ ضئيلٌ، وغادر مثل "جبوري".

كان القول "لهيرودوت"، ولا اعرف كيف تذكرته، ولا اتذكر أين قرأته.. بقيت متسمراً في مكاني، انتظر منه ما يريده مني.

بعدها طلب مني مع أولاد أخيه، وبضعة من أولاد المحلة، أن نطويها إلى أربع طيّات، وسحبها إلى خارج صالة العرض لغرض غسلها، لتخليصها من الغبار الذي تخلل مسامها، وجعل من وزنها مضاعفاً.

كان "أبي" يتصرف، وكأنه ما زال مدير السينما الحريص، حتى بعد انقطاعه عن إدارتها كل تلك السنوات. فيسبقنا في أي عمل، وكأنه يدعونا لما يريد ان نعمل، ونزيح الغبار من على وجه أرضية خشبة المسرح، وكان قد اعد لذلك حزمة من سعف النخيل، وزعه علينا، ورحنا نكنس التراب، وننزله في أكياس فارغة، ويتم إخراجه من الباب الخلفي "التي خرجت منها "السعلوة" ذات يوم وركضت وراء "فؤاد" بغية التهامه..

وصل العم "فرمان" بصحبة الفنانين، بعد ساعة ونصف من العمل المتواصل، كنا نعمل بجدّ، ومرح بغرض تهيئتها، لتكون الصالة كلها جاهزة لأجل أن تليق بفرقة "يوسف عمر والجالغي البغدادي".

انهينا كل الاستعدادات، لغرض حفلة ختان أخي "خليل" بمساعدة أولاد المحلة البالغين. استقطبهم "ابي" في التنظيف والترتيب، بعد وعده إليهم أن يكونوا مع عائلاتهم في ضمن الصف الأول من القاعة. وراحوا ينزلون الآلات الموسيقية، ومضخمات الصوت، بينما استقر الفنانون الضيوف في غرفة كانت معدة لهم، ومفروشة بمائدة عامرة بصنوف الطعام، لم يكن احد منا قد تنبه كيف أعدّت.

بذلك اليوم بقيَ مدير السينما جالسا بجانب "أبي" وفرمان. تغمره سعادة كبيرة محققاً رغبة التقرب من محبوبه الفنان "يوسف عمر"، بالغناء على مسرحها. دون مقابل..

***** ***** *****

-(العجالة تجلب الفشل، ومهما كان ما تفعله [٤٧])..

حقاً، ما طمحتُ بكتابتي إلا لأعكس وجه مرآة، بعد ان غزت الوجوه بالغضون، والرؤوس بالشيب..

أيها الشاهد كم هو التاريخ خشن السطح، بغيضُ السرّ، حقدهُ كثيف، والمُلقن في مسرحه لم يكن بستانياً في حديقة الأرواح الزاهرة، ولم يكن مهنيّاً في امتداد النهار الآفل بالحزن السقيم، ولم يعرف وجهاً

---

[٤٧] هيرودوتس..

بين الوجوه يشبه الوجه الذي يراه في مرآته. حقاً، إنّه يرسم لوحة سواد المداد.

حقاً، مدينة صارت، وتسابقت عليها الشموس الحارقة، والظلال المجدبة. ولا يحرسها إلا الصمت الهارب من الضجيج المتوتر بالضياع.

مدينة كخصر راقصة، يجذبهُ، الأكثر سطوة، والأكثر مساحة، وأثراً..

مدينة تجول تحتها الأمواه، وتجول تحتها الأرقام، وتجول بصحبة عطر القداح.. حقاً، لمدينة تسمع فيها أكثر مما ترى.

*****   *****   *****

تذكرت صورة فوتوغرافية قديمة تجمع بين الصديقين، وهما يمثلان في مسرحية ظهرت في خلفية الصورة طيات ستارة المسرح..

كتب عليها (مسرحية البستان/ ١٩٥٢م/ تذكار نجاح باهر/ صالتنا الزاهية)...

*****   *****   *****

بقيَ صراخه عالياً متألماً من عملية ختانه، للمرة الثانية، بعد أن ختنه الخاتن الأول بطريقة "لم تكن محكمة" كما قالت المرأة العجوز التي استشارتها "أمي"، إذ تبين لها بان الغُرله لم تقصّ كاملة، فتوجب إعادة ختانه بخاتن آخر، وتصحيح عملية الختان بختان جديد، فكنت متألماً لألمه، إذ كان صغيرا جداً، ولم يحتمل الجرح مرتين.

صار عندي ردّ فعل حقيقي تجاه العملية برمتها، وتكرارها. ونويت القول لـ"أمي" ليس من المعقول أن تجعلي من امرأة لا تعرف شيئاً هي التي تقودك، وتطلب منك الإعادة بعد الخطأ؟.. صرتُ أريد السؤال عن:

-"تصحيح الخطأ الخلقي لا سامح الله"؟..

بقيت متألماً لما يحدث، ومحاولاً إيجاد أجوبة لأسئلة احتدمت في رأسي.

(أريد كتابة تبقى، ولا تنسى...

كتابة تتحدى هذا المحظور، وربما

تتحدى هذه الأصابع المرتعشة، الخائفة)

قلتُ لابدّ وأن أناكف أمراً من الأمور التي لا احد يعرف لها أي تصريف معرفي، فالمعرفة اقصر الطرق إلى السلام.

كأني سمعت صوتاً مع صراخ الطفل الصغير، الذي لا حول له ولا قوة..

"حالما تنته من مخطوط كتابك، تعرضه على دار نشر، ويكشف الرقيب بأنك قد خضت في محظور؛ ستدرك بأنك قد أنجزت كتاباً يستحق الفخر".

نحن من يشجع على الخرافة، بالرغم منها تختلق لنا كقانون مفروض يجب أن يجارى تحت السيف.. الأمر حسمه "ابن رشد" في قوله، (اللهم أعطيتنا العقل، وأعطيتنا الكثير من الشرائع التي لم يقبلها).

/

***** ***** *****

بعد زواج "ميساء".. انتقل أهلها إلى بيت آخر قرب بناية بلدية "بعقوبة"، وفي يوم عاد فيه "إياد" مدمي الوجه، ويبدو بأنه عاد إلى الاتصال بها، فامسك به زوجها، وأخوته ثم أشبعوه ضرباً، وسمعت من "فؤاد" بأنه تدخل حتى انفكوا عنه.

***** ***** *****

بينما كنت في غرفتي أصغي إلى إحدى أغاني "عبد الحليم حافظ"، طرقت "كرستين" الشباك عليّ، وأخبرتني:

- "ماجد يطلبك على الهاتف لأمر هام"..

ترددت بالحديث، لربما تسمعني "أمي" بعد أن وعدتها باني لن احفل بها مهما كان السبب، فطلبت منها رقم الهاتف الذي يتصل منه، وأخبرتها باني سوف اتصل به بعد ساعة من الهاتف العمومي الموجود على ناصية الشارع قرب مقهى "مناتي". غابت ثم عادت إليّ بالرقم مكتوباً على ورقة صغيرة، ورمتها دون أن تقول شيئاً، ثم اختفت من جديد..

بعد ذلك لم استطع الصبر. ثم توجهت إلى "كابينة" الهاتف العمومي، ووضعت فيه عملة نقدية، مجرباً الاتصال بواسطة الهاتف، الأول في حياتي.

وجدتني اسمع صوت "اليزابيث"، هو الذي هدر لثوانٍ عبر تلك الآلة، فجعلني ارتجف، وأتلعثم، فنطقت سريعا كل كلماتي التي خرجت مرتبكة.

طلبت مني أن تعرف المتكلم، معها، فتدافعت الكلمات المترابطة في الذهن، ولم اعرف ماذا حلّ بيّ؟.

نطقت:

"جار بيت العم ميخائيل"...

"ماجد ابن العم ميخائيل.. طلبني"..

"اتكلم من بعقوبة"..

ضحكها جعلني أتماسك، ورحت استعيد توازني، بعدها جاءني صوت "ماجد"، وافهمني بأنه ينوي إرسال صديق له، ويريد مني ان أسلمه صندوق الكتب، فرحبت بطلبه، وانقطع الاتصال..

ربما؛ تركت سماعة الهاتف ولم أرجعها جيداً في مكانها.

الكلمات التي أردت أن أقولها، كلمات تخصّها، قضيت في صياغتها ليال طويلة، وتبين بأني لم استطع النطق بها، فاجأتني، بحضورها المباغت، عبر الهاتف الذي استخدمه للمرة الأولى في حياتي، كلمات نظمت في الذهن، ولم يبق منها سوى التلكؤ، والتعرق، والحيرة.. ضاعت مني تلك الكلمات دونتها، لها.

ولم أرض عن الذي بقي منها، رحت أمزقها، واكتبها من جديد.. بعد أن اكتشفت بأنها لم تكن صالحة، لمكالمة سريعة عبر الهاتف، ربما كانت تصلح عبر شباك تعارفنا، بقيت أغلب الكلمات تحتاج إلى نظم جديد.

***** ***** *****

يصعبُ عليّ الإلمام بأحداث حدثت أيام مرحلة الأول ابتدائي. فالعودة إلى سنّ مبكرة من العمر، عودة يغمرها الشحوب.

اختفى وتشوش كلّ ما سمعته، ولم أره. ضاع ما كنت قد سمعتهُ وحسب. صَعُبَ الإلمام بما حويّ المسموع من صور، بعد كل ذلك الزمان؟.

لكن؛ الذي شهدته عصيّ عليَّ نسيانه، (لقد كان له العديد من القوات، لكن كان فيهم القليل من الرجال[٤٨])..

***** ***** *****

تُرك بيت "ناجي يعقوب"، مهملاً، وصار يدخله كلّ من هبّ ودبّ. بعد أن عُدَّ من الأموال المُجمَّدة، وملكاً للدولة. لا يحق لأحد إيجاره، ولا يسكنه أي ساكن. يوماً بعد يوم.. تحول البيت إلى خربة أكثر وحشة مما كان.

بعد أن كانوا في السابق يتفاخرُ أهل زمانه بطريقة البناء الرصينة. حيث كان عرض الحائط حوالي متر كامل. مبنياً بالطابوق الأحمر، ومدعمّاً بأساس متين من الطابوق الحجري الذي استحال لونه إلى اخضر. وكانت الممرات مبنية بطريقة الأقواس، وكذلك الغرف مبنية سقوفها، بأعمدة من الحديد وما بين عمود وآخر مبنياً بالطابوق الأصفر، ومرصوفاً كقوس إلى الأعلى. كانوا يعدونه مثالاً لأنموذج البيت المثالي البارد صيفا والدافئ شتاءا، والذي بقي متماسكا حتى عشرات من السنين، ولكن أبواب الغرف الخشبية، متينة الصنع، اقتلعها السراق، كذلك الشبابيك، وبعضهم اقتلع ما استطاع قلعه من السيور

---

[٤٨] من أقوال هيرودوتس.

الحديدية، التي كانت تحمل سقوف غرف الطابق العلوي، وصار البيت أكثر، وحشة، وبقي لا يصلح بأي حال للمرور إليه، خصوصاً بعد أن توفي "عباس زرزور".. الذي قضي فيه أيامه الأخيرة، وقبل أن ننقله إلى المستشفى. (قبل موجة الترحيل العارمة التي حلت على يهود العراق كان يعيش في لواء "ديالى" ٢٨٥١ يهودياً، حتى عام ١٩٤٧م، وكلهم بالأصل عراقيون)..

تُرك خربة صار من الصعب الدخول إليه، بعد أن تهدم سوره الخلفي.

***** ***** *****

طلب مني العم "صبحي" أن اصطحبه وأبناءه لزيارة "العمة أمينة"، حسب رغبتها، بعد أن ألمّت بها أزمة صحية حادة..

عندما دخلنا لرؤيتها كانت فاقدة لوعيها، وقال لنا أخوها بان الطبيب طلب عرضها على احد الأطباء الاستشاريين في "بغداد"..

بدت في نومها كشجرة فتك بها المرض، تجردت من أوراقها. لم نستطع ان نقول شيئاً، لبعضنا، غير إننا تبادلنا النظرات، كأولاد، بقلق.

ثم خرجنا حيث كان الحزن بادياً أكثر على وجه عمي، وكنت أكثرهم تأهباً لسماع ما سيحكيه "عمي"..

***** ***** *****

سمعت من "كرستين" بان شقيقها "ماجد" قد تمت خطبته على "اليزابيث".. فهمت منها بأنها تريد أن تضع نهاية، لما حلمت به

طويلاً، كأنها تكشف بأنها، كانت تقرأ أفكاري، وأحلامي.. حاولت أن أتظاهر بان للخبر وقعاً آخر، وفعلاً آخر، كنت قد ابتسمت لها بازدراء، وتركتها تخسر فرصة شماتتها مني.

***** ***** *****

(قال الجاحظ: الأشخاص كالأشجار، والحركات كالأغصان، والألفاظ كالثمار).. (قال فرويد: نستطيع أن نقاوم الهجوم، والنقد، ولكننا عاجزون أمام الثناء)..

(قال الزمخشري: كثرةُ المقالة، عثرةٌ غير مُقالة)...

***** ***** *****

سمعتهُ يتحدث هامساً بواسطة الهاتف العمومي، وهو يقول بانفعال، ويكاد قلبه يقطر دماً..

- لقد قُتل "خلدون" ابن "فرمان" اثناء الخدمة العسكرية..

سكت قليلا ثم قال بحرقة:

- هل تذكر ما كنت تردده عندما توفي أبوانا، ودفناهما في مقبرة واحدة جنب بعضيهما، حسب وصيتهما..

تنهد بعمق وقال:

- قلت لي ما كان يقوله أبو التاريخ "هيرودوتس".. "وقت السلام يَدفن الأبناء الآباء، أما وقت الحرب، فيدفن الآباء الأبناء".. نعم.. عجّل فطبولها تدمدم..!!.

١٨

قالت طُليلة:

- "بقيتُ متعبة، طوالَ ست عشرة سنة، بسبب عدم الإنجاب، لأني أريد أن أحسّ بالامتلاء، ومتابعة نبضات قلبه.. ينبض داخل رحمي، فيغمرني برغبة مواصلة الحياة، لأجله، لحظة بلحظة، سعادة مرتقبة، يوماً بيوم، اقبضّ بعقلي على امتلاك كائن يخرج مني، ويكون لي وحدي"...

ولن يكون لأحدٍ سواي، وسأحدثه حديث القلب.. للقلب، أصغي إليه، ويصغي إليّ. وأنا أتمنى أن أحسّ بحركته، متقلباً في أحشائي، ويتناغم مع حركتي، وأعرف منه باني كاملة القيمة، ككائن، وسأعرف لذة الاستمتاع، بانتظار ما سيمنحني حياة إضافية.

كَبُرَ حلمي بالأمومة منذ تزوجت وأنا في السابعة عشرة، وبعد سنة واحدة على ترك الدراسة في المرحلة المتوسطة، حدث ذلك بعد زواج شقيقي الذي يكبرني بخمس سنوات، اضطر إلى تغيير تاريخ ميلادي في "دفتر النفوس"، حيث أضاف إلى عمري عشر سنوات، وأصبح اصغر مني في العمر، حتى يدّعي بأنه مُعيل عائلتنا المكونة من زوجة وشقيقة مع أمه ليتخلص من الخدمة العسكرية الإلزامية، وقد افلح بتدبير ذلك المبرر، لكنه سبب لي ذلك الحدث أزمة نفسية مع كل محيطي وكأنه جعلني عانساً، وهذا ما سيجعل فرصتي بالزواج ضعيفة، حتى قبلت بأول متقدم "ابن عمتي" زوجاً لي.. تصورت باني ربحت

ما كان شقيقي أخرني إياه، ولم تكن أمامي حرية اختيار زوجاً بمقاييس أحلامي، وطموحي.

ومنذ العام الأول بعد الزواج واجهتني عقبة عدم الحَملْ، وكانت اغلب النسوة، يستفزنني بالسؤال عن أسباب التأخر وكأن الأمر بيدي، أقول له "كن فيكون"، وكنت مؤمنة بان ذلك رزق من الله سيهبني إياه ساعة يريد. ولكن النسوة اللاتي حولي اغلبهن يحرضني على عدم السكوت على هكذا أمر مشروع. فالرجال عادة بعد الزواج، يلقون بكل تبعات عدم الإنجاب على المرأة، بالعلن، وليس بالسرّ، وغالباً ما تترك لوحدها على المحك، فاما أن تنجب له، كبقية خلق الله، وأما أن تكون في مواجهة خيارين لا ثالث لهما. "تتقبل بان يتزوج عليها امرأة أخرى، أو تعود مطلقة إلى بيت أهلها".

في أول عام من زواجي صرت أتحرق شوقاً، لاجل أن تهل عليّ أول سمات الحمل، فأترقب انقطاع الطمث الشهري، أو عبور موعده!. لكنه كلّ شهر يستنزفني، ويجعلني أموت ألف مرة كلما مرّ الشهر. كنت أتحرق شوقاً، لان امتلئ، بما يجعلني أكون امرأة متكاملة، كأية امرأة متزوجة على سنة الله ورسوله. زواجاً مجهراً أمام الخلق..

أريد أن تتكور البطن، وتخرس كلّ شامِت..

يومها أكدت لي أكثر من طبيبة نسائية من بعد الفحص الدقيق بعدم وجود أي عارض، يجعلني متأخرة عن الإنجاب. أكدنّ لي بضرورة ذهاب الزوج إلى الطبيب، أيضاً، فحالة مثل حالتنا تتطلب مساعدة طبيب آخر مختص بالرجال، ولكني لم انجح بإقناعه بذلك، وفشلي في التجربة معه، يجعلني في حالة من التوتر، فاضطر بعد حين إلى أن أغض النظر، لشهر أو أكثر، فأعاود الطلب. "لكني لم أكن أريد

أن اعرف اليأس، فكل فرصة أفتح معه الموضوع، تكون بداية لأمل جديد".

ولم يكن يسمح لي على الإطلاق بان اذهب مع شقيقته، أو مع "أمي"، أو "أمه" إلى أي مكان آخر، غير عيادة الطبيبة، وكان يسخر بشدة من الناس الذين يحاولون إقناعي باللجوء إلى الـ"شيخات" العارفات بالطب الشعبي، والرقي الديني، وسبق له أن حذرني بشدّة من أي تعامل مع هكذا أناس، فبقيت في القلب غصّة، كلما ذكرت جاراتي بأنهن سبق وان جربنَّ العيادات ولم ينفع طبّها، وقد حبلن بأول رُقيَه، حتى أصبحت عندي أكبر رغبة بين تلك التجارب الناجعة.

كان عمله في السينما قد جعله من أكثر الناس اختلاطاً، منحه هيبّة، وأكثرهم احتراماً، فحتماً ستكون العواقب وخيمة في حالة استغفاله، والذهاب سرّاً الى أية "تكيّة"، تختصّ بالذي أتمناه وارجوه.

فكنت لا أملّ من رجائي له بمراجعة عيادة طبيب مختص، ولكنه كان دائم التأجيل، ودائم الحجة بعمله الذي يوليه أهمية كبرى، حتى جاءني قائلاً بأننا سوف نسافر في الأسبوع التالي، إلى "أوربا"، ولم يحدد لأي احد وجهة سفره، وهكذا أرسلت في طلب "أمي"، وأخبرتها بنيتنا بالسفر إلى أوربا، وسيأخذني معه، لمدة شهر وربما يزيد عن الشهر بضعة أيام، وبعدها نعود.

فرحتُ كثيراً بالأمر، فأصبحت على يقين بان الفرصة قد حانت، واقترب الحلم الكبير بان أكون أماً، حيث نزور مستشفى متخصصة بذلك الشأن، "وسيزول العارض كما أشارت ذات مرة إحدى الطبيبات اللاتي مررت عليهن". أكد لي بأننا سوف نعرض أنفسنا هناك في اقرب فرصة، لأي الأطباء المختصين بالموضوع،

بشرط أن لا اخبر أحدا، وكنت في غاية السعادة، ولم اخبر أحدا سوى "أمي" بتلك الغاية من سفرتنا التي سيتكفل صديقه الحميم "يهوده" كل نفقات السفر كذلك الكشف والعلاج.

بعدها أصبحتُ أكثر تفاؤلا، فصرت آكل واشرب، واستمتع بما أتذوق، صرت اعرف باني سأكون كائناً مزدوجا، ولن ابقي وحيدة، وسأحظى بجنينٍ يسكن أحشائي كبقية خلق الله.

هكذا كنت احلمُ، وهكذا عزمت على أن لا ابكي، فالبكاء حتما سيكون لاثنين، ولأجله سأزيد الضحك لأجله، وأكون أكثر حرصاً على نفسي، لان جزءا جديداً سوف يشمّ الهواء النقي عبر رئتيّ، لأنه مني. سأكون أكثر نضجاً في فهم هذه الحياة. واستعيد الثقة بالنفس التي جعلتني هدفاً لأنظار النسوة، بالعطف عليّ. استشعرها ضعفاً، وحتما سوف اخرج لهن ببطن مكورة، لأزيح عني نظرة الأسى والشماتة. سوف يخرج مني كائن، قطعة مني، ويدبّ على الأرض، يشرب حليب صدري، ويكبر قليلا ليأكل معي، روحه طاقة إضافية لي، سيمنحني وجوده الآمال الكبار، سأنتظر السعادة، فكل يوم من حياتي سأقضيه، لن يمر سريعاً، ما دام محملاً بالوعد الطيب. كنتُ متيقنة بأن الإنسان لا يشعر بقيمة أيامه، ما لم يرَّ فيها ما أنجزه.

***** ***** *****

كان "يوسف زعرور" أشهر، وأقدم العازفين الماهرين في الفرقة الموسيقية العراقية الشهيرة، التي أسسها "الأخوين الكويتي"، الذي علم "يهوده" العزف على آلة القانون، سمعت ذلك من "أبي"، وهو يتحدث للحاج "مناتي" بأن عازف القانون مات في فلسطين بعد

أن رحل مع أول الراحلين عام ١٩٤٨م، وهناك دفن، قبل عشر سنوات، كما أكد له ذلك صديقه "يوسف عمر".

وتواصل الحديث حول ما جرى في حفلة ختان "خليل"، وما جرى فيها من مواقف مضحكة، ويستعرضان ما يحبان من الأغاني الجميلة التي سمعاها. وقد أضاف "أبي" الشريط الذي فيه ساعتان من الغناء المتواصل الى مجموعة الأشرطة الغنائية التي كان الحاج "مناتي" يملكها ويعرضها إلى زبائن مقاه، وقد احدث ذلك الشريط تكالبا ملحوظاً من قبل الرواد وغيرهم، فيأتون لسماعة عصر كل يوم، وكان الجميع يعرف بان "أبي" في ذلك اليوم أهداه "مجموعة منتخبة" من حمام الزاجل النادرة التي كان يعشقها الفنان.

***** ***** *****

قالت طُليلة:

- "انبهرت بذلك العالم المنظم"..

مررنا بمدن كثيرة، ألوان وأضواء وعالم آخر غير عالمنا، مرت عليّ الأسابيع المعدودة بلمحة، وكأنها كانت غمرة حلم عابر..

كأننا قصدنا نهاية العالم، طريق طويل، ركبنا ألف مرة سيارات، وقطارات وسفينة.. رحلة كنتُ كل يوم أذكر تفاصيلها لنفسي، مثلما حلم سعيد..

في اليوم الثاني لوصولنا إلى مدينة "ميلان" جاء يُخيرني بين خيارين أن أتهيأ في اليوم التالي للمكوث في مشفى الفحص العام، أو السفر إلى إحدى الجزر السياحية، فأكدت له باني لا أقدّم أي أمر في

/

حياتي سيؤخرني على أن أكون أماً، فنزلت دمعته، وكانت المرة الأولى التي يجعلني أراها تفيض على خديه.

ولم انم حتى اليوم التالي..

بقيت أحدق في جمال نقش السقوف، والحيطان، ولم يسعني ان ابرح غرفتي ابداً. كنت اراهُ يطل عليّ بفرح ويقول:

- "ماما"

كنت لا استطيع الاستراحة حتى وجدت نفسي في غرفة الفحص العام، كانت المشفى أكثر هيبة من أي مكان دخلته في حياتي.

كأن قلبي أوشك على أن يفلت من صدري، خوفا، وفرحا. يومها أدخلنا سوياً إلى غرفة فحص واحدة فيها طبيبة وكان يتحلّق حولها مجموعة من المساعدات، يرتدين زيا موحداً.. مكوّناً من قميص ازرق فاتح، وتنورة زرقاء قاتمة، وفوقها سترة طويلة بيضاء، ويضعن على أنوفهن نظارة، وكمامة واقية.

ثم طلبت منا الطيبة الأكبر سناً بان نستلقي كل منا على مصطبة الفحص، وبدأت مراسم الفحص. كنت مطمئنة لأنه كان معي بنفس الغرفة، وكنت فرحة بأنها بداية طيبة لإنهاء معاناة رغبة "الإنجاب بعد الزواج" وجرى الفحص مع زوجي مثلما جرى معي.

كنت انظر إليه، كلما وصلت يدّ الطبية، بأجهزة الفحص المتسلسل، ولم تترك الطبيبة جزءاً محجوبا من جسدي، لم تطله يداها. وكل مرة التفت إليه، أراه ينظر اليّ، بنظرة دافئة، وكأنه يحملها طمأنة، حميمة، لا تعرفها إلا الزوجة من زوجها. كانت الطبيبة تفحص، والمترجمة تحول السؤال الي، والطبيبات الأخريات، لاحظتهنّ،

/

منشغلات ويكتبنّ كل ما تقوله، وبعدها تحول فريق الفحص اليه، ولا ادري كيف اخفيت غيرة، بعد ان مسسته ايدي الطبيبات، ورحت أميل برقبتي إليه، لأثبت له باني حاضرة معهن.

بعدها طلبوا منا إملاء دوارق الفحص، تبين بعد الفحص الدقيق بأننا نعاني سوياً من عارض الالتهاب الحاد، في المجاري التناسلية، وهذا الأمر كان من السهل تجاوزه، بمجموعة مضادات حيوية.

وهكذا حدث الحمل الأول..

كان "حسقيال" في كل يوم يتصل بأخيه، ويطمئن علينا، ويطمئننا على أهلنا، وبشرهم بأننا سنرزق بطفل..

***** ***** *****

بعد وفاة "نديم البيروتي" متأثرا من جراح التعذيب، كونه من الكادر المتقدم في الحزب الشيوعي العراقي. بقي الرجل لأيام في البيت بعد أن وقع على ورقة تنازل تبرأ فيها من انتمائه للحزب بعد أن ضاق عليه الخناق. يومها تلقى العم "فرمان" من احد محبيه العاملين في كادر الدولة المتقدم تحذيراً، بالابتعاد عن بيته، مؤقتاً، وذهب إلى مكان مجهول.

كنت أرى خوفا خفياً في العيون، بعضهم توارى، والآخر هرب...

***** ***** *****

قالت طُليلة:

- "بعد أكثر من شهرين قررنا العودة إلى الوطن ومنذ يومها عهدوا إلي رعاية الطفل"...

ولم يشأ زوجي أن نعود إلى "بعقوبة"، مقررا السكن مؤقتاً في "بغداد".. صرتُ اعرف الإجابة عندما يسألنني النسوة عن الحبل والولادة، صرت اعرفها، وكم أنا نادمة على اختراعات لأجوبة ساذجة، كنت اكذب عليهنّ من اجله، ومن اجل أن يكمل معروفه، وبالوقت نفسه، صرت أحبه جداً.. لأنه مكنني من استعادة حيويتي كأم، بعد فشل حملي.

أحببته كثيراً لأني صرت أمهُ كأنها التي ولدته!..صرت له الأم التي لم تخرجه من أحشائها..

تعودت أن اكذب نفسي، أيضا، وأكون له أمّاً حتى في شعوري العميق، كأنه مني، وصرت من متابعتي إليه، وترقبي له وهو يكبر دقيقة بأخرى، وهو يتحول من لعبة كنت ألهو بها، واعتني بها، وأرعاها.. إلى رجل استندُ عليه، رجل ما شاء الله صار أطول بقليل من "أبيه".. أتابعه.. أخافُ عليه حتى من الأحلام البعيدة..

أول مرة رايته كان عمره شهرين، بقيت انظر إليه بعجب، كائن من المفروض أن يكون قد خرج مني، وأتابعه ينمو يوماً بيوم، اليدان الحلوتان، والرجلان البديعتان، كان يكبر.. أقيس طول أصابع يديه، وأصابع رجليه.. ادقق وأتابعه يومياً، وكأني أريد أن أراه رجلاً.

كنت أخاف من التفكير بأنه ليس لي، وأقاوم بأنه ذات يوم سوف يأخذونه مني، ويحرمونني منه، فلازمتني حالة من التوتر، وحالة من عدم التصديق.. كلّ شيء مهدد.. متعتي كأم بقيت معلقة في الفضاء، ولابد أن تسقط فوق رأسي كالصاعقة. سعادتي به مهددة، فكنت أصر على رغبتي بالحبل لمرة أخرى، واثبت لكل من يعرف القصة الحقيقية

باني امرأة كاملة، لها الحق الكامل بمتعة الأمومة الكاملة، والتي حرمت منها.

- حتماً سوف أجن يوم فقده لا قدر الله!!..

***** ***** *****

ذكر "فؤاد" وكان يخبر "أياد" بان "جودي" الحلاق عندما أخذته الشرطة، بعد أن حملته مسؤولية بيع احد الأطفال المسروقة، والذي وجدوه لدى احد العاملين في "ديالى" مؤخراً، واسمه "فوزي حته"، ويسكن في خربة تقع في دربونة "التوراة"، تعود ملكيتها لأحد اليهود الراحلين، وكان "فؤاد" متأثراً للموضوع، وكان يفتخر بان تعامله مع هواة الحمام الزاجل، هو الذي جعله يعرف الكثير، من باطن عالم الاتجار بالأولاد، وكان يروي بان ذلك العالم مازال قائماً لدى سجناء الأحكام الطويلة، وبعضهم، يبقى مالكاً عرفياً لذلك الشخص المملوك، حتى بعد انقضاء الحكم.

بقي "فؤاد"، و"أياد" يتحدثان بالموضوع، وكأنهما يتفاخران بان أيّاً منهما يعرف عن الموضوع ذاته أكثر مما يعرفه الآخر. بقيا يتبادلان تفاصيل ما يعرفان، في حوار هامس ودود، وكنت أصغي إليهما، وأتخيل ما يمكنني كتابته عن ذلك العالم الذي أوحيا لي به. فالقصص البوليسية التي كنت اطمح بكتابتها، عزفت عنها، وصرتُ متأثراً بما قرأت في عالم روايات "دستويفسكي".

قرأت اغلب ما توفر من رواياته المدهشة. كان عالماً جلي الوضوح، دقيق السرد. وقد أوحيا اليّ أفكاراً بتدوين ما اسمعه منهما كمثالب جرت حوادثها في محيطي المسموع، وكأنني أن أردت كتابة شيئٍ مهمٍ، هو ان أدون حكاية تفاصيلها من هذا القاع المهموس عنه،

القاع الشاخص والمطموس. بحجة الرقيب، وكانت قد استحوذت علي تلك التفاصيل، ولكن ملكة الخيال وحدها لا تحرر بالحروف، ما لم يكشف ذلك عن قرب.

***** ***** *****

قالت طليلة:

- "كان الولدُ في كل مرة يعلن عن تمرده، ولا ادري كيف يستبد بي اليأس كلما يسألني، عما يقارنه بالذي يسمعه"...

وبالذي يتعلمه في كتب الدراسة، يقارن بين ما يتعلمه من الدروس، وما يسمعه عن الجن والأشباح "كتاب درس الفيزياء بان لكل شيء على ظهر هذا الكون يمتلك كتلة، ولكل كتلة حجم، ولكل حجم وزن. فتنجذب إلى الأرض، وكل ما ليس له وزن لا ينجذب إلى الأرض، وذلك يعني بان الجن والأشباح التي لا ترى بالعين، والتي ليست لها كتلة، فإنها سوف تحرر في الفضاء، لأنها تتحرر من الجاذبية الأرضية، و بما أن الأرض تدور حول الشمس، فان تلك المخلوقات سوف تبقى طائفة في مكانها، بعد أن تدور الأرض حول الشمس. هكذا بات يناكفني، وصرت افتخر انه صار رجلاً، يريدني أن أجيبه عن أسئلة كبيرة، تدور في ذهنه، وكأنها تبطش بي، أعجب معه كيف أمكن له أن يصوغ تلك الأسئلة البريئة كلها إلى سؤال واحد، و"كيف لم اسأل نفسي هكذا سؤالاً من قبل".

***** ***** *****

ثقب التاريخ يجعله حمال أوجه، فالسيف المُسلَّط يجعله حَمَّالَ أوجه، فالعارف بإسراره العلمية يدرك بان الموضوع ليس أكثر من

اختلاق زائف لا يقبله العقل والمنطق، وانه كان يومها لا يقدر على أن يجهر بما أكتشف من خلخلة في الموازين، فكان دائما يقول بان هذا الكون لم يشهد أهله أن عرفوا حصاناً كان يطير فوق الغيوم، ويعبر المسافات البعيدة، ومهما بلغ من السرعة.. تلك العلمية كانت تروي بكل ثقة، وتؤكد بان العارف سوف يعرف بانها تدرجها علناً، وتسخر منها ضمناً.. الثقب هو ذلك المعنى المقلوب. الذي يظهر انه مع المكتوب، رواية اغلب ظاهرها، لا يخرج إلا من الثقب فيقوضها، ليجعلها تسير بعكس المقصود....

***** ***** *****

قالت طليلة:

- "ما حملت إلا بعد أن أحسست بالاستقرار، ببيت مستقل"...

حبلت بعد عناء، وكأني دخلت في حلم لم اكشفه لأحد، حتى بانت علي أعراضه، كنت اسأل نفسي، غير مصدقة، أترى حبلت بحق؟، أم سأواصل الكذبة السابقة.. فلم يكن يشبهني بشيء، والكذب على النفس، يجعل الأشياء، اقرب إلى الحقيقة.

كنت أعيد السؤال مع نفسي هل حملي حقيقة، أم اقرب لكذبة. هل أنا في غمرة من كذب متواصل، وهل سيخرج مني كائن له لون عيني، ولون بشرتي، وشعره مثل شعري، يناصفني الصفات مع أبيه، كأني كنت اكذب الحلم، وأبعده، أحاول أن ابعد كل تلك الآمال، وكأنها ليست لي، مخافة أن يضيع مني كل شيء، الخوف عليه صار يلازمني.. حتى تحول إلى كابوس عندما تنقطع حركته في أحشائي، كأني أخاف، واضع يدي على بطني، حتى أحسّه يتحرك، اكلمه، عن الأوهام، واراه، كمن يلوح بيديه الصغيرة، وبرموشه الطويلة. يلوح

/

حتى يبتسم، ويسمعني صوته، "أمي" لا تخافي أنا قادم، مسافة سوف تتقلص، وشهور أيامها بساعاتها، بدقائقها ستمضي. الترقب، يوما بعد يوم يزيد، وتكبر معه الأشياء، ومعه الأيام تطول.

واصلت القول طليلة:

- "عندما شكته لي المسيحية "كرستين"، أدركت بسعادة غامرة باني قد استطعت أن أوصله إلى مرحلة الرجولة كاملاً، مرغوباً به من البنات اللاتي في عمره"..

سعادة أني أمه الحقيقية أمام الناس كلها، واني اعرفه مثل ما اعرف راحة يدي بأنه لم يكن يبالي بها، فانا قد سمعته يسخر منها، ولا يعيرها أية أهمية..

أيقنت بان رجولته اكتملت ليس من "كرستين" وحدها، ولكن عندما تحدث مع صديقه "صفاء" عن أجمل البنات، اللاتي صادفوهن.. عن الجميلات من بنات المحلة..

كنت اعرف بأنهما يتمرنان على العزف، ولكنهما أحيانا، يشطان الى صفات الجميلات، وبعض سيرهن.

كما اعرف ان صديقه "صفاء" يحبه كثيراً، ويمازحه عندما يستخدمها صفة كاغاضة، ليس إلا.. كنت أراه يكابر، كلما ذكرها له، وكأنه مترفعٌ عنها، لكني كنت ألحظه، متحرقاً لسؤالها، يتابعها أينما تحلّ، مهتماً بأمرها. عندما تنادي عليّ من سطح الدار، أو عندما تكلمني أمها، أراه قد اعدّ لها سؤالاً لا اعرف اتجاهه.

/

كما اعرف، وإن "كرستين" تعاني من عقدة نقص، وتتهم كلّ من لا يبالي بها.. بالرغم من جمالها، فحاجتها إلى نظارة طبية، جعلت من عينيها الحلوتين مختبئتين خلف زجاج سميك..

***** ***** *****

قالت طليلة:

- "يوم عودتنا من "أوروبا" افهموني بأنهم يريدون إخفاء أمر الطفل عن والديهما "ناجي يعقوب"، و"علوان دندي"، لفترة وجيزة"...

وبالرغم من كل شيء كنت في غاية الامتنان لأني كنت احمل في أحشائي جنيناً، أيضاً سيكون صديقاً وأخاً لابني، مثله مثل أبويهما، وجديّهما.

كان الطفل سعيدا على يدي، وباسم الوجه، هانئاً، ويومها كان لم يزد عمره على الستين يوماً.

كنت ارغب بان اختار اسماً لولدي الذي سيأتي، وكأنما ترك لي زوجي مهمة اختيار اسم له، اسم كأنما كنت احلم ان ينادوني به، فيتغير اسمي الثقيل إلى اسم أكثر حفظاً، كأني أزيل عني كاهل ما كنت أعانيه من الاسم، وسوءة لفظته الثقيلة.

صار عندي خيار ان اختار اسماً يكون لي، ويخفي عني اسمي السابق، سوف أختار اسماً جميلاً، بدل اسمي، فهذه الفرصة الوحيدة التي يغير الفرد منا اسمه الذي اختاره له الأهل، وسأسمّى به.

***** ***** *****

جاءني "فؤاد" يخبرني

- "مراب السيارات القديم.. سوف يهدمونه بعد قليل، ويريد مني أن أعينه في نقل هيكلِ حديدي"،

كان يروم نقل هيكل مكعب حديدي متساوي الإضلاع، طول الضلع متران، ويرغب في نقله إلى بيتهم، ليجعل منه قفصاً لحمائمه.

سبق للمرآب ان اهمل بعد ان انشيء بدلا عنه مرابٌ جديدٌ وقد تحولت اليه السيارات، قبل سنتين، إلى الجهة الأخرى من الشارع العام، وقد بني على مساحة فاقت مساحة المرآب القديم بأربعة أضعاف.

صعب علينا رفعه، فتبين لنا بان أرجله كانت مدفونة بالأرض، ويصعب انتزاعها ما لم نحفر له ونخرجها، اذ كان ذلك يتطلب دعماً من آخر، وما أن صفر "فؤاد" حتى سمعها "إياد" الذي كان متأهبا للقدوم معنا، كنت ادري ما الذي يريده من هذا الهيكل الحديدي، بعد نقله، لكن بات عندي فضول إلى اكتشاف كل الغرف الموجودة في تلك البناية، والتي كانت أبوابها مفتوحة..

في تلك الغرفة الصغيرة التي لم تكن لها نافذة، رأيت سريراً، أرجله مكسوره.. انضوى عليه فراش متهرئ وقذر، بات مستوطنة لجملة من أنواع الحشرات سكنت بين مفاصله..

وجدت تحته مجموعة أوراق، نفظت مما علق بها من قذارة، ورحت أمعن النظر بها جيداً، وكانت لا تتجاوز ملزمة من الأوراق..

تلاصقت الأوراق الأخيرة ببعضها. ولم استطع قراءتها بصحبة "فؤاد" الذي كان يريد مني أنجاز العمل معه، وحسب.

/

عرفت بأنها الأوراق التي كانت بحوزة عباس "زرزور"، والتي كانت مخفية في المكان السري الذي جاء من اجله "حسقيال"، ولم يأخذها، وقال بان "يهوده" قد رقنها... لا ادري كيف يتجدد موضوع ابن يهوده، ويجعلني اجدد البحث عنه، وكلما أصل إلى نقطة أجدني قد ضللت الطريق.

وكلما قررت أن اتركه، كأن قدراً ما يجعلني لأعود وأنشغل به من جديد..

*****   *****   *****

قال لي "يهوده" بالحرف الواحد، وبحضور زوجي: (أسمعي يا ابنة الناس. اخترتكما لتكونا أمينين على طفلي "مكابيوس"، وأعدك بانهُ سيبقى عندكما إلى حين يريده الله، فزوجك رجل يستحق أن يكون أباً، وهو بعلمي، أخي غير الشقيق الذي أرضعتهُ أمي مع شقيقي "حسقيال"، وعمتي "فخرية" أمه أرضعت "حسقيال"، عندما كانت امي يومها لا تستطيع الإرضاع. أبوينا "ناجي يعقوب"، و"علوان دندي" دائماً كانا صدقين وأخوين، واكشف لك سراً قد لا يصدق بان الرجلين قد ضيعا علينا "أنا، وأمي، وأمه" من يكون شقيقي الحقيقي "إبراهيم دندي" أم "حسقيال"، وقد تعاهدا على أن لا يكشفا سر ذلك. وهذا السر الذي أصبحت تعرفينه، جعلني لهذه اللحظة اعتبرهما الاثنين أشقائي من أب وأم واحدة، وقد ضيّع علينا الأبوان على الأمّين، النسب الحقيقي، تعرفينه أصبحت تعلمين السر بأنه علمك سراً وكلي ثقة بأنه سوف يأتي اليوم الذي سنخبرهما "عمي علوان" بأمر الابن الذي هو ابنك، وسأكون كـ"عم" أمام الشرع والناس، أيضاً، وسيكون من حقكما أن تسمياه بأي اسم تختارانه.

/

بعد أن رحلت "مسعوده" لم يبق عندي أمل الأبوة، وفي يومها سنرى ما كان الله قد كتبه لنا. إن أردتِ بقاء هذا الولد عندك حافظي على هذا السر ابداً، وان استطعت إخفاءه حتى عن والدتك، لان كل الظروف مناسبة لهكذا ادعاء، سيكون ولدك كلما أصررت عليه، فالسر لن يكشفه أحدا منا إلا اذ أنت أخبرته به أحداً، عندما يفشى هذا السرّ الذي بيننا سيتحتم أخذه منكما. فانا قد قررت من بعد تفكير بان أسلمه ليد "إبراهيم دندي"، حتى يحين من الله موعد، واعلمي بأنه سيرثني فيما سيكون لي من ميراث، أطال الله في عمري والدينا، ولا تبالي، أن فقدت حملك، ومن الله العوض، اذهبي به إلى أمك أولاً، وساعتها ستعرفين كيف يبقى هذا الولد، في رعايتكما. لا إذا قاومت إخبارها بالحقيقة، فسيكون الولد عندك ولن يكون اتفاقنا ملغياً، واعدك بأنه سيبقى ابنك الآن، وغداً، ما دمت تحفظيه، وتحميه، السرّ هو الولد، ولن يفشى شيء في هذه الدنيا إلا نحن نفشي به عندما تضيق صدورنا، بيننا السرّ، وسيبقى الولد ابنكما).. لحظتها لم تسح من خديه دمعة أم ارتجاف في صوته، قال كلامه بكل ثقة بالنفس، وغادر، ولم أره إلا في بضعة الصور التي كانا يلتقطها مع زوجي وبقية العاملين في السينما...

***** ***** *****

وأخيرا وجدت نسخة من كتاب "تاريخ هيرودوت"، وقرأتها بتمعن، وعرفت منه بأن "هيرودوتس" وصل إلى مدينة "بعقوبة"، أو بالقرب منها إذ ذكر بعضاً من أخبار "مملكة اشونا"، وكما ذكر في أثناء ذلك التاريخ أسطورة الطفل "قورش" الذي حكم عليه بالموت، وينجو ليغدو ملكاً مستبداً.

طاب لي التمتع بما ذكره باهتمامه بالخوارق والغرائب، فجعله كتاباً مشوقاً، مثل حكاية اللص الظريف الذي استطاع النجاة من

المصائد التي أرادت الإيقاع به، وبذكائه استطاع أن يربح قلب ابنة الملك، ويتزوجها. وتنبأت أحدى العرافات بالانتقام الذي وقع بحرق "اثينا" بعد مئة عام من مشاركة جيوشها بتدمير إحدى الأقاليم الشرقية. كما كان يكشف استبداد ملوك إمبراطوريات الشرقية الذين يسوطون شعوبهم بإصرار على مواصلة الحروب، على المجتمعات المجاورة، واقتصاصهم من كل ما يعيق رغبة التوسع، ويرى عاقبة التكبر هي التيه، والخراب. وعرف منها أخبار كشفها من الناس الذين كان يشغلون الخانات بعد أن تجول هناك.. الناس فيها معظمهم مزيج من اليهود والبوذيين..

وجدت كتابته، أشبه بمن كان قد دخل تيهاً، وما كلّ أوصافه التي وصفها، كأنها لم تكن، إلا وصفا عما سمعه، وليس وصفاً عما رآه..

***** ***** *****

قال "حسقيال": (في البداية لم اعرف بأنه سوف، يبقيه عندهم، كل هذي المدة، كنت أظن بأنه سيتركه عند زوجة "إبراهيم" لأنها خير من يرعاه، وكنا يومها مجبرين فليس بإمكاننا أن نخبر "علوان دندي" بان هذا الطفل ابن شقيقي "يهوده"، وخصوصاً فالمرأة قد فقدت جنينها مبكراً، بعد العلاج في "ميلان"، وحتما سيكون أمراً مؤجلا سنخفيه مدة من الزمن عن والدي "ناجي يعقوب"، أيام اشتداد مرضه، وكذلك عن العم "علوان دندي"، لان الرجل تعود على عدم إخفاء أي شيء عنه. خطرت لي الفكرة التالية، وأقنعت بها "يهوده"، فكرت بان أؤمن مكانا جيداً يسكنه "ابراهيم" لعدة شهور، حتى تستقر حالة والدي الصحية، وبعدها سنخبره بالحقيقة، وما تركته الأقدار من جراء زيجة اخفيناها عليه، ورأيت أن أؤجر لهم دارا، اعترض "ابراهيم" مشترطاً على ان تكون غرفة في بيت من بين تلك البيوت الكثيرة المستثمرة، في إسكان

عدة عوائل ضمن البناية الواحدة، وكانت وجهة نظره بان السكن في بيت مستقل، يثير الغربة، والغربة سوف تجعل زوجته يزيد حنينها إلى أمها، وكذلك سيكون معها نسوة، وتكتسب منهن كيفية رعاية الطفل الرضيع، ومتطلباته.

بقينا نقول لمن يسال بأنهما مازالا في ايطاليا، حتى تصل الأخبار إلى "علوان دندي"، وبالتالي تصل إلى "ناجي يعقوب"، لتكون أخبارا لها مصداقية، ومدعومة من مصادر أخرى. واستطعت بذلك توفير فرصة عمل رائعة، لطالما كان "إبراهيم"، يحلم بها، وهي العمل في الشركة الرئيسة لتوزيع الأفلام، وكانت يومها ملكا صرفا لصديق والد جارنا "شلومو" وقد أنشاها لتكون متخصصة في استيراد كافة الأفلام، وقد اظهر الرجل براعته في عمله، وبقي سعيداً به، وكان في مرة اتصل به، يخبرني عن سفرياته الى الموصل والبصرة يعرض عليهم قوائم ما يستجد من الأفلام الجديدة المربحة. فعندما كنت اقول بانه يعمل في شركة الأفلام، كان كلامي حقيقياً، بعد ان تركتهم يواصلون الاعتقاد بأنه وزوجته ما زالا في زيارة العمل تلك، ولم تكن غايتنا إلا إبقاؤهم بعيداً عن الأسئلة المباشرة، والمحرجة.

عندما ظهر "عزرا" في الولاية ظهرت مخاوف حقيقية، أخرى، ..

كأن يهوده قد صُدم ولم يحسن تنظيم الأمور، أخذته نوبة من التأنيب، وبقي يعاني من عقدة الشعور بالإثم. كأن "خبر الولد"، قد قتل الجدين في يوم واحد.

أصابته حالة من الشعور بالذنب بعده، اما انا فأخذت على عاتقي الموضوع بجدّ، واستطعت ترتيب الأمر، وطلبت من "إبراهيم" تسجيل نسب الولد بأسمائهم.

بعد أن تقصينا الأمر الطارئ، فعرفنا بان والد المرحومة زوجة "يهوده" كان يريد الحصول على الولد بأي ثمن. وكان موضوعاً لن اسمح به، ما حييت.. ان يتبناه "إبراهيم"، افضل من فقدانه، ونحرم منه إلى الأبد، كما هدد والد "مسعوده" زوجة شقيقي رحمها الله..

***** ***** *****

استطعتُ أن اقنع "فؤاد" بأن نذهب ذات يوم إلى "بغداد".. حيث يقيم العم "حسقيال"، لغرض مقابلته دون علم "أبي"، فقد سبق ل"فؤاد" بان ذهب إلى "بغداد" لوحده عدة مرات، فأغرتني المغامرة. ولم يكن لدينا عنوان الرجل، فطلبت أن يسال أباه العم "صبحي" عنه، وأكدت عليه أن يستدرجه بالسؤال، ويبتعد عن السؤال المباشر، ووعدته بعلبة سجائر كاملة، أن حقق الطلب المراد.

***** ***** *****

قالت طليلة:

- "يومها وصلنا خبر موت الأبوين، في المساء، وصار علينا أن نجمع أغراضنا الضرورية، ونعود إلى بيت أهل زوجي في "بعقوبة"...

اشتقت كثيرا لامي، وشقيقتي، ولشقيقي أيضاً، فودعتُ جاراتي في الغرف الاخرى، وسلمت عليهن في غرفهن واحدة تلو واحدة أخرى، والاطفال فرداً فرداً. لانهم شاركوني ايام غربتي وكل اشواقي المكتومة

لاهلي، فهن نسوة طيبات، باتن اعزّ لي الصديقات، واعطنني من خبرتهن في اشياء كثيرة، واكتسبت ايضاً منهن مشورة رعاية الطفل يوماً بيوم منذ كان خديجاً لا يتجاوز وزنه الاربع كليوات حتى بات الان عمره سنتين، وصار يركض، ويمرح بين بقية الاولاد والبنات.. قبلتهن واحدة واحدة، مررتُ عليهن، ولم انس اي منهم لا صغيرة، ولا كبيرة. نزلت دموع، وتعاهدنا ان نزور بعضنا البعض.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، خرج زوجي "ابراهيم" الى السوق وعاد بعد ساعتين بحقيبة كبيرة، مليئة لم استطع معرفة ما بها، وعرفت فيما بعد بانها حقيبة الهدايا، التي من المفترض ان تكون قد جلبناها من ايطاليا، وجاءت سيارة "حسقيال" بسائق الى الباب لتقلنا الى "بعقوبة"، وبقي طوال الطريق، يوصيني زوجي ان لا ابوح بالسر، وبقيّ مهدداً "لا تجعلينا نخسر ابننا".. وهو فعلا ابننا، ولن اسمح لاحد بان يأخذه مني.

بعد اقل من ساعة وصلنا، وكانت الابواب مفتوحة على مصاريعها، والكل في عمل دؤوب داخل مراسم العزاء. بالرغم من الحزن، سرت في القلوب فرحة عودتنا، ووجدت من حولي يبارك لي ابني، ولم أجد احد، بين كل ما يحيط بي يُشكك باني أمه التي لم تلده، سواي، ولكني كنت أقاوم.

منذ ذلك اليوم صار ابني بين اهله، وذوويه.. الا ان رغبتي في الاعماق بقيت أن أنجب كبقية النسوة.

ولم استسلم أبداً، حتى أنجبت "خليل"، وعاهدت نفسي أن أعاملهما كشقيقين، وسيبقى السرّ قائماً..

/

باب الخروج

١٩٧٩ـ١٩٨٢م

"أنت عليمُ بكلّ معجزةٍ ولوْ سألنا سواكَ لم يُجب"[٤٩]

---

[٤٩] المتنبي

٩

ألقمتُ الآلة الكاتبة ورقة جديدة، ورحت اكتبها وهي بلا حبر. فقط، ضرباتها هي التي تحفر شكل الحروف، ورحت اكتب:

- "جاءت البلدوزر بصوت مزمجر، وراحت تجرف البيت ببطء، وحذرٍ شديدٍ".

دواليبها الكبيرة تدفعها باتجاه البيت وبدأت بخرقه من الجهة التي تواجه الشارع، وقفت مع "اياد" وانا انظر برهبة كيف تعنّد الحيطان المتينة العالية امام جرافة البلدوزر الفولاذية، لا ادري كيف تخيلت اسداً يحاول افتراس طريدة عنيدة، لم تستسلم له بسهولة. كان عرض الحائط اكثر من متر، بأساس راسخ متكون من طابوق صخري اخضر لم تكن عندي معلومات كافية عنه سوى انه طابوق صخري يستخدم في تاسيس حيطان البيوت، وكان البلدوزر يحتاج ليصرخ بقوة حتى يستطيع ان يحفر ثغرة يمدّ من خلالها مجرفته المسننة ويحدث فتحة في عمق الحائط، ولم يستطع الا بعد مناورة متمرس، فاستطاع بعد ان دفع المزيد من دخانه الابيض، وتعالى هدير محركه العملاق..

سمعتُ "اياد" يقول - "لو لم يكن قد سرقت الناس ابوابه وشبابيكه، وبقية اخشابه لبقي مقاوماً متحدياً اكثر من عشرين سنة قادمة"..

فوافقه سائق البلدوزر بما قال.. كنت انظر الى الرجل وهو يمسح وجهه، وكانه يقوم بمجهود مضاعف اكثر من مجهود محرك البلدوزر الهادر.

فقال مجدداً:

- "لو لم تكن خربة البيت المهجور مرتعاً للهاربين من الخدمة العسكرية، لما فكر احد من المسؤولين المحليين في استحصال أمرٍ بهدمه، ومساواته مع الارض.. بعد ان صار ملكا للدولة، ومن المحتمل بيعه كأرض في المزاد، ويصبح له مالكاً جديداً"..

كان الصوت يرتفع فوق الصوت البشري، وكنت صامتاً لا اعرف ماذا أقول؟.

("التاريخ" يأتي الي كالمنقذ، متشحاً بعباءة مخملية، تغطيه حتى رأسه، خافياً وجهه، وفمه، وانفه.. تركا عيناه تشرقان من وراء لثامه المهيب، لا ينزل من حصانه الكبير ذو الذيل البهي صاحب الشعر الصقيل، وهو يصهل بقوة، ويقف على رجيله الخلفتين، وتظل رقبته المقوسة بعنفوان، واباء. محاججاً بسيفه المخيف المعلق على خصره الايمن. يطلّ التاريخ بوجهه الحزين العابس، ينظر بنظرة خارقة وينقذني بأجوبة لا تحتاج الى ايضاح كبير، ويطفر من النافذة الضيقة حيث دائما اسأل نفسي كيف امكنه ان يخترق فتحة الشباك الضيقة. بإمكانه ان يتحول من "مادي" له كتلة يشغل حيزاً من المكان، ويثير غباراً خلفه، ومن ثم يتحول الى حزمة ضوء ويخترق الشباك، ويخرج وكأنه لم يكن هنا. اهو "هيرودوتس" يخرج الي من كتب التاريخ القديمة المرصوفة، يظهر امامي بكل هذا الجبروت وهذا الثقل ثم بلحظة واحدة يسحق كل ما كان قبله)..

ما ان كبرت الفتحة التي احدثها الوحش، كانه اطمأن بان طريدته، صارت بين مخالبه الحادة. كنتُ ارى عينيه تلمعان بنشوة الامتلاك، وهو يوغل مجرفته العظيمة في بقية الحيطان التي صارت

/

يسيرة، فيدفع مجرفته عميقاً في اساس الحائط، ويرفعه قليلا الى اعلى ثم يتراجع بضعة خطوات، ومن ثم يفلته فينزل الى الارض متفتتاً، متحولاً الى طابوق غير متراصف. وهكذا انهدّ الحائط تلو الاخر. لم يمض نصف ساعة حتى حولت الماكينة كل جدران البيت الى مجموعة تلال.

راح "اياد" يخطو فوق الانقاض. ولم اجرؤ الى ان اقف فوقها مثلما هو مزهواً، بقيت انظر، ولم تحضرن اية كلمة.. بعد البلدوزر..

كنتُ انظر ولم انتبه، عندما جاء اخي "خليل"، ارسلته "امي" ليقول لي بصوت لم تكتمل حروفه، فقد بلغ يومها السنة الرابعة.

- "طعام الغداء جاهز"

قبلته وحملتهُ الى صدري، ثم عدت الى بيتنا، دون ان استطع النظر مجدداً الى البيت الاخر الذي ساوته الجرافة مع الارض.

***** ***** *****

عدتُ كلما ألقم الآلة الكاتبة ورقاً، لأجل ان ادوّن ما حلّ بالبيت من مصير، اجدني لا اجد كلاماً اكتبه يوازي ما تزلزل بداخلي...

قراراتُ البطولة تتطلبُ عقلاً مستقراً، ولا تتطلبُ اقداماً في الارتجال... لأنها القرارات التي تبقيك منتصب القامة، لا ان تبقيك منكسراً متأهباً للاندحار. لأن الحقيقة التي وصلت اليها متأخراً، لم تكلفك الا خسارات سوف تصبح من الماضي العابر..

"مكابيوس يهوده"

السارد التالي

/

حتّى رَجَعتُ وأقلامِي قوائلُ لي المجدُ للسيّفِ ليْسَ المجدُ للقلَمِ[٥٠]

[٥٠] المتنبي

١.

يوم بدأت تنظيم ملزمة الأوراق المكتوبة بلا حبر، كنت قد بلغت الثانية والثلاثين من عمري، اي بعد سبع وعشرين سنة على خروج "مكابيوس" من متاهته، ملتحقاً بوالده.

يومها كنت في الصف الاول من دراستي الابتدائية. تقريباً، من ذلك التاريخ، و"والدتي" محتفظة بهذه الملزمة التي تقدمت ايدكم، والتي وثقت سيرة طيبة من الناس هو من عاش بينهم.

كذلك بقيت محتفظة ببقية اغراضه واشيائه الاخرى، ولم المسها الا بعد بلوغي، وبعد أن تأكدت باني سأعطيها حق قدرها، اذ كانت اشبه، بغرفة ابن عزّ عليها فقدانه.

اتذكر جيداً ذلك اليوم، الذي اعلمتنا وحدته العسكرية بفقدانه في جبهة القتال، وجدتها تخرج الى الشارع حافية غير مصدقة، خلف الموظف الذي سلمها شهادة الفقدان، فلم تصدق ما كان مكتوباً في ذلك الاشعار الرسمي..

اذ بركت على الرصيف من هولّ الصدمة، وحفرت تراب الارض بأظافرها، ومضّخت شعر راسها بحفنة منه. تريد الصياح، ولم يستجب لها الصوت!.

لحقتها، محاولاً تهدئتها، وكأن حريقاً عرماً قد اجتاح قلبها، وجعلها تفقد اوتار حنجرتها، كأني شممت دخان ذلك الحريق الصامت.

ولم اعرف ماذا اقول بعد ان انهمرت مني دمعات الطفل الذي لم يكن حول او قوة..

امتزجت مع دموعها التي بقيت تنزل وتَخَطلَتْ بالتراب، وصار طيناً طلى مقدمة وجهها، ووجهي.

كان ذلك في صباح يوم من ايام منتصف نيسان الحارة، يومها كان "والدي" في عمله، وتجمعت حولها نسوة، وتشاركنّ البكاء، والنحيب، والعويل.

كنتُ بجانبها ممسكاً بطرف عباءتها، وابكي كما تبكي الباكيات..

حتى وصل الى "والدي" الخبر حينه، استقبله اول الامر، وكانه خبر لا يعنيه، ولكنه ما أن شاهد زوجته في حالتها الكسيرة، اهتزّ معنا ببكاء مرير امام الجيران، وكانه فقد السيطرة على نفسه. ما زلت اتذكر باني بقيت ابكي معهم، وانا لا ادري سبب البكاء.

٢.

صفة مفقود في الحرب اكثر خسارات الحرب واثقلها مرارة لأنها تعني لأهله بان ثمة امل لرجوعه بعد الحرب، ولكنه امل ثقيل الوطء، اشبه بجرح بليغ لا يندمل، امل يتحرق لانتهاء الحرب حتى يعرف المصير، ان كان قتيلا، ام اسيراً.

فالحرب كلما يشتدّ دكها في الأوردة، يفقد الاهل صبرهم في انتظار معرفة مصائر ابنائهم المطمورة في تواريخ المعارك الضارية،

تحدث كل يوم مناحة جديدة، حيث تريد الام ولدها. حتى انها لم تهدأ، وكل يوم تذهب مع والدي الى كافة المقرات التابعة المنظمات الانسانية عساها تعود بخبر عنه، ولكن الحرب الدائرة هي التي لم تكن تحترم اي سؤال.

بقي "اخي" مفقوداً، مجهول المصير، من بعد ان أُلحق بركاب الحرب تاركاً زمن انتظاره مفتوح الى نهاية الازمان.. ثمة امل ان يعود حياً، أو ميتاً في اية لحظة، وبقى ذلك الامل المُعذب بين مدّ وجزر.

٣.

آخر مرة كان مع "فؤاد صبحي" عندما ذهب الى "بغداد"، هذا ما اكده لي "فؤاد صبحي" متباهياً، وكأنه يفتخر بانه كان اخر من رآه.. "كان مبيتاً هروبه".

- (تلك اول محاولة له للهروب من العراق، ولم يفلح. ليس لأنه لم يخطط لها جيداً وانما اعتمد على اصدقاء غير مؤهلين للصداقة حيث بعضهم وشي بالبعض، وفشلت محاولته. حيث كان قليل الخبرة، وبحاجة الى عارفين بذلك الشأن)..

اما "صفاء البيروتي" فقد روى حكاية اخرى عن آخر مرة التقي به. يومها اشترك في حفلة موسيقية بمناسبة تأسيس الحزب الشيوعي العراقي، ولم يرجع الى البيت..

/

بعد ان القي القبض عليهم جميعاً، (تمكن "والدي" من معرفة مكان الجهة التي اخذته، وتوسط لدى احد معارفه الذي صار فيما بعد محافظاً لمدينة "تكريت"، فاستدركه وتمكن من اطلاق سراحه).

اما "اياد" فقد ذكر حول آخر مرة التقاه فيها كانت في مسيرة تشييع العم "فرمان"..

(القوا القبض عليهم للتحقيق، ثم افرجوا عنه بعد ساعات لان اسمه لم يكن مسجلا كشيوعي بين الشيوعيين)..

لكن "والدتي" دائماً تذكر آخر مرة خرج من البيت ولم يعد كان عندما كانت البلدوزر تعمل في بيت "ناجي يعقوب"، لتساويه مع الأرض، فلم تبق منه سوى أرضاً منبسطة..

(يومها قطع اجازته قبل يوم واحد وانطلق ملتحقاً الى جبهة الحرب).

٤.

فكرت ان استفيد من هذه الاوراق التي تركها "اخي محمد". ولم يكن يخطر ببالي بانها هي في الاصل فصول من رواية، متواصلة، وشبه متكاملة.

لا تنقصها سوى بعض الاضافات الخبرية، ومن الناحية المعلوماتية، وليس من الناحية التقنية الروائية، لاني اقدر ان اتواصل مع منظومة الافكار التي تتقدم لي، كقارئ، ولكني غير قادر على مواصلة تقديم الافكار، كعطاء. فجعلني اتردد السؤال التالي..

- "هل أكون مؤهلاً لذلك"؟.

وحتما سأكون مثل من يرمم بيتاً ومزيناً له، ولكنهُ مهما بلغ من خبرة لن يقدر ان يعطي البيت كما لو كان في اول ايام بنائه، فمن المستحيل تغيير الاساس، واعادة بنائه وجلب مواد أوليّة من زمنه، وامور اخرى.

كم تمنيتُ ان اكون قادرا على ذلك الامر المستحيل.. بينما تساورني عقبة؛ كيف اكون مقنعاً في الاضافة التي لابد منها..

.٥

كل جندي عراقي عندما يُساق جندياً الى الخدمة العسكرية الالزامية، يلحقه ارشيفه من منطقته، ويكون ذلك سبباً في نفيه الى ابعد نقطة تلامس خط النار.

عادة ما يكون ذلك الجندي صاحب الاضبارة السياسية تحت وابل ضغوط مضاعفة، كما يكون ايضاً صاحب حظ قليل في الاجازات الدورية.

محكوم عليه بان يكون هو حامي الحدود، ويثبت وطنيته وولاءه لقائد الوطن حتى الموت.

"رغما من كونه غير مقبول من آمريه، وكانه قربان الفداء، ولابد من ان يضحى به عاجلاً، او اجلاً ويصحح بدم المسفوح على الحدود مسيرته السياسية المتمردة.

٦.

كنت على يقين انها لن تكون مقنعة لو أضفت اليها ما أريد اضافته عليها.. فكان لزاماً عليّ بان احاول مثل كل مرة ان اطلع على نماذج روائية كثيرة، عالمية ومحلية بالإضافة الى ما وقع تحت يدي من روايات مهمة قد تركها لي في دولابه الذي قد سلمتني مفاتيحهُ "والدتي"..

بقيت كلما اتقدم لأكتب، اجدني افتقر الى الانضباطٍ في الصبر على ما افكر به، وانزله على الورق.. فكتابة عدة سطور لغرض نشرها تمرر صاحبها بمحنة كيف سيتلقاها الآخر، والأهم ان لا يتلقاها بصورة اخرى..

تساءلت مراراً مع نفسي هل يمكنني ان أروي هذه السيرة بحرية أكبر، بعد أن استمعت من والدي الى اصل الحكاية، وخفاياها الدقيقة، والتي كانت تشغل أخي "محمد" في بحثه الكتابي عن "مكابيوس".

٧.

قال له والدي:

- "الشيوعيون باتوا يوشون بعضهم الاخر. واغلبهم يكتبون عن بعض، وتخليص انفسهم. لذلك تهمة الشيوعية، لن تفارقك أبداً حتى لو لم تكن شيوعياً.. اصدقاؤك همّ الواشون".

انت لا تدرك ذلك ابداً.. هذا زمن الصراعات السياسية المصيرية، وتكون الاحزاب المتسلطة متعمدة لإظهار شراستها، حتى تثبت قوتها، وتفرض هيمنتها باي ثمن.

.٨

عندما تقرأ رواية ما وتصل بفصلها الاخير الى نتيجة حاسمة، فاعرف بانها كانت تحمل خللاً تقنياً معيباً. فكتبت هذا الملحق الذي ربما يكون طمعاً بإضافة سيرته ما بعد دخوله الجامعة، واسباب عدم اكمال دراسته مع اقرانه. فالسيرة التي يدونها الكاتب عن نفسه عادة ما تكون سيرة تجميلية، ومهما كانت الاسباب. ربما اضافتي ستجعل منها سيرة جيل عراقي واكب حرب الخليج الطاحنة والتي اكلت الكثير، من بعد ان غضت النظر عنها الكثير من الاقلام. فإضافتي ستكون تأطيراً ذاتياً لما جاء بعد كتابة اخي الذي كتبها وهو لم يكن الا برعماً غضاً بريئاً..

.٩

-"شبهة الشيوعية التي لصقت بك من جراء عدم اختيار الاصدقاء المناسبين.. اغلبهم تعساء وانت لا تستمع النصائح"..

لا اريدك ان تذهب مع اصدقائك الى الصلاة مرة اخرى.. مفهوم؟، هناك من يريد استغلال المواقف على اكمل وجه، يعملون على توريطكم من بعد ان جمعوا معلومات كاملة، تتضمن الاصدقاء، واصدقاء اخوتهم، اعمارهم، هواياتهم، وما الى ذلك. هم من اطلق (وشاية غير مباشرة) بانكم شباب نشطاء في حزبهم الديني. وعليه فانتم

مدعومون من دولة اقليمية، نيتكم تغير نظام الحكم بالعراق.. دفعوا بأسماء آلاف الأبرياء من الذين تتراوح اعمارهم ما بين (١٥ـ٣٠ سنة). وبعد يومين او ثلاثة، تنطلق عليهم حملة اعتقالات قسرية، غايتها احراج الحزب الحاكم في فخ قد نصبه دهاقنة الساسة، لدعم الحزب الجديد كنشاطات تروج هويته، واهدافه.. لكن الشباب هم القرابين في كل الاحوال. يسهل التحشيد، وتستمر دوامة الغليان النفسي، وتكون نقمة الاهل على الحكومة، مستمرة. اريدك ان تحذر ياولدي ليس اكثر..

و"لم يستمع للنصيحة"..

تلك هي مقولة كل اب عندما يتاكد له بان ابنه كرر خطأه.. اذ تحقق ما كان والدي يخافه، فألقي القبض عليه، اثناء ادائه الامتحانات النهائية المرحلة الاولى في قسم اللغات.. مشتبهاً بانتمائه لذلك الحزب، ومن حسن الحظ، تمكن "والدي"، وانقذه مبكراً من ذلك الامر، يومها استعان باحد معارفه من الاصدقاء الفاعلين الاعيان في مدينة "تكريت"، وتمّ الافراج عنه.

ولم يعبر الى المرحلة التالية من دراسته، كما لم تفارقه في مطلع العام الدراسي الجديد تهمة "الحزب الشيوعي"، بل كادت هي الاخرى ان تطيح به..

.١٠

آخر مرة كتب أخي "محمد" في اوراقه التي يرقنها على الالة الكاتبة، كان قد اتبع طريقته السرية في اخفاء ما يكتبه وخصوصاً عن "والدتي"، والاغرب بانها هي من علمني، كيفية قراءة تلك الاوراق.

سبق ان كتب بطريقتين، الاولى كان يستخدمها في كتابة ما يودّها ان تقرأه، اذا كان يضع ورقتين الاولى من ورق الكربون، وتكون تحتها الورقة الثانية.. عندما تضرب مطرقة الحرف على الورقتين، فتعطي ورقة الكاربون حبرها للورقة، فيظهر الحرف واضحاً على الورقة الثانية، فتكون واضحة القراءة.

اما الطريقة الثانية التي كان يستخدمها عندما يكتب ما يجمعه من معلومات عن الشخص الذي شغل به نفسه، وطويلا دون ان يكتشف بانه كان يبحث عن نفسه، وجمع معلومات لا تستحق ان تهمل، لانها كانت صورة عصره، لقد كتب ما شدّني في متابعته لشخصيات عاش معها، وسمع منها، اغلبها باتت اليوم، بعيدة عنا بين طيات الماضي الذي لن يعود، بعضها قد ماتت، واخرى بعدها حيّة، لو سالتها اليوم لما تذكرت، تلك الشخصيات الجميلة، بقيت حيّة بين الاوراق، لا تعرف النسيان، مازالت تزدان المدينة بها طولاً، وعرضاً، تداخلت معي، وصارت تشاركني حياتي، اراها اليوم، فتبوح، و تملأ الاوراق.

.١١

"إن لم تكن بيدقاً حامياً لصفك في الدست الذي يلعبه صاحبك، فأعلم بأنك لن تصمد طويلاً في البقاء على سطح الرقعة".

بقيت هذه الجملة مخطوطة على قطعة كرتون ومعلقة على الجدار في غرفته، لتكشف تمسكه بأصدقائه، متكفلاً بالدفاع عنهم، وهم من يخيّب له الظن مرة تلو المرة..

١٢.

كان قد كتب في هامش جانبي من اوراقه:

"اعتمدتُ على الاقوال التي سمعتها من الاهل، والجيران في كتابة هذه الاوراق، لاني اثرت تسجيلها، بمثل ما سمعتها، البعض منها لم تكن مسموعة مباشرة من اصحاب الشأن، وخاصةً تلك الاقوال التي تخص ابويّ، ولا اريد نسيانها، لأني سأجعلها ذات يوم وثيقة، بعد ان عزمت على تدوين سيرة مكابيوس"..

١٣.

خزانة كتبه لم تتجاوز دولاباً صغيراً قد كان في الاصل يعود الى مجموعة اواني الطبخ، مقسم الى اربع طبقات، وفيه تراصفت الكتب التي لم تقل عن المئتي كتاب. بقي مقفلا حتى أحببت القراءة، و الكتاب، فأعطتني امي مفتاحه..

١٤.

بالدعاء وحده هزمنا ملوكاً وجبابرة، واليوم صارت تلك الملوك والجبابرة تعرف اسرار الدعاء وقوته، وراحت تزايدنا بدعائها الى الله حتى هَزَمتنا.

١٥.

ينتبه الطفل للكتاب عندما يجد من يحبه منشغل عنه به، خصوصاً الابوين، والاخوة، وهكذا.. تلك الصورة قد تبقى في ذهنه الى الابد، ويبقى احترام الطفل للكتاب. عادة القراءة، مكتسبة بفضله قرأت العديد من الروايات المهمة.

١٦.

أحلامنا تاريخُها كلهُ اعتراضات كسل، ونصوصنا تاريخٌ من التعارض، والمثالب، فمن يفهم التعارض في هذا العقل لن يعي الا التحول الى الظل، وعدم مواجهة الشمس، والنزوح الى العتمة.

١٧.

في سن الخامسة قد دخلت المدرسة، وكنتُ متقدماً جداً على اقراني في الدراسة، حيث كنتُ ممسكاً للقلم كما كنت اجيد قراءة الحروف وكتابتها مع الارقام قبل دخولي الى المدرسة. يبدو ان "والدتي" قد غيرت تاريخ شهادة ميلادي، ايضاً.

١٨.

كلهم القادمون؛ حمَّلوها اسمائهم المجعلكة، واخذوا منها الصفاء.. جاؤوا من غيٍّ غير متحضر.. نصبوا الخيام، ليجيروها الى التلف.. جاؤوا من حدود الجشع بالسيف بالقهر يطرحون سلاماً لا يعتبرونه الا خصاماً.. جاؤوا بأسطوانات لا تعرف الا الجزع، وبسرّ

/

يلوكهُ البعير، وجه مدينة، ربما مدينة اراها كوجه أبوي لا يريد من جاؤوا ..

١٩.

"علّها مسافات الاشواق بفراسخها الموغلة بالتيه والتشتت ستقف عندك كما يقف العصفور على غصنه المتين في اليوم العاصف".

٢٠.

الحقيقة التي وصلت اليها متأخراً، ولكن بعد خسارات باهظة.. العمر الذي وقف عندك لم يبق فيه ما يسر... حتى الدمعة لم تعد تنزل مِدْرارَة كما كانت في الطفولة..

٢١.

تحية طيبة وبعد:

بعد السلام على "ابي" و"امي" الغاليين.. قبلاتي لهما ولك ايها الشقيّ، وبعد الأشواق الكبيرة إليهما واليك، والى البيت الذي نشأت فيه، والذي طالما اشتقت الى ذلك الزمان وذلك المكان، والى غرفتي التي كنت تدخلها تعبث بآلتي الكاتبة..

بعد ان اخذت "المفتاح النحاسي" الذي سلمه لي "ابي"، والذي تسلمه من عمي "حسقيال" كعلامة تعريف لا تقبل التغير، اعددت العدة بمساعدة احد ابناء محلتنا "هيثم" والذي كنا نلقبه بالوسخ، فهو من قدم لي تسهيلات كبيرة مقابل المال، حيث تمكن من التغطية علي حتى عبرت الارض الحرام، واعطاني خريطة حتى وصلت الضفة الثانية، وسجنت هناك عدة شهور، من بعد تحقيق، وقسوة تعذيب بأشَرِّ الاساليب. ثم استطعت المغادرة الى افغانستان، ومنها الى روسيا سراً، ونفدت بجلدي، متوجهاً حيث يقيم والدي "يهودا".. وأعلمك بأن أخباركم كانت تصلنا أولاًّ بأولٍّ...

-انتهت-

متاهةُ أخيرِهمْ

محمد الأحمد

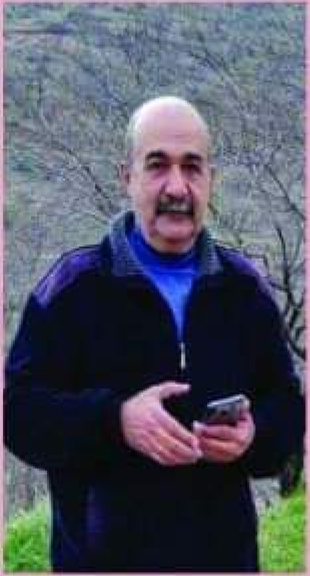

محمد الاحمد
كاتب عراقي تولد 1961
حركة الحيطان المتراصّة (رواية)
ورد الحب وداعا (رواية)
دمه (رواية)
جمرة قرار أبيض (قصص)
أربع وأربعون متوالية (قصص)
بعد الجمر قبل الرماد (قصص)
ما بين الحب والحب (قصص)
زمان ما كان لي (متوالية قصصية)
الحلمُ بوزيرة (متوالية قصصية)

توفر متن هذه الرواية المذهلة على عدة عوامل لتجعلها الرواية الناجحة، أولها محورها حكاية مشوقة عن تاريخ عائلتين عراقيتين، بامتداد لأكثر من مئة عام غطت بتفاصيلها أحوال العراق حتى نهاية القرن الماضي.. فيها المعلومة المسردة بتفصيل أنيق، كأنما وثيقة تأريخ: قال عنها مترجمها إلى الانكليزية "كريستوفر مارس" في مفتتح تقديم طبعتها الانكليزية الثانية "بأنها رواية استوفت بشروطها الفنية لتكون واحدة من بين أجمل الروايات في العالم". حيث تتميز هذه الرواية الإشكالية "متاهة أخيرهم" بأنها ليست عملا عن التاريخ المنظور بل عن أجيال ومفارقات، يأخذ فيها المألوف موضعا غريبا حتى يحرضنا على التكهن والتأمل، لأنه عمل هام بكل المقاييس.

-الناشر-

لوحة الغلاف للفنان منير العبيدي

عين على الكتاب
الثقافية
دار للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي
مجمع الميالي - الطابق الاول
هاتف: 009647714343692
تصميم: علي كاظم الشويلي

9 789922 906935